

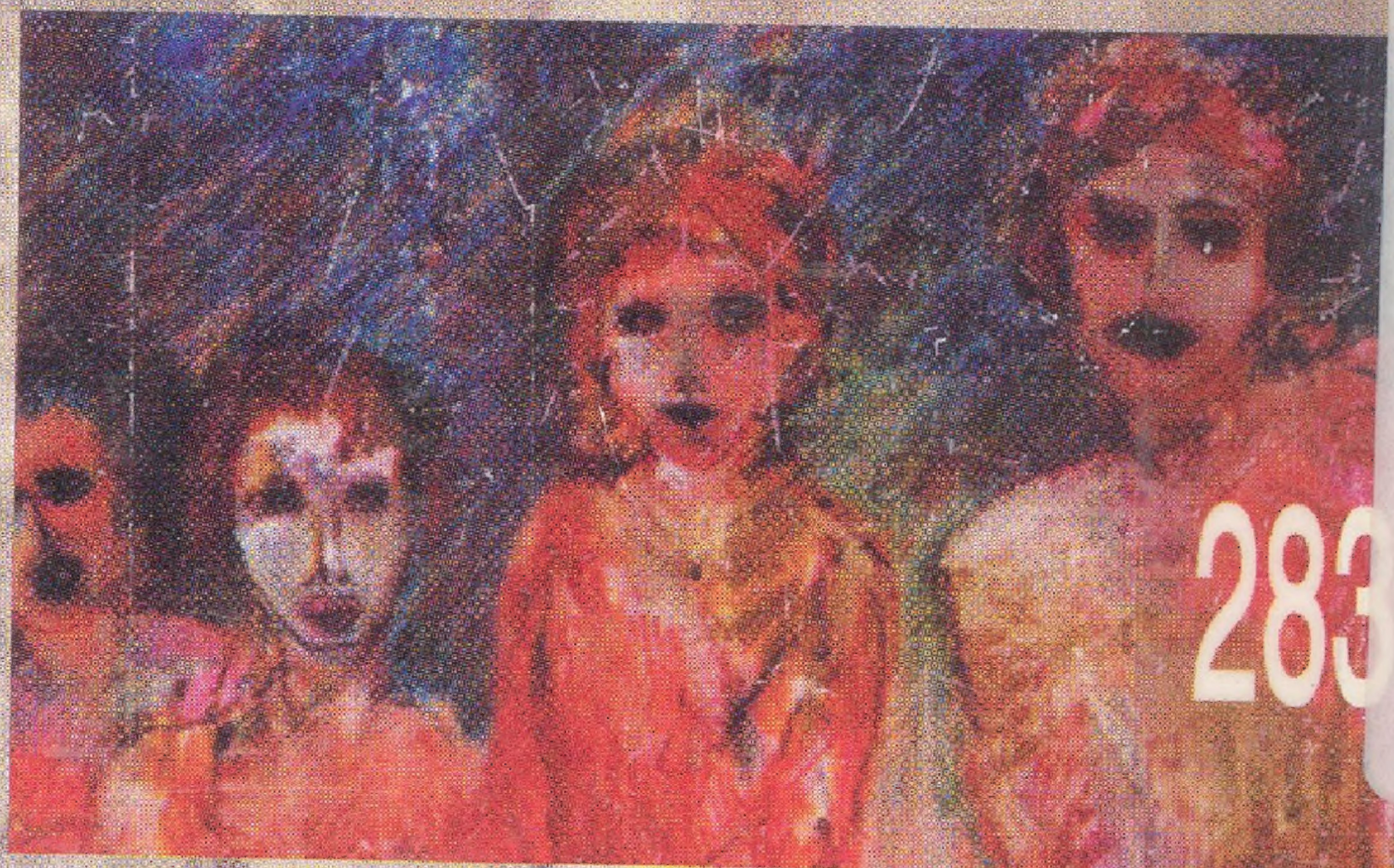
المشروع القومي للترجمة

السهل يحترق

مجموعة قصصية للكاتب المكسيكي خوان رولفو

ترجمة وتقديم:

على عبد الرؤوف البمبي



283

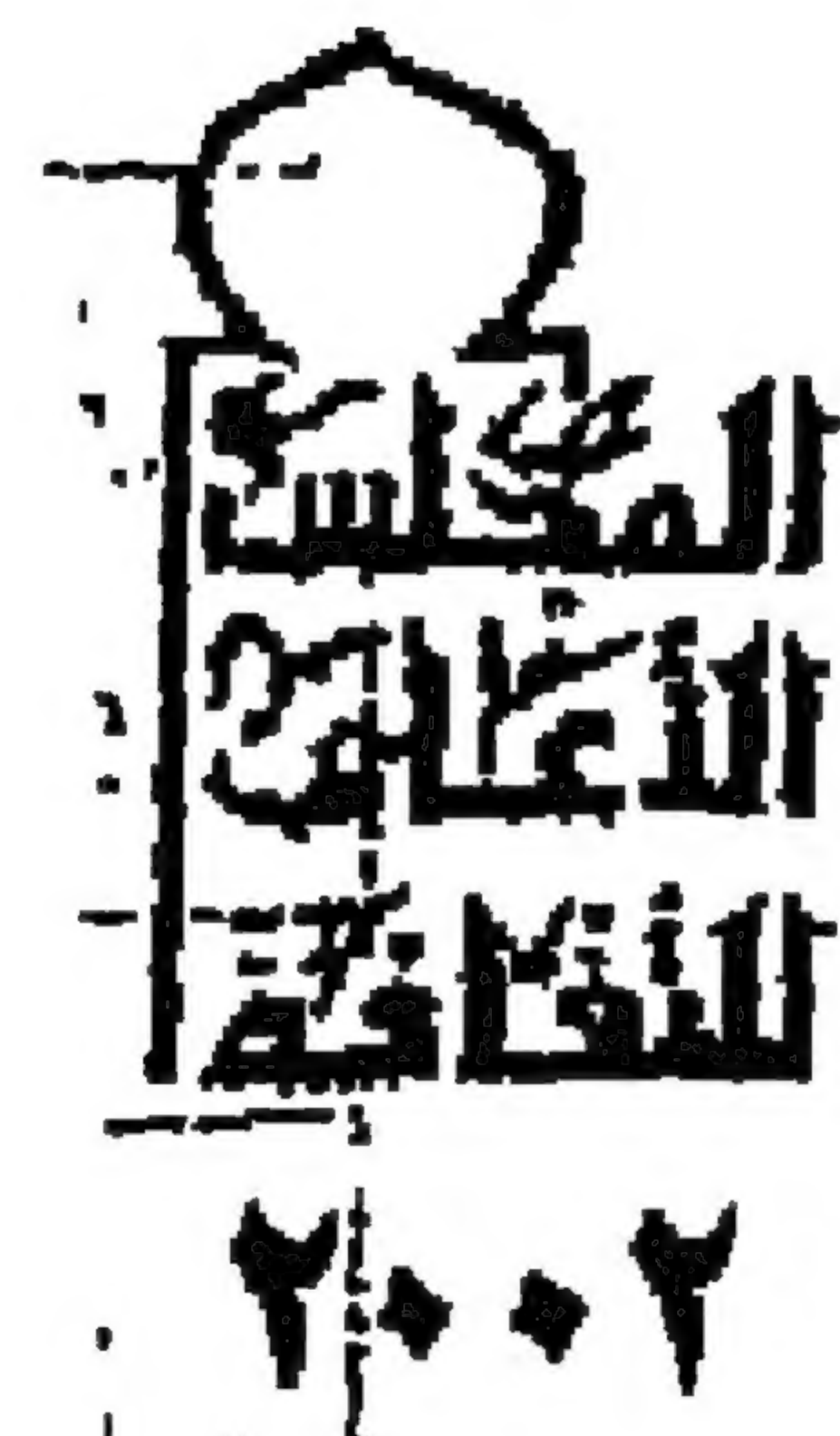
المشروع القومي للترجمة

السهل يحترق

مجموعة قصصية للكاتب المكسيكي « خوان رولفو »

ترجمة وتقديم

على عبد الرؤوف البمبي



المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

Juan Rulfo : El llano en llamas.
Cátedra, Madrid, 1988(4^a edición) .

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلالية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezeira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 6358084 E.Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات الشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها فهي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

« خوان رولفو » والسهل الصامت الحزين

أمريكا اللاتينية مارد جبار ظل حبيس القمقم آلاف السنين إلى أن اكتشفه التاريخ مصادفة ونزع عنه الغطاء .. لم يكن يدور بخلد «كولبس» أو « كولون » - وهو يبحر بسفنه من مرفأ إشبيلية عام ١٤٩٢م باتجاه الغرب قاصداً جزر الهند الشرقية - أن القدر يزفه إلى عالم بكر يتألق جمالا وسحراً .. انعقدت ألسُن البحارة والعلماء المرافقين للمكتشف العظيم عندما وجدوا مالم تره عين ولم يخطر على قلب بشر ماثلاً أمامهم : طبيعة تضطرب جوانبها بشتى ألوان العجائب والغرائب من ينابيع وأنهار وأشجار ونباتات وزهور وطيور وحيوانات وأسماك ... الخ ، لم يعثروا لمعظم هذه الغرائب على مسميات فى اللغة الإسبانية ، وهدتهم قريحتهم لاختراع أو استنباط أسماء لها من الأساطير وقصص الفروسية الجامحة .. إنه عالم فائق الوصف ، يكتتفه الغموض ويحتاج تفسيره لشطحات الخيال ، عالم يختلط فيه الواقع بالأسطورة ، ويمتزج فيه الحاضر بالماضى السحيق ، وتسكنه - بعد الاكتشاف - أخلاط بشرية من كل حدب وصوب ، ومع هذا - أو لأجله - فهو عالم يموج بالاضطرابات والعنف ، وتعشش فيه المتناقضات بالرغم من تخلصه من التبعية للفاحين وامتلاكه لزمان نفسه ...

والمكسيك التى ينتسب إليها كاتبنا « خوان رولفو » (Juan Rulfo) هى جزء من هذا العالم المدهش وتاريخها الحديث حافل بالثورات والانقلابات وحركات التمرد والعصيان التى يحتاج بيانها إلى

عشرات الصفحات ؛ ولذا فإننا سنقتصر على الإشارة إلى تلك الحقبة التاريخية التي تشكل فيها وجدان « رولفو » وكان لها الأثر في تحديد هويته ورؤيته للعالم المحيط به كمبدع وقاص .

عندما ولد « رولفو » كان قد مرّ على ثورة (١٩١٠) ثمان سنوات ، وعندما صدرت مجموعته القصصية « السهل يحترق » (١٩٥٣) كانت آثار هذه الثورة قد أصبحت واضحة للعيان ؛ فقد ازدادت الكثافة السكانية ، وتضاعف الناتج القومي عشرات المرات ، وحدث نمو كبير في معدلات التصنيع ، وأنشئت الجامعات وتعددت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى ، وعُبدت الطرق وشقت الترع والقنوات ، وأقيمت المشروعات الزراعية الكبرى ، وهجر الفلاحون قراهم وانتقلوا إلى المدن للعمل في مصانع السيارات والبيبسي كولا والعيش في أحياء عشوائية بداخل أكواخ ... إلخ ، لكن هذا النمو الاقتصادي لم يعد بالنفع على القاعدة الشعبية العريضة ، بل استأثرت به الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات وكبار المستثمرين وعدد من الانتهازيين (القطط السُّمان) الذين لا تخلو منهم مجتمعات العالم الثالث .

وبالطبع فقد جذّت الدولة - بحزبها الأوحـد - من يتغنون بتحقيق الثورة لأهدافها ، وبالرغم من الدعاية الرسمية والبطش بأصحاب الرأي المخالف فقد وُجد من يعلنون زيف هذه الادعاءات أو يتهمون الثورة بخيانة مبادئها .

وعلى صعيد الأدب اهتم أصحاب الفريق الثانى (المعارض) بتسليط الضوء على المشاكل الجمة التى يعانى منها الفرد العادى وعلى الظروف الصعبة التى تمسك بخناقها من زمن بعيد ، ولم تخفف الشعارات الثورية منها بل زادت بها بلّة عندما ملكت الأراضى الشاسعة الخصبة للشركات الكبرى لكى تصدر منتجاتها إلى الخارج ، وأجبرت الفلاحين على الهجرة إلى المدينة للقيام بأهون الأعمال أو محاولة تجاوز الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية فراراً من قسوة الجوع ... الخ ، ويطلق على أصحاب هذا الاتجاه بالكتاب « الإقليميين » أو « المحليين » ، وهم يعتبرون إحدى حلقات السلسلة الطويلة التى تضم كثيراً من كتاب القصة فى أمريكا اللاتينية ابتداء من العقد الثالث للقرن العشرين ؛ فهؤلاء الكتاب قد نصبوا أنفسهم وسطاء بين الفرد الأعزل وبين الطبيعة القاسية المكفهرة ، وحملوا على عواتقهم مهمة تخضير القفار المترامية الأطراف ، وسبّروا أغوار بقايا الثقافات القبلية ، وتسجيل النوائب والكوارث ، ورصد الصراعات الاجتماعية فى الإقطاعات الزراعية والمناجم والمجتمعات العمرانية الجديدة ... إلخ .

ورائد هذا الاتجاه هو البوليفى « ألثيدس أرجيداس » الذى أدان (عام ١٩١٩) استغلال البقية الباقية من الهنود الحمر ، ثم تبعه بعد ذلك كثيرون مثل المكسيكى « أجوستين يانيث » ، والبيروانى « خوسيه ماريّا أرجيداس » ، لكن أبرزهم جميعاً هو الكاتب الجواتيمالى « ميغيل أنخل أستورياس » .

وخصائص هذا الاتجاه الأدبى - بالرغم من حنكة أصحابه المتأخرين وبراعتهم - تتمثل فى : التصوير الفوتوغرافى للواقع

دون تجسيد وإبراز ملامحه ، واللجوء إلى التعميم ، والتزام الحرفية والعناية بالصياغة الأسلوبية ، اختيار النماذج المثيرة والغريبة التي يطغى إبهارها على ما يمكن أن تتركه من أثر في الذاكرة ، والإغراق في اللهجات المحلية التي تحصر الشخصيات في نطاقها الإقليمي وتحد من انتشارها خارج حدودها الجغرافية .

وعندما وصلت فترة الخمسينيات - أو « الفترة المدهشة » ، كما يطلق عليها النقاد - نشطت القصة في أمريكا اللاتينية من عقاليها المحلي وانطلقت صوب العالمية إلى أن بلغت ذروة النضج والإتقان - أو « الانفجار » - خلال الستينيات .

وفي المكسيك كان صاحب الدعوة إلى التحرر من الإقليمية هو الكاتب « أوكتافيو باث » ، حينما نادى عام (١٩٥٠) بضرورة أن يتحدث المواطن المكسيكي عن نفسه في أدبه كما يحدث في الغرب ، وإتاحة الفرصة للتأمل الثاقب لأغوار الذات بحيث يمكن عرض الأشياء كما هي ، مع تفادي الروابط المحددة المحسوسة التي تصلها « بالتاريخ » - بقدر المستطاع - .

و« خوان رولفو » يعتبر مزيجاً من الاتجاهين السابقين أو - بمعنى أصح - كاتباً « إقليمياً » متفرداً ، ينوء بتبعية المحلية ، لكنه لا يغفل أنماطه بقيود تعوقها عن الانتشار .

لكن من هو « خوان رولفو » هذا ؟ ولماذا كل هذا الحزن الذي يعيش في كتاباته ؟ وما سر استخدامهم لهذا الأسلوب الشديد الصرامة المترع بالألم والوحدة والعنف ؟

سنحاول فيما يلي الإجابة على هذه التساؤلات من خلال التعرف على رؤيته الخاصة للعالم كما تتجلى في مجموعته القصصية الرائعة « السهل يحترق » ، ويأدى ذى بدء نقول إنه مما لاشك فيه أن لحظات التوهج في مسيرة المبدعين الكبار قليلة ، فمهما كثرت أعمال هؤلاء وتعددت نجد أن روائعهم لاتزيد عن عملين أو ثلاثة أو ما لا يتعدى أصابع اليد الواحدة بأي حال . و«خوان رولفو» واحد من هؤلاء الذين حفروا أسماءهم بحروف من نور ونار في سجل الإبداع الروائي بالرغم من أن مجمل حصيلته الإبداعية قد لا يتجاوز الثلاثة أعمال : « السهل يحترق » (El llano en llamas) ؛ « بيدور پارامو » (Pedro Páramo) ؛ « لاكوردييرا » (أو « سلسلة الجبال ») (La Cordillera) .

ولد « خوان رولفو » عام (١٩١٨) في « أبولكو » (سايولا) التابعة لولاية « خاليسكو » المكسيكية . وهي منطقة قاسية ، جافة وشبه خربة ، نزع معظم سكانها فراراً من الثورات والحرائق والتصحر . ومن بقى منهم هناك يعيش في ظروف مناخية وإنسانية غاية في السوء ، يعاني قسوة الطبيعة وظلم الفقر وإهمال السلطات المركزية . ومع ذلك فهم قابعون هناك ، هامدين مثل ما يحيط بهم من أشياء ، مذعنين لقدرهم في انتظار الموت - حسبما تشير إحدى قصص مجموعة « السهل يحترق » - . لم يستقر « رولفو » في « أبولكو » كثيراً لأنه انتقل مع أسرته ، بعد بضع سنوات من ولادته ، إلى « سان جبريل » ، وهناك أدركته ثورة « لوس كريستيروس » (Los Cristeros) التي اندلعت عام (١٩٢٦) واستمرت ثلاث سنوات كاملة ، وفيها فقد أباه وجميع أعمامه .

يتحدث « رولفو » عن الأثر العميق الذي تركته هذه الثورة في حياته قائلاً : « كانت طفولتي بالغة القسوة والصعوبة . تبعثرت أشلاء عائلتي بكاملها في مكان تم تدميره وسحق كل ما فيه (..) . لأجد إلى الآن تفسيراً منطقياً لما حدث (...) لا يمكن إلقاء التبعة برُمَّتْها على الثورة . إنه شيء يضرب بجذوره في أغوار الماضي ، شيء قدرى ، غير منطقي . لا أستطيع العثور حتى اليوم على سند واحد يبرر قتل أسرتي بهذا الشكل أو لارتكاب سلسلة الفظائع والاعتقالات دون سبب » .

وبعد الثورة بست سنوات ماتت أمه وتركته وحيداً فأخذته دار لرعاية الأيتام ليبقى فيها أربع سنوات : من العاشرة حتى الرابعة عشرة . تركت هذه السنوات ندبة لا تنمحي داخل كيان الصبي ، عندما يتذكرها « رولفو » يقول بصوت مُجَلَّل بالأسى : « ما تعلمته كان الاكتئاب ، كانت فترة من الفترات التي عانيت فيها من وحدة قاسية وأصابتني بحالة من الاكتئاب لم أشف منها حتى يومنا هذا » .

وتذكرنا هذه العبارة بأخرى وردت على لسان إحدى شخصيات قصة « قل لهم يتركوني أعيش » (وهي تنتمي لمجموعة « السهل يحترق ») ، تقول : « من العسير أن تنمو وأنت تدرك أن الشيء الذي يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات » .

المهم أن « رولفو » استطاع - في ظل هذه الظروف الصعبة - إنهاء تعليمه الأساسي ودراسة المحاسبة وإمساك الدفاتر ، وبعدها ذهب إلى العاصمة (مكسيكو) ليدرس القانون ، لكنه لم يكمل دراسته بسبب توقف الدراسة بالجامعة لمدة ثلاث سنوات . اضطر « رولفو »

للعمل مبكراً فى الوظائف الحكومية ، وتقلب بين العديد منها ، حيث اشتغل فى مجال الإعلام (التليفزيون) ومصلحة الرى وهيئة الهجرة وتوفيق أوضاع الجماعات المنعزلة من الهنود الحمر ، كما عمل « سيناريسست » فى فترة من حياته ، ومن الوظائف التى أحبها عمله فى المشروع الحكومى لرى إقليم « بيراكروث » ذلك لأنها انتشلته من العاصمة وأعادته إلى أحضان الريف .

وفى خلال كل هذا لم تنقطع صلة « رولفو » بالقراءة التى أحبها منذ صغره ، وقد أتاحت له وحدته فرصة الاطلاع على آداب متعددة ، منها الأدب الروسى والأمريكى والأوروبى ، لكن الأدب الذى استهواه وملك عليه نفسه هو الأدب النورماندى .

من هذه الإطلالة السريعة تتضح الأبعاد المأساوية للحياة التى كان على « رولفو » أن يعيشها ، فقد ولد فى أقصى الولايات المكسيكية مناخاً وأفقرها تربة حيث اعتاد سكانها - طبقاً لتصريح له - على العمل عشرة أضعاف سكان الولايات الأخرى ليحصلوا فى النهاية على الناتج نفسه .

وعلاوة على قسوة الطبيعة فقد عانت ولايته وتلظت بنيران الثورات والاضطرابات المتكررة التى أكلت الأخضر واليابس وأتت على جميع أفراد أسرته واضطرتته للإقامة فى دار للأيتام ، ولم يسر عنه بعد ذلك مغادرة هذه الدار والانتقال إلى العاصمة التى كانت تنتظره بفاصل من المشاكل (أهمها الوحدة والعوز) أضاف إلى حمله الثقيل وزناً إضافياً من الحزن والكآبة ، ولذلك فهو دائماً صامت وحزين وصارم ومكتئب وخجول ، ولم تشفه الشهرة بعد ذلك من هذه الأوجاع بل إنها اصطدمت مع ما يعتمل بداخله من يأس وصرامة ، وكانت السبب

المباشر في إقلاقه من الكتابة بالرغم من موهبته المتوقدة ومع هذا فقد عاش « رولفو » مدرّكاً لقيمة ما أنجز - على قلّته - وظل محترماً ومحبوياً حتى وافته المنية عام (١٩٨٦) .

نشر « رولفو » أول قصة قصيرة له عام (١٩٤٢) في إحدى مجلات « وادي الحجارة » (عاصمة ولاية « خاليسكو ») ، وشهدت السنوات التالية قصصاً أخرى له ، لكن شهرته ومكانته الأدبية الرفيعة يدين بهما لمجموعته القصصية التي صدرت عام (١٩٥٣) تحت عنوان « السهل يحترق » ، ولروايته المنشورة عام (١٩٥٥) بعنوان « يدرو پارامو » ، وقد توالى طبعاتهما بعد ذلك داخل المكسيك وخارجها ، ثم أطبقت فترة من الصمت تزيد عن الأحد عشر عاماً قبل أن يعود لاستكمال خيوط مشروعه الأخير الذي اختار له عنوان « لاكورديرا » (أو « سلسلة الجبال ») .

وبرغم هذه الندرة ، فإن مجموعته القصصية وروايته اللتين ظهرتتا في الخمسينيات تعكسان بوضوح رؤيته الخاصة للعالم والواقع المكسيكي في فترة زمنية وتاريخية واضحة المعالم ، تتجلى هذه الرؤية في الحزن واليأس اللذين ملكا عليه نفسه من جرّاء نشأته على أرض عاقر عبوس ، أراد أن يتشبّث بها فخانتته في وقت كان ينهار فيه كل ما بداخله ، أرض تضطرب جنباتها بالآلم والعتف المتراكم عبر القرون وجاءت الثورات وحركات التمرد والعصيان لتطلقه من عقاله . يقول « رولفو » واصفاً طبائع سكان قرى منطقته (مثل « سان جبرييل » ، « تابوتيتلان » ، « سايولا » ، « تونايا » ، « سان يدرو » ، « تاليا » ... الخ) .

« ... إذا تحدثت معهم يخيل إليك أنهم لا يجرون على قتل ذبابة ،
إنهم أناس فى غاية الهدوء ، فلاحون من هذا النوع الذى يحتوى على
قدر من المكر والاحتياى والتأهب ، لكنهم فى الوقت ذاته سليمو النوايا ،
ومع هذا فخلف ذلك الرجل يمكن أن تتوارى مجموعة من الجرائم .
عندئذ يختلط عليك الأمر ولا تدرى مع من تتعامل : مع قاتل محترف أو
مع فلاح بسيط .. » .

إن « رولفو » يحمل على كاهله كُرب وألم الرجل المعاصر الذى
ابتلته الظروف بالعيش فى الفترة الشائهة التى أعقبت الثورة وتنبأ بها
« سوليس » المارق بطل قصة « الناس اللى تحت » لمواطنه « مانويل
أثويلا » .

إنه مثل رجل منهار من الداخل يتأمل الأراضى الجافة ، الذرة التى
لا تكبر ، الغبار ، الرياح التى لامعنى لها ، قوافل الحجاج إلى « تالبا » ،
الجرائم الغريزية العمياء ، العنف الميكانيكى الأحمر ، المأساة والفاقة
الخرساوين ، الاستسلام لتصاريف القدر العاتى .. إنه يرى هذه الأشياء
مثل كوابيس لا يمكن أن تداويها برامج الإصلاح الاجتماعى ولا الوصفات
الثورية .. لا يوجد أمامه ، بالتالى ، شىء خارجى يمكنه الاتكاء عليه ،
ولذلك نجد أن شخصياته - سواء من الرجال أو النساء - مُجبرة على
العيش بدواخلها والإذعان للقدر فى انتظار الموت الذى تعتبره أملها
الوحيد .

ففى مقابل البعد الخارجى الذى تعتمد عليه واقعية كُتّاب الثورة
المكسيكية التى تستغرق فى الجانب التهذيبى ، وواقعية كتاب

الثلاثينيات والأربعينيات التي تهتم بالواقع التاريخي وتضع الهدف السياسي - الاجتماعي نصب عينيها ، نجد أن الكُرب والحزن القديرين يصبغان نثر « رولفو » بصبغة قاتمة ويتغلغلان في لغته وجميع تيماتِه .

وتتجلى رؤية « رولفو » الشخصية للعالم في كيفية معالجته للزمن المتعلق بشخصياته . فبينما كان النثر الروائي الجيد قبله (« مانويل أثويلا » و « مارتين لويس جوثمان » ، على سبيل المثال) يعالج الواقع بالطريقة الديناميكية السيّارة ، نجد أن « رولفو » يعيش زمناً داخلياً ذاتياً يفرض إيقافه على كل واقع منفصل عنه ؛ ولهذا السبب نلاحظ أن السكون والإيجاز الرتيب المشبعين بالتوتر والمأساة يسيطران على قصص مجموعة « السهل يحترق » والتي تبدو وكأن الزمن فيها قد توقف وتجمد سريانه ، وينسحب هذا القول على جميع القصص سواء الوصفية منها (مثل « لوبينا ») أو الحوارية (مثل « قل لهم يتركوني أعيش ») أو التي تتناول حدثاً خارجياً (مثل « تالبا ») .

وقد استطاع « رولفو » بيده الخبرة الماهرة إيقاف الزمن ومحو الروابط الخارجية للشخصيات ليصنع لنا هذا العيش الباطني ، ويجعلنا نحس بالمأساة الوشيكة التي لا مناص منها .

ولشرح وبيان هذا التكنيك (توقف الزمن وتجمد سريانه) سنضرب بعض الأمثلة الموجزة ، ونبدأها بقصة « لوبينا » :

يقودنا « رولفو » من بداية القصة إلى زمن غير حقيقي (وهمي) ، إلى زمن متوقف داخل شخص ما ؛ فالعبارة الأولى من القصة تخلو تماماً من أية إشارة يمكن أن تساهم في تأطير المكان وتحديده .

« من بين تلال الجنوب العالية فإن أكمة « لوبينا » هي الأشد ارتفاعاً والأكثر تحجراً » . ثم يتابع الوصف المثقل باللون الرمادى بهدف إبراز الجوانب السلبية للعالم الخارجى : « إنها موبوءة بتلك الحجارة الرمادية التى يُصنع منها الكُلس وإن كان فى « لوبينا » لا يصنع منها كلس ولا يستفاد منها بشيء » .

وتطالعنا الفقرة التالية بعلامات تشير إلى محذوف : « ... والأرض شديدة الارتفاع » ، وما حسبناه وصفاً للمؤلف يخيل إلينا الآن وكأنه تأمل لشخص ما ، وبالفعل عندما نصل إلى نهاية الفقرة نعرف أننا دخلنا - دون أن ندري كيف - فى وصف منطوق ومستمر على لسان أحد الأشخاص : « أحيانا يزدهر نبات « الشيكالوته » بشقائقه البيضاء ، مختبئاً بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظل . لكن الشيكالوته سرعان ما يذبل ، وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية ... » . لانحس هنا بأن أحداً يكتب بل يتكلم ، والإبهام الذى يشع من « أحد » يساعد على حجب هوية المتكلم ، وهكذا نكتشف أن ما بدا وكأنه وصف خارجى ، من عمل الراوى ، ما هو إلا طرف لمصادفة نابعة من داخل الحكاية نفسها .

ويزداد حجم الدهشة عندما نصل إلى الفقرة الثالثة والتى نستدل من العلامة التى تبدأ بها (الشرطة) على أن الكلام الذى سنسمعه ما هو إلا جزء من حوار : « - سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على « لوبينا » . إنها قاتمة » .

وفى نهاية الفقرة الثالثة يطالعنا شخص آخر - نظن أنه المؤلف -
ليقول : « ظل ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتاً برهة محملاً فى
الفضاء » .

من يتحدث ؟ ومع من ؟ وأين ؟ وبهذا الشكل ينقلب الحوار إلى نوع
من « الديالوج » الداخلى « لذلك الرجل » الذى لانعرفه ؛ إلى ديالوج عارٍ
تماماً عن ملايسات الزمان والمكان .

وهذه إحدى خواص « رولفو » الأسلوبية وسمة من سمات رؤيته
للعالم : إنه لا يكلف نفسه مطلقاً عناء تسمية شخصياته أو إزالة
مايكتنفها من غموض وإبهام .

ومن جهة أخرى ، فقد ساهم هذا الإيهام الذى يغلف المكان -
بالإضافة إلى اللون الرمادى والإلحاح على الجوانب السلبية فى الوصف
وتحول الكاتب بخفة من دور الراوى إلى تقمص دور إحدى الشخصيات
- فى إضعاف الروابط بين الواقع وبين من يلاحظه (وهذا ما يسمى
بالواقعية السحرية) .

وكما تقدمت القصة زاد الإحساس بالجمود والتوقف الزمنى ،
فـ « لوبينا » من الخارج لا يحدث فيها شىء (تمطر قليلاً نعم ،
تمطر قليلاً) ؛ لا يحدث فيها أحد تقريباً ولا يعمل ؛ حتى الريح بالرغم من
جوارها فهى ساكنة و « مكومة » هناك . كل شىء متوقف فى « لوبينا » :
« إنه مكان يعيش فيه الحزن » ، لا يوجد هناك سوى العجائز جالسين
على عتبات دورهم « معلقين أبصارهم بشروق الشمس وغروبها ... إنها
العادة ، يطلقون عليها هناك « القانون » ، والقانون والعادة من الأمور
الثابتة التى لا تتغير .

وطبقاً لرأى الشخص الذى يتأمل بصوت مرتفع ، فإن الإيقاع الخارجى للحياة فى « لوبينا » معطل ، وتكرار هذا الشخص للكلمات والأفكار يؤدى إلى تقوية الإحساس بالعزلة ويتوقف كل شيء :

« - سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على « لوبينا » ، إنها قاتمة - يقولون إنها تجر جرماً من البركان ، لكن الشيء المؤكد أنه هواء أسود . عما قريب سترى ، إنه يمسك بتلابيب الأشياء فى لوبينا وكأنه يعضها ... عما قريب سترى » .

وتكرار الكلمات والأفكار خاصية أسلوبية أخرى لـ « رولفو » ، ويبدو كأن شخصياته لا تريد الخروج من ذواتها لى لا تسمح بأى تطور أو نمو زمنى ، ولذلك فهى معتادة على تكرار بداية الفكرة كل بضعة جُمَل ، مما يعطى الانطباع بأن الكلمات تنطلق فى اللحظة نفسها دون فاصل زمنى .

وبهذه الطريقة يقدم لنا « رولفو » رؤيته لواقع الحياة الريفية المكسيكية التى يبدو فيها وكأن شيئاً لا يحدث فى الخارج ، وإذا حدث فإنه يتم بطريقة آلية ، وفاءً لقانون العادة ، أو فى شكل انفجار عنيف (شخصى أو جماعى) يترسب فى النهاية داخل عتمة السكون بذوات الأشخاص الذين يشبهون الطبيعة القفر وكأنهم جميعاً رموز خرساء .

ولم تسلم القصص ذات الطابع الدرامى المعتمد على الحوار من خاصية تعطل الزمن وتجمد الأحداث الخارجية ، فالقصة التى

تحمل عنوان « قل لهم يتركوني أعيش » تتضمن انفجارين عنيفين من تلك الانفجارات التي تقطع السريان الرتيب للزمن الداخلى لهذه الشخصيات : حادث قتل ، وبعده بخمس وثلاثين سنة حادث إعدام ، وهما فى الحقيقة حدثان ميكانيكيان لايفيران من سكون وكرب الواقع الذى يتخيله المؤلف بداخل شخصياته ، بل يمكن القول بأن الرقابة وشدة وطأة القدر على هذه الذوات يؤديان إلى تضائل الإحساس بكل حدث خارجى ، هذا لأننا بداخل حيوات مطرودة من « التاريخ » ، بداخل عالم يبدو من داخله وكأنه لامفر من الإذعان الصامت لحتمية « المكتوب على الجبين » .

لنتأمل هذا الجزء من القصة :

« من كان يظن أن ذلك الحادث الكريه الذى عفى عليه الزمن وابتلعه النسيان - حسب اعتقاده - سيعود ليطل برأسه من جديد ، عندما دفعته الظروف ليقتل « دون لويى » ، لم يقتله شططا كما يدعى أهل « ليما » ، بل كانت لديه الدوافع والأسباب ، مازال يذكر ما حدث :

كان « دون لويى تيريروس » صاحب إقطاعية « لاويورتا دى لايدرا » وفوق هذا أباه من العماد ، ولهذا السبب اضطر « خوبنتشو نابا » لقتله ؛ لكونه صاحب « لاويورتا دى لايدرا » ولأنه أيضاً أبوه من العماد ، ومع هذا منع ماشيته من المرعى .

تحمّل فى البداية ، مراعاة لما بينهما من أواصر الصلة ، لكنه بعد أن حلّ الجفاف ورأى ماشيته تتساقط واحدة بعد أخرى من فرط

الجوع الذى ألهبها بسياطه ، وأبوه من العماد ما زال يركب رأسه ويضنّ عليها بعشب خيوله ، قرر وقتها إزالة سياج المرعى أمام كبة حيواناته شديدة الهزال لكى تأكل حتى التخمة . لم يعجب هذا « دون لوبى » وأمر بإعادة السياج إلى ما كان عليه ليعود « خوينثيو نابا » ليفتح فيه من جديد إحدى الثغرات . وهكذا ، ظلت الثغرة تغلق بالنهار لتفتح بالليل بينما ينتظر القطيع هناك متربصاً بجانب السور ، ذلك القطيع الذى كان يستمد من قبل مقومات وجوده ، معتمداً - فقط - على شم رائحة العشب دون التمكن من الوصول إليه .

احتدم النزاع بينهما ولم يَصِلَا لاتفاق

وقتل لى عاجلاً من العجول .

فى شهر مارس يكون قد انقضى على هذا خمس وثلاثون سنة ، لأننى أمضيت الشهر التالى له هائماً على وجهى فى الجبل فراراً من العدالة .

إن القدر المشئوم والتأمل المقتضب يمثلان هنا لُحمة التكنيك القصصى لواقعية « رولفو » التى تعتبر حادث القتل ومرور الخمسة والثلاثين عاماً وكأنها لم تكن .

ومن سمات هذا التكنيك الذى ينفرد به « رولفو » أنه عندما يشير الى الواقع الخارجى ، فإنه لا يحاول تفسيره أو شرح الميكانيزم الداخلى لهذا الواقع الذى يتأمله أو يخترعه ، بل يقدمه كما هو ويتركه ليتكفل بشرح نفسه ، وعلى هذا فالموضوعية الغريبة التى قد تتراعى

من بين ثنايا هذه المجموعة القصصية لاتمت بصلة لأشكال السرد التقليدية أو للتراث القصصى فى حقبة ما بعد الثورة .

ومن الغريب والمدهش حقًا أن يطل علينا هذا التكنيك الخاص بكتابنا فى موضوع مثل المطاردة التى تتناولها قصة « الرجل » ، إن الزمن فى هذه القصة لا يتحرك فى اتجاه أفقى (من — إلى) بل فى خط رأسى (من أسفل إلى أعلى) ذلك لأن الأحداث تتراكم فوق بعضها بحيث تصبح نقطة النهاية فى مستوى نقطة البداية نفسها وتكون النتيجة إصابة الزمن بالشلل وتجمد الأحداث أو - بمعنى أصح - تحركها فى مكانها نفسه . وكل هذا يتم فى تكنيك معقد إذ من الصعب التمييز فى سرد قصة المطاردة بين صوت الراوى / المؤلف أو المطارد (الساعى للأخذ بثأره) أو المطارد (من عليه الثأر) أو شاهد العيان الوحيد ؛ وإذا فمن الضرورى اتمام قراءة القصة - شأنها فى ذلك شأن معظم قصص المجموعة - حتى يمكن تجميع النتف التى تتساقط من اشارات المتكلمين ورسم صورة تقريبية لجوهر الأحداث .

لكن ، بالرغم من تناثر الموضوع (التيمة) إلا أننا نستطيع بعد تجميع أشلائه الإجابة على الاستفسارات الرئيسية . والجزء الأول من القصة يسير أو يتحرك واقفًا فى زمنين : الزمن المتعلق بإشارات السهارب ، والزمن الآخر يتعلق بإشارات من يطارده ، وفى منتصف الطريق يضطلع بالمهمة راوٍ يتحدث بضمير المتكلم ، ثم وجهة نظر

الشاهد العرضي : وهو راعى أغنام يدلى بشهادته أمام سلطات الأمن بالمنطقة . . وجميع شخصيات القصة هلامية أو زئبقية لا يمكن الإمساك بها ، لأنها سرعان ما تنقلت من بين أصابعنا وتتلاشى في السهل .

وإزاء هذه الرؤية الخاصة لكاتبنا ما زال القارئ حتى اليوم يقع في حيرة إذا أراد شرح وتفسير هذه المجموعة القصصية : إذ لا يستطيع تحديد ما إذا كان « رولفو » يريد أن يقدم من خلالها صورة لما كان زملاؤه في جيل الخمسينيات يسمونه « الذات المكسيكية » (جوهر عارٍ عن التاريخ) ، أو إذا كانت تعكس رؤية خاصة به لعالم قد تشكل خلال فترة طويلة ومعقدة من العنف التاريخي .

وهناك العديد من القصص ذات الأهمية الكبيرة داخل المجموعة ومنها على سبيل المثال : « لقد أعطونا الأرض » (التي تفتتح المجموعة) ؛ « الليلة التي تركوه فيها وحيداً » ؛ « نقطة العبور إلى الشمال » ، « يوم الزلزال » ؛ « السهل يحترق » (وهي التي أعطت عنوانها للمجموعة) . والقاسم المشترك بين هذه القصص يتمثل في إمكانية تحديد إطارها التاريخي : « فالسهل يحترق » و « الليلة التي تركوه فيها وحيداً » تتناولان طرفاً من أحداث الثورة المكسيكية (١٩١٠) وحركة التمرد التي قام بها « لوس كريستيروس » (١٩٢٦-١٩٢٨) ؛ أما « لقد أعطونا الأرض » فتشير إلى عقم سياسة الإصلاح الزراعي وعدم مصداقيتها ؛ بينما تتناول « يوم الزلزال » الديماغوجية السياسية التي سادت فترة ما بعد الثورة ؛ وتكشف « نقطة العبور إلى الشمال » عن التردّي المعيشي وحالة البؤس التي أجبرت - ولا تزال - ملايين الفلاحين على محاولة

التسلل عبر الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ومن جهة أخرى ، فإن القراءة المتأنية لهذه المجموعة تبرهن على مدى سطوة « القانون » (أو القدر) على القاعدة البشرية العريضة حتى قبل الاحتلال الإسباني ذاته . كما يتضح أن هذا « القانون » لم تُمله قوة خارج أسوار الحياة ، وإنما سنّه ويسنّه - دائماً - آخرون بعيداً من أجل مصالحهم ومنافعهم الشخصية ولا تعرف منه الجموع سوى آثاره السلبية عليها ، وهذا « القانون » يمثّل - اجتماعياً - فى شخصية « مندوب » الحكومة أو « الحاكم » أو « الإقطاعى » أو « ربّ العمل » أو الزعماء وأشباههم أو فى الحكومة ذاتها بعسكرها وقضاتها ومحاميها ، ولما كان « القانون » فى صالح هؤلاء الآخرين الذين يصوغونه بعيداً ولا ترى منه الكتل البشرية إلا ما يعكر صفوها فإنها لاتجد وسيلة للاحتجاج سوى الثورة الدموية التى تنتهى دائماً بالهزيمة والفشل الذريع ، وتكون النتيجة هى السقوط فى مستنقع الخنوع والإذعان والاستسلام لهذا « القانون » (أو القدر) .

وكل شخصيات « رولفو » تقريباً من هذا النوع الخانع لقدره المستسلم له .

وعلى سبيل المثال ، فإن الراوى فى قصه « عند السحر » ليس متأكداً من ارتكابه لجريمة قتل صاحب العمل « دون خوستو » : « يقولون إننى قتلتّه . ربما » ؛ ومع هذا لايدافع عن نفسه بل يستسلم ويدعن لما يقوله الآخرون ، وكأن هذا قدره الذى عليه أن يقبله فى صمت ولذلك نجده يرجع وجهه نظر الآخر (القدر) ويقول فى تبدل :

« لكن لا شك في أنهم لم يضعوني في السجن عبثاً وإنما لشيء فعلته ، ألا تعتقد أنني على صواب في هذا الاستنتاج ؟ » .

شيء مشابه لهذا نجده في « لقد أعطونا الأرض » ، وبالتحديد في شكوى الفلاحين لمدوب الحكومة من عدم نفع الأرض التي سلموها لهم :

« - اكتبوا ما تقولون في شكوى ، والآن أغربوا عن وجهي ، إنه الإقطاع الذي يجب أن تصبوا عليه جام غضبكم وليست الحكومة التي تمدكم بالأرض .

- مهلا ، يسيادة المسئول . لم نقل شيئاً ضد الحكومة . كل كلامنا موجه للسهل ...

لكنه لم يرد سماعنا » .

وصورة أخرى للإذعان والاستسلام نراها في هذا الرجل الذي لم يقاوم السلطات عند إلقائها القبض عليه وهو يعلم المصير الذي ينتظره ، بل إنه قام بعد ذلك بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التي سيعلق عليها .

يقول الراوى في قصة « ألا تذكر ! » : « قبضوا عليه في الطريق . كان يعرج ، ولما جلس ليستريح وصلوا إليه . لم يقاوم . يقولون إنه هو الذي قام بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التي حازت إعجابه لكي يعلقه عليها » .

فالسلطات الحكومية بكل أفرادها وهيئاتها لا تتدخل لإصلاح أحوال الناس أو لمساعدتهم بل بصفقتها - كما سبق وأشرنا - ممثلاً للقانون (أو القدر) ولذا فهم لا يتوقعون خيراً من جهتها ،

لكنهم برغم ذلك يرضخون لأحكامها على اعتبار أنها شيء قدرى لا يمكن دفعه أو الفكاك منه .

لنتأمل هذا الجزء الساخر الحزين من قصة « لوبينا » والذي لا يحتاج إلى تعليق لشدة بلاغته وتعبيره :

(حاولت ذات يوم إقناعهم بالذهاب إلى مكان آخر ، أرضه جيدة .
« هيا من هنا ! - قلت لهم .. لن نعدم وسيلة للإقامة فى بقعة أخرى . ستساعدنا الحكومة » .

سمعونى دون أن تطرف لهم عين ، نظروا إلى من قيعان عيونهم
بنقطة الضوء التى تطل منها بعيداً .

- تقول الحكومة ستساعدنا ، يا حضرة المدرس ؟ أتعرف الحكومة ؟
قلت لهم نعم .

- نحن أيضاً نعرفها . يالها من مصادفة ! ما لانعرف عنه شيئاً هو
أم الحكومة .

قلت : لهم إنها الوطن . هزوا رؤوسهم قائلين : لا . وضحكوا ،
كانت المرة الوحيدة التى رأيت فيها أهل « لوبينا » يضحكون ، شحذوا
أسنانهم غير المتناسقة وقالوا لى : لا ، الحكومة لا أم لها .

وعندهم حق ، تعرف ؟ هذا الرجل لم يعلم عنهم شيئاً إلا عندما قام
أحد أبنائه بارتكاب خطأ هناك تحت ، وساعتها قامت الحكومة بمطاردته
حتى « لوبينا » وقتلته . غير هذا لا يعرفون لها وجوداً .) .

يتضح من المثال السابق مدى قدرة « رولفو » على التهمك والسخرية اللاذعة ، وإذا كانت السخرية تمثل عنصراً من العناصر في قصة « لوبينا » فإنها تعتبر المحور الأساسي والعمود الفقري لعدد من القصص الأخرى ومن أهمها « يوم الزلزال » و « أنكليتو مورونيس » . في هاتين القصتين المتضمنتين أيضاً لصور من العنف والدمار يشحذ « رولفو » قريحته ليوجه سهاماً نارية لبعض الأوضاع القائمة (السياسية والاجتماعية) من خلال السخرية المرة ، ففي قصة « يوم الزلزال » ينتقد الكاتب الديماغوجية السائدة في فترة ما بعد الثورة . فعندما دمر الزلزال منطقة بأسرها وسوأها بالأرض وتسبب في موت الكثيرين تحت الانقاض هرعت الحكومة ، ممثلة في الحاكم ومستشاريه وحاشيته ، بزيارتها . ولم يستفد المتضررون من الزيارة سوى بعض الوعود الجوفاء وسيلا من الخطب المنمقة العالية النبرات ، بل إن الزيارة كانت عبثاً لامعنى له ، لأن الأهالي جمّعوا ما تبقى لديهم من أموال لتغطية نفقاتها الباهظة ، وفي هذه القصة تمادى « رولفو » في إبراز التناقض الحاد بين الكلمات المعسولة الجوفاء وبين الواقع الأليم للنكبة لدرجة أن القارئ تنتابه موجة من الضحك لا يستطيع السيطرة بسهولة عليها .

وفي قصة « أنكليتو مورونيس » ينسج الكاتب صورة مضحكة مبكية لآثار الفقر والجهل والتخلف وسطحية التدين في المجتمع ، فقد سمحت هذه العوامل مجتمعة لداعر محتال بالتحول إلى قديس يفد إليه الناس طلباً للكرامات .

إنها إحدى القصص القليلة في المجموعة التي يظهر فيها الحوار جلياً ، وقد نسج الكاتب خيوطه بمهاره ودهاء واعتمد عليه في إبراز حدة التناقض بين وجهتين للنظر في غاية التباين .

إن الحديث عن هذه المجموعة التي تضم سبع عشرة قصة قد يطول إلى ما لانهاية ، لأنها نبع ثر لا يفيض ماؤه ويكتنفها الغموض والإبهام ، ومن ثم فإنها تحتل العديد من التأويلات ، إن الكلام عنها مهما كثر لا يغني عن الانفراد بها وقراءتها مرات ومرات لأنها كالماء الأجاج كلما عب منه الإنسان ازداد عطشه وأحس بالحاجة للرجوع إليه ، ولأن كل كلمة فيها وضعت بقدر ... إن الجمل فيها أشبه بدفقات سلاح نارى ، لكنه سلاح من أرض « رولفو » : تخرج طلقة من فوهته إلى الأمام وترتد الثانية من مؤخرته في الاتجاه المعاكس ؛ فهي تتقدم خطوة وتتقهقر أخرى ، وكأن كل جملة تعض ذيل سابقتها وتعوقها عن الحركة . وليس هذا وحسب ، بل إننا نجد أحياناً خالية من الروابط وأحياناً أخرى نجد بها كلمة محورية تدور حولها بقية الكلمات .

وبالطبع فإننا لم نطف بجميع سراديب هذه المجموعة لأن هذا العمل يتطلب المزيد من الوقت والجهد والصفحات ومقتضى الحال لايسمح بهم ، ومع ذلك مازالت تلح كلمات واجبة في حق هذا الكاتب المقل الذي برهن على أن الإبداع لا يوزن بحجمه وكثرته ، بل بمقدار ما يحمل من إتقان وجودة .

إن « رولفو » يعتبر إحدى العلامات المضيئة في تاريخ القصة والرواية بأمريكا اللاتينية بالرغم من أعماله المحدودة . وهو وإن كان ليس مُجدِّداً ، إلا أنه الأكثر حنكة وبراعة بين الكتاب التقليديين ، إنه يتناول ما يعرفه ويحس به من خلال اتصاله المباشر والعميق بالأشياء الجوهرية : الحب ، الموت ، الأمل ، الفقر ، العنف ... الخ . وبه استطاع الأدب « الإقليمي » أن يتجاوز التصوير الفوتوغرافى والبعد الفولكلورى وأن يقتحم آفاقاً غير معهودة ، لأنه يعرض الحقائق عارية ، وأسلوبه مصفى خال من الشوائب ولغته موجزة وحادة مثل عالمه ، إنه ليس واعظاً ولا معلماً ولا فيلسوفاً ، بل مجرد إنسان مرهف الحس ، يبكى بحرقة أرضه التى كانت مروجاً فى الماضى ، وحوّلها الدمار إلى مقابر ينشق البوم فوقها ، إنه لا يقدح الخيانة والظلم بل يعانيتها فى صمت حزين ، لأنهما جزء من وباء الحياة ذاتها .

على عبد الرؤوف البمبى

لقد أعطونا الأرض

بعد ساعات عديدة من السير دون العثور على ظلٍ لشجرة أو فسيلة أو أثر لنبات ، يُسمع نباح الكلاب .

وسط هذا الطريق بلا شطآن خَطَر للواحد مرات أنه لا يوجد شيء بعده ، وأن من المستحيل مقابلة شيء على الجانب الآخر ، فى نهاية هذا السهل المتصدع بالشقوق والأودية الجافة . لكن ، يوجد شيء ، هناك قرية ، يتناهى إلى الأذن نباح الكلاب ويُحس فى الهواء برائحة الدخان ، وتُستطعم رائحة الناس تلك كما لو كانت أملا .

لكن القرية مازالت بعيدة ، إنها الرياح التى تُقربها .

نسير من طلعة الفجر . الساعة الآن كالرابعة مساء . أحد يطلّ فى السماء ، يمد عينيه إلى حيث يتدلى قرص الشمس ويقول :
- إنها حوالى الرابعة مساء .

هذا الأحد هو « ميليتون » . معه يمضى « فاوستينو » ، « إستيبان » وأنا . نحن أربعة . بإمكانى عدّهم : اثنان فى الأمام ، ومثلهما فى المؤخرة . أنظر إلى الوراء ولا أجِد غيرنا ، حيثُ أحدث نفسى : « نحن أربعة » . منذ فترة ، فى حوالى الحادية عشرة ، كنا بضعا وعشرين ؛ لكننا تبعثرنا حفنة بعد أخرى إلى أن بقيت هذه الأنشطة التى نمثلها .

يقول « فاستينو » :

- يحتمل أن تمطر .

رفعنا جميعاً وجوهنا ونظرنا إلى سحابة سوداء ثقيلة تمر فوق رؤوسنا . قلنا لأنفسنا : « يمكن » .

لانتفوه بما يعتمل في صدورنا . من فترة ورغبتنا في الكلام قد تبخرت ، قضت عليها الحرارة . بإمكان الواحد التحدث على راحته في مكان آخر ، لكن الأمر هنا يتطلب جهداً ، إذا نطق الواحد تسخن الكلمات في فمه من شدة الحرارة وتجف على اللسان حتى تتلاشى مع اللهاث .

هكذا الأشياء هنا . ولذا ليس لأحد الرغبة في الكلام .

تسقط قطرة ماء ، كبيرة وثخينة ، محدثة ثقباً في الأرض لتترك حوله عجيبة لزجة كما لو كانت بصقة ، تهاوت بمفردها . انتظرنا أن تتبعها أخريات ، لا أثر لمطر . لو توجهت العيون إلى السماء الآن سترى أن السحابة المترعة بالماء تركض بعيداً جداً ، بكل ما أوتيت من سرعة . الرياح القادمة من القرية تدفعها نحو الظلال الزرقاء للقمم العالية . والقطرة الساقطة ، سهواً ، تلتهمها الأرض وتوارى داخل عطشها .

ماذا يفعل - بحق الشياطين - هذا السهل المتراعى الأطراف ؟ ما فائدته ؟

عاودنا السير ، كنا قد توقفنا لرؤية المطر ، لكنه لم ينزل ، ومن ثم نستأنف السير مجدداً ، يخيل إلى أننا مشينا أكثر مما قطعناه

من طريق ، هذا ما أظنه ، لو كانت أمطرت فلربما خطرت ببالي أشياء
مغايرة . على كل ، أتذكر أنني لم أرها تمطر فوق السهل منذ أن كنت
فتى ، مطرا بمعنى الكلمة .

نعم ، السهل لانفع فيه . لاتوجد حتى الأرانب أو العصافير ،
لأشياء سوى أعداد قليلة من شجيرات الطلح الجافة الهزيلة وبقعة أو
أخرى لأعشاب مكورة الأوراق ؛ وفيما عدا هذا ، لأشياء .

فى هذا المكان نسير ، الأربعة على الأقدام . قبل ذلك كان كل فرد
منا يمتطى جواداً ويتنكب بندقية « عيار ٣٠ » .

الآن لا يوجد معنا ولاحتى البندقية .

مازلت مقتنعا بأنهم كانوا على صواب حينما أصرروا على تجريدنا من
بنادقنا ، فمن الخطر اجتياز السهل مسلحاً . يقتلون الواحد دون سؤاله إذا
رأوا « عيار ٣٠ » متدلّيا من منطقتة ، أما الجياد فهي موضوع آخر . لو
قدمنا على متونها ، كنا تذوقنا الآن مياه النهر الخضراء ، وتجولنا بمعداتنا
الخاوية فى شوارع القرية وأفرغنا فيها الطعام . كنا فعلنا هذا لو كانت معنا
الجياد ، لكنهم جردونا منها مثلما صادروا البنادق .

أتوجه إلى جميع الاتجاهات ولا أرى غير السهل . أرض
شاسعة بلا فائدة ، تنزلق نظرات الواحد إذا لم تصادف فى طريقها شيئاً
يوقفها . تخرج فقط ، ومن حين لآخر ، بعض السلاحف لتطل بأعناقها
من فوق جحورها فتلسعها حرارة الشمس وتضطرها للعدو بحثاً عن ظل

حجر للاحتماء به . أما نحن ، فعندما يتعين علينا العمل هنا ، ماذا سنفعل لاتقاء الحرارة الملتهبة ؟ لقد أعطونا هذه القطعة المكفهرة الجرداء من الأرض كي نزرعها .

قالوا لنا :

- من القرية إلى هنا لكم .

سألنا :

- السهل ؟

- نعم ، السهل . السهل الكبير بأكمله .

زمنا شفاهنا لنقول لانريد السهل ، نريد الأرض المتاخمة للنهر ، من النهر إلى الغوطات حيث تكثر أشجار « الكسوارين » * والمراعى والأرض الخصبة ، وليس جلد البقرة المتغضن هذا والمسمى بالسهل .

لكنهم لم يتركونا نفصح عن رغباتنا ، فمستول الإصلاح الزراعى لم يأت لإضاعة الوقت فى الحديث معنا . سلمنا أوراق الملكية قائلا :

- لاتهابوا من تخصيص أراض شاسعة لكم وحدكم ، لاتستكثروها على أنفسكم .

- إن السهل ، ياسعادة المستول

- إنها آلاف مؤلفة من الأفدنة .

- لكنها تفتقر إلى الماء . لا يوجد منه مقدار مضمضة .

* كسوارين (Casuarinas) : أشجار ذات أوراق تشبه ريش طيور سريعة الطيران (الترجم)

- والمطر ؟ لم يصرح أحد بأنكم ستتملكون أراض تعتمد على
الرى ، بمجرد أن تمطر هناك ، سترتفع أعواد الذرة وكأنها تُمد مدًا .

- لكن أراضى السهل ، يأسعادة المسئول ، صفيقة وصلبة ونجزم بأن
المحراث لا يستطيع النفاذ إلى أحشائها لأنها مثل المحاجر ، وسيكون من
الضرورى اللجوء إلى القأس لإحداث فتحات بها وإلقاء الحبوب فيها ،
ومع هذا فلن ينبت بها شىء : لاذرة ولاغيرها .

- اكتبوا ما تقولون فى شكوى ، والآن اغربوا عن وجهى . إنه
الإقطاع الذى يجب أن تصبوا عليه جام غضبكم وليست الحكومة التى
تمدكم بالأرض .

- مهلا ، سيادة المسئول . لم نقل شيئاً ضد الحكومة ، كل كلامنا
موجه إلى السهل لانستطيع تحمل ما لا طاقة لنا به . هذا ما قلناه . .
انتظر وسنشرح لك . لنبدأ من حيث انتهينا . . .

لكنه لم يرد سماعنا .

وهكذا أصبحنا ملائكا للأرض ، وعلى هذا الفخار الساخن يريدون منا
بذر الحب وانتظار إمكانيه نباته ونموه ، لكن لن يرتفع فيها شىء ، ولاحتى
تلك العقبان الكبيرة السوداء التى يراها الواحد هنا فى الأعالى وهى تتسابق
محاولة الخروج من هذا الفضاء المتوهج القاسى حيث لايهتز شىء وحيث
يمشى الواحد وكأنه يرتد على عقبيه .

يقول « ميليتون » :

- هذه هى الأرض التى أعطوها لنا .

يسأل « فاوستينو » :

- ماذا ؟

أنا لا أنبس ببنت شفة . أحدث نفسي : « رأس ميليتون » ليست في مكانها . لا بد أن الحرارة هي التي جعلته يهذى هكذا ، الحرارة التي اخترقت قبعته وأسخت رأسه ، وإلا ، فما الداعي لكلامه ؟ أين الأرض التي أعطوها لنا ، يا « ميليتون » ؟ لا يوجد هنا ولا مشقال ذرة من تراب تلعب معها الرياح لعبة الدوامة .

عاد « ميليتون » ليقول :

- ستكون لها فائدة ما . حتى ولو في عدو الأفراس .

- أية أفراس ؟ - سأله « إستيان » .

لم أدق النظر من قبل في « إستيان » كما ينبغي . الآن ، وهو يتحدث ، أُحدّق فيه . إنه يرتدى ستره تصل إلى سُرَّته ، ومن تحت السترة يطل برأسه شيء مثل دجاجة . نعم ، إنها دجاجة ملونة تلك التي يحملها « إستيان » تحت سترته ، تُرى عيناها الناعستان ومنقارها المفتوح وكأنه يتشاءب . سأله :

- من أين لك هذه ؟

- إنها دجاجتي - ردّ عليّ .

- لم تكن معك من قبل ، فمن أين سرقتها ؟

- لم أسرقها ، إنها من حظيرتى .
- أحضرتها ، إذن ، زادا للطريق ، أليس كذلك ؟
- لا ، حملتها للعناية بها . بقيت دارى لوحدها ولا يوجد من يقدم لها الطعام ؛ لذلك أحضرتها . كلما أذهب بعيداً أحملها معى .
- ستموت مختنقة وهى مختبئة بهذا الشكل ، من الأفضل إخراجها لتشم الهواء . .
- أراحها تحت ذراعه وراح ينفخ عليها هواء فمه الحار ، ثم قال :
- ها قد وصلنا إلى الهاوية .
- لا أسمع الآن بقية كلام « إستيبان » . وقفنا صفا لنهبط الوهدة وهو أمامى مباشرة وقد أمسك الدجاجة من رجلها ويجهتد فى تحريكها باستمرار حتى لاتصطدم رأسها بالأحجار .
- تطيب الأرض كلما نزلنا ، يتصاعد الغبار من جهتنا كما لو كانت كوكبة من البغال هى التى تهبط ؛ لكن التدثر بالغبار يسعدنا . يعجبنا . بعد السير إحدى عشرة ساعة متواصلة على صلابة السهل ، نحس بالمتعة ونحن ملفوفون بتلك الذرات التى تتقاذز علينا وطعمها طعم التراب .
- فى أعالى النهر ، تطير أسراب الطيور على رءوس أشجار « الكسوارين » . هذا أيضا يعجبنا ، نباح الكلاب يُسمع حولنا الآن ، ذلك لأن الرياح القادمة من القرية تجعله يرتطم بالوهدة ويغمرها بضجيجيه .

عاد « إستيبان » لاحتضان دجاجته عندما أصبحنا على مشارف القرية . أطلقها لتستفيق من خدرها ، وبعدها اختفى هو ودجاجته خلف حرج من نباتات اللوف .

- لن أبرح هذا المكان - قال لنا « إستيبان » .

تابعنا التقدم وتوغلنا فى القرية .

الأرض التى أعطوها لنا توجد هناك ، أعلى الوهدة .

مطلع العَرَابَات

(أو « لأكويستا دي لاس كومادرس » *)

كان فقيدا آل « تورريكوس » (Torricos) صديقين دائمين لى ، ربما كانا مكروهين فى « ثابوتلان » (Zupotlán) ، لكن صداقتهما الحميمة لى دامت إلى ما قبل موتهما بقليل ، أما بالنسبة لكراهية أهل « ثابوتلان » لهما فلم تعد لها أهمية الآن ، لأنهم لم يكونوا يحبوننى أيضاً هناك ، وأعتقد أنهم لم ينظروا أبداً بعين الرضا لآى فرد يتسمى لـ « مطلع العَرَابَات » . هذا معروف منذ أمد بعيد .

من جهة أخرى ، لم يكن آل « تورريكوس » على وئام مع ساكنى « مطلع العَرَابَات » ، لأن الخلافات بينهم كانت شبه مستمرة ، ولا أبالغ لو قلت إن عائلة « تورريكوس » كانت صاحبة الأرض وما عليها من بيوت ، علما بأن القسط الأعظم من « مطلع العَرَابَات » كان قد وزع علينا - نحن الستين مقيماً هناك - بالتساوى ، ولسم تكن عائلة « تورريكوس » تزيد علينا إلا بقطعة من الجبل عليها نباتات اللّوف التى تتناثر بينها معظم البيوت ، بالرغم من هذا كانت « مطلع العَرَابَات » ملكا لعائلة « تورريكوس » . والأرض التى أفلحها يملكها أيضا كل من « أوديلون » و « ريميخيو » توريكو ، والربى الخضراء - الثمانية عشرة - التى تظهر هناك تحت كانت بالكامل تخصهما ، لم يكن هناك داعٍ للتحقق من شىء لاستسلام الجميع للوضع القائم منذ فترة طويلة .

* « لأكويستا دي لاس كومادرس » (La Cuesta de las Comadres) اسم مكان

(علم جغرافى) ، ومعناها : مطلع العَرَابَات ، فهى من الأسماء الأعلام التى لها معنى (المترجم)

ومن تلك الأيام حتى وقتنا هذا و « مطلع العرايات » يهجرها ساكنوها . من حين لآخر ، كان يرحل أحد السكان ، كان يجتاز مكان مظلة القطعان التي لم يبق منها سوى عمودها الطويل ، ويختفى بين أشجار البلوط ولا يعود للظهور ثانية .

كانوا يرحلون فقط ، وأنا أيضاً كان بإمكانى الرحيل عن طيب خاطر لإدراك السرّ الكامن وراء الجبل والذي لايسمح لأحد بالعودة ؛ لكن تعلقى بأرض « المطلع » وصداقتى الحميمة لعائلة « توريكوس » أقعدانى عن الرحيل .

تقع قطعة الأرض التى أزرع جزءاً منها كل عام بالذرة والجزء الآخر بالفاصوليا على الجانب العلوى ، هناك حيث يهبط السفح تجاه الوهدة المسماة « رأس الثور » .

لم يكن المكان قبيحاً ، غير أن الأرض كانت تتحول إلى مادة لزجة مع حلول موسم الأمطار وتتساقط بها حجارة صلبة حادة مثل جذوع تبدو وكأنها تنمو مع الزمن . ومع هذا ، فقد كانت أعواد الذرة تثبت بها جيداً والكيزان التى تغلّوها حلوة المذاق . كانت عائلة « توريكوس » لا تستغنى عن ملح كربونات الصودا فى كل ما تذردده من طعام ، لكنها لم تحاول ولم تلمح لضرورة إضافة هذا الملح لكيزانى التى كانت ضمن منتجات « رأس الثور » * .

* يشير الكاتب هنا - عن طريق التورية - إلى ظلم عائلة « توريكوس » وتعدياتها على زراعات الآخرين فى المنطقة المسماة « رأس الثور » ، وعن استثنائها لأراضى راوى القصة المزروعة بالذرة من هذا التعدى ، وإذا يصف الراوى محصول ذرته (الكيزان) بأنها حلوة المذاق ، لأنها كانت بالتأكيد خالصة له . (المترجم) .

لهذا السبب ، ولأن الروابي الخضراء - الثمانية عشرة - الواقعة تحت ، كانت هي الأفضل ، هجر المنطقة سكانها . لم يكونوا يذهبون ناحية « ثابوتلان » بل يأخذون الوجهة الأخرى التى تهب علينا منها كل ساعة تلك الرياح المعبقة برائحة أشجار البلوط وحفيف الجبل . كانوا يمضون صامتين ، دون التفوه بكلمة أو الصدام بأحد ، بالتأكيد كانت رغبتهم عارمة فى الشجار مع عائلة « توريكوس » للثأر من الأضرار الجمة التى ألحقوها بهم ؛ لكنهم لم يجدوا الشجاعة الكافية .

الشيء العجيب أنه بعد موت آل « توريكوس » لم يفكر أحد فى العودة ، ظللت أنتظر ، لكن لم يرجع أحد ، وجهت عنايتى أولا لدورهم ؛ أصلحت السقوف وسددت شقوق الحوائط بأفرع الشجر ؛ ولما رأيت تأخر عودتهم تركتها لحالها، الوحيدة التى لم تتأخر أبداً فى المجيء كانت أمطار نصف العام الغزيرة وتلك الرياح التى تهب فى فبراير وتقتلع سقف البيت الذى آوى إليه ، من حين لآخر كانت تأتى أيضاً أسراب الغربان طائرة بالقرب من الأرض وهى تنعق عالياً كما لو كانت متأكدة من تواجدها بمكان خال من السكان .

سارت الأمور حتى الآن على هذا المنوال بعد موت آل « توريكوس » .

من قبل ، ومن هنا ، حيث أجلس الآن ، كانت « ثابوتلان » ترى بوضوح ، فى أية ساعة من الليل أو النهار كان يمكن رؤية بقعة « ثابوتلان » البيضاء بعيداً هناك ، أما الآن فقد ارتفعت نباتات « الحارياس » * وتعاثقت ، وإمالة الريح لها من جانب لآخر لم يعد كافياً لرؤية شيء من خلالها .

* « حارياس » (Jarillas) : نباتات من عائلة الفلقاسيات . (المترجم) .

عما مضى ما زلت أذكر كيف كان عميدا آل « توريكوس » يأتیان أيضا للجلوس هنا ويظلان قابعين ساعات وساعات إلى ما بعد الغروب وهما ينظران دون كلل إلى هناك وكأن المكان هذا يستولى على أفكارهما أو يُذكى فيهما التأمل فى الضوضاء المنبعثة من « ثابوتلان » وتدعوهمما للتجول فيها ، علمت وحدى بعد ذلك أن السبب لم يكن هذا ولاذاك ، كانا يرقبان الطريق فقط : ذلك الطريق الرملی الواسع الذى يمكن متابعته بالعين المجردة من بدايته حتى اختفائه بين أشجار صنوبر قمة « لاميديا لونا » .

لم أعرف مطلقًا أحد يضارع « ريميخيو توريكو » فى حدة البصر . كان أعور . لكن يبدو أن العين السوداء نصف المطبقة المتبقية له كانت تقرب الأشياء بدرجة كبيرة وتضعها تقريبًا فى متناول يده ، ومن هذه المسافة يرصد بدقة متناهية أى جرم يتحرك على الطريق . وهكذا ، فعندما تلمع عينه بالرضا بعد التدقيق فى شىء ما ينهض هو وأخوه من مرقبهما ويختفیان من « مطلع العرّابات » زما قد يطول أو يقصر .

فى أيام غيابهما كان يتغير كل شىء بيننا ، يذهب الناس لإحضار بهائمهم من الكهوف الجبلية ويربطونها فى حظائرهم ، وتظهر الخراف والديوك الرومى ، وفى تلك الأيام تسهل رؤية أكوام الذرة والقرع العسلى وهى مطروحة للشمس فى أفنية الدور ، وبالرغم من أن الرياح التى تجتاز القمم العالية تكون أشد برودة من مرات أخرى إلا أن الكل هناك (فى

مطلع العرّابات) كان لا يتورع - دون معرفة السبب - عن التأكيد على جودة المناخ واعتداله ، ومثل أى مكان هادئ مطمئن ، كان الواحد يسمع صياح الديكة ، وكأن السلام يرفرف دائماً بجناحيه فوق « مطلع العرّابات » .

وبعد ذلك يعود آل « توريكوس » كانا يعلنان عن مقدمهما قبل أن يصلا ، ذلك لأن كلابهم كانت تخرج بسرعة ولا تتوقف عن النباح حتى تستقبلهما .

وتقدير المسافة والاتجاه الذى سيصلان منه كان يتوقف فقط على النباح ، وعندئذ يسارع الناس مشوشين لإخفاء حاجياتهم ثانية . كان فقيدا « توريكوس » مصدراً للربح كل مرة يعودون فيها إلى « مطلع العرّابات » .

وبالرغم من هذا ، لم يحدث أن تملكنى الخوف بتاتاً منهما كنت صديقاً حميماً لهما ، بل وتمنيت أحياناً لو رجعت بى الأيام إلى الوراء قليلاً حتى أكون على شاكلتهما وانخرط فيما يصنعون . على أية حال ، فإن تقدم السن بى وقتها حال بينى وبين الانسلاخ من هويتي ، تذكرت فى تلك الأمسية أننى ساعدتهما مرة فى سرقة بغال ، ووقتها أيقنت أن شيئاً ما ينقصنى ، وأن حياتى المنصرمة كانت شتاتاً ، ولم تكن تتسع لأعباء إضافية . نعم ، تيقنت من هذا .

دعانى عميدا عائلة « توريكوس » وسط موسم الأمطار لأساعدهما فى جلب أجولة من السكر ، مضيت خائفاً بعض الشيء . بداية ، لأن النوة كانت من ذلك النوع الذى يبدو فيه المطر وكأنه يكشط الواحد من تحت قدميه . ولأننى ، ثانياً ، لم أكن أعرف المكان الداهين إليه ، على أية حال ، فقد تبين لى هناك أننى لم أخلق لمثل هذا النوع من المغامرات .

أخبراني أن المكان المقصود ليس بعيداً ، « خلال ربع ساعة سنكون هناك » ، قالوا لي . لكن عندما بلغنا طريق « لاميديا لونا » كان الليل قد أرخى سدوله ، وحينما وصلنا إلى حيث يوجد البغال كان قد انصرم معظمه .

لم يأت البغال لرؤية القادم ، بالتأكيد كان ينتظر آل « توريكوس » ، ولهذا السبب لم يلفت وصولنا انتباهه . ظننت هذا . لكن البغال ظل طوال الوقت الذي أمضيته في نقل أجولة السكر من هنا إلى هناك ساكناً ، مستلقياً بين حشائش المراعى الكثيفة ، عندئذ أخبرت آل « توريكوس » بما يلي . قلت لهم :

- هذا المستلقى هناك ، يبدو وكأنه فارق الحياة أو شيئاً من هذا القبيل .

- لا ، لا بد أنه نائم - قالوا لي - . تركناه عند متاعنا هذا ، ولا بد أنه تعب من الانتظار فنام .

ذهبت إليه وركلته بقدمي في ضلوعه لكي يستيقظ ؛ لكن الرجل ظل ممدداً كما كان .

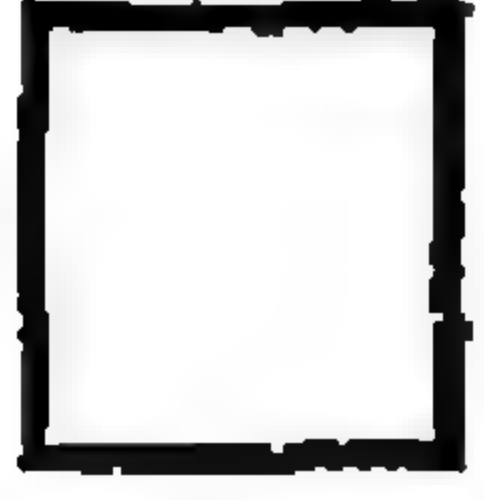
- إنه ميت بالتأكيد - أخبرتهما ثانية .

- لا توهم نفسك ، إنه مجرد فقدان للوعي من جراء ضربة النبوت التي سددها « أوديلون » إلى رأسه ، لكنه سينهض فيما بعد ، عندما تطلع الشمس وتلسهه حرارتها سينهض بسرعة ويذهب إلى داره في الحال . عليك بإحضار الجوال الذي هناك ! - هذا كل ما قالاه لي .

اتجهت ثانية نحو الميت وسددت إليه ركلة أخرى أحدثت رنيناً مثل الرنين الناجم عن ركل جذع شجرة جاف ، وبعد ذلك وضعت الحمولة على كتفي وسبقتهما ، كانا يتبعاني ، سمعتهما يغنيان خلال فترة طويلة إلى أن طلع الفجر ، لم أعد أسمعهما عندما لاحت تباشير الصباح .

حملت نسمة الهواء العليلة التى تسرى قبيل الشروق أصوات لحنهما ،
ولم أعد أعرف إذا كانا يتبعانى ، إلى أن سمعت نباح كلابهما المتسابقة
يسرى فى جميع الاتجاهات .

ومن تلك الواقعة عرفت كيف يتجسس آل « توريكوس » على الأشياء
التي تمر تحت من على الطريق وهما جالسان كل مساء إلى جوار دارى فى
« مطلع العرّابات » .



لقد قتلت « ريمخيو توريكو » .

لم يكن قد تبقى وقتذاك غير نفر قليل من مربى القطعان . غادر
الأولون المكان واحداً إثر آخر ، أما المتأخرون فقد ذهبوا تقريباً فى
جماعات ، متجهزين فرصة قدوم موسم الصقيع والثلوج ، فى السنوات
السابقة كان الثلج يأتى ويقضى على المزرعات فى ليلة واحدة ، وهذا العام
أيضاً ، لذلك غادروا المكان . بالتأكيد اعتقدوا أن المشهد نفسه سيتكرر العام
التالى ويبدو أنهم فقدوا الرغبة فى مواصلة تحمل أرزاء المناخ كل عام وبلايا
آل « توريكوس » كل آن . وهكذا ، فعندما قتلت « ريمخيو توريكو »
كانت « مطلع العرّابات » والرّبى المجاورة خالية تقريباً من السكان .

حدث هذا فى شهر أكتوبر على ما أعتقد ، أذكر أن القمر كان فى
ليلة تمامه ساطعاً بالضوء ، لأننى كنت جالسا خارج دارى أرقع
- مستعيناً بضوء القمر المكتمل - جوالا داهمته الثقوب عندما
وصل « ريمخيو » .

لابد وأنه كان ثملاً . وقف قبالتى يتأرجح ، حاجباً بتمايله ضوء القمر الذى أهدى به فى عملى وكاشفاً له تارة أخرى .

- المواربة من أقبح الخصال - قالى لى بعد صمت طويل - . تعجبني الصراحة ، وإذا كان يروك الانحراف فقد أتيت هنا لأقومه لك .

واصلت ترقيع جوالى ، كانت عيناى منهنمكتين فى حياكة ثقبه ، والمسلة الطويلة كانت تعمل بنشاط كلما غمرها ضوء القمر .

بالتأكيد تصور لهذا أننى لا أحفل بكلامه .

- أنا أوجه لك الكلام - صاح حانقاً - . تعرف جيداً ما أتيت لأجله .

انتابنى الفزع قليلاً عندما اقترب منى وألقى على وجهى هذه الكلمات ، وبالرغم من هذا ، حاوت التطلع إلى وجهه لمعرفة حجم حميته ، وبقيت محملاً فيه وكأننى أسأله عن سرّ قدومه .

أتى ما فعلت ثماره ، فقد أصبح أكثر هدوءاً ليواجهنى قائلاً إن مثلى من الناس يجب أن يؤخذ على غرة .

- يعجف حلقى وأنا أخاطبك بعد الذى فعلته - قال لى - ؛ لكن أخى كان صديقاً حميماً لى مثلك تماماً ، ولهذا فقط أتيت لأستوضح منك ملابسات موته .

كنت أسمع به بجلاء . تركت الجوال فى جانب وبقيت متفرغاً لسماعه .

عرفت أنه يلقى على تبعة قتل أخيه . لكنى لم أفعلها . كنت أعرف القتلة ، لكنه أوصد الباب فى وجهى ولم يعطنى الفرصة لأسميهم له .

كنا نصل ، أنا و « أوديلون » ، لحد التشاجر مرات عديدة - أستمروا معها الكلام لى - . كان صعب المراس نوعاً ما ويستهو به التحرش بمن أمامه ، لكنه لم يكن يتجاوز هذا الحد . بتسديد بعض الضربات أو اللكمات كان يهدأ . وهذا ما أريد معرفته : إذا كان قد قال لك شيئاً ، أو أراد أن يسلب منك شيئاً ما أو ماذا حدث . ربما كان يريد ضربك وبادرت أنت . شىء من هذا لابد وأن يكون قد جرى .

هزرت رأسى لأقول له لا ، ليست لى علاقة . . .

- اسمع - قاطعنى - ، « أوديلون » كان يحمل فى محفظته ذلك اليوم أربعة عشر « بيزو » * . عندما رفعته وفتشت جيوبه لم أجد فيها تلك النقود ، وبعدها علمت أنك اشتريت بطانية .

كان هذا صحيحاً . بالفعل اشتريت بطانية . وجدت أن البرد قادم والمعطف الذى كان لى تآكل بكامله ، ولذا ذهبت إلى « ثاپوتلان » وابتعت بطانية ، لكننى بعت لهذا الغرض جديدين كانا عندى ، كان بإمكانه رؤية الجوال الذى ملأته الشقوب نتيجة لحملى الجدى الصغير فيه لأنه لم يكن قد وصل إلى حد الاعتماد على أرجله كما كنت أبغى .

- كن متأكداً من أننى سأنتقم ممن فعل هذا بأخى ، كائنا من كان ، وأنا أعرف من هو - وصلنى ما يقوله من فوق رأسى تقريباً .
- بمعنى أنه أنا ؟ - سألته .

* « بيزو » (Peso) : عملة مكسيكية . (المترجم) .

كان قمر أكتوبر يغمر بضياهه سقف الحظيرة ويرسل بظل « ريميخيو » الطويل إلى حائط دارى ، لمحته يتحرك نحو شجرة المشمش ويمسك بالسيف القصير الذى أحفظ به مُعدًّا دائماً هناك . رأيتُه يعود بعد ذلك والسيف القصير فى يده .

لكنه عندما مشى من أمامى ، وقعت عيني على المسلة التى كنت غرزتها فى الجوال تلمع فى ضوء القمر . لا أدري لماذا ، لكنى بدأت أثق ثقة عمياء فى تلك المسلة . ومن ثمّ ، فعندما اقترب منى « ريميخيو » سحبتها بسرعة من الجوال وغرزتها بالقرب من سرّته . غرزتها حتى آخرها ، وتركتها فى موضعها .

أخذته رعدة وانحنى شيئاً فشيئاً إلى أن سقط على الأرض متكوراً يغشاه العرق ونظرة الفرع تطل من عينه .

مرّت لحظة بدا فيها وكأنه سينهض ليطعننى بالسيف ؛ لكن من المؤكد أنه ندم على محاولته أو أرتج عليه فلم يدر ماذا يصنع ، وعندئذ سقطت السنجة من يده وتلوى من جديد . لم يفعل أكثر من هذا .

غامت نظرتُه وأصبحت تشع حزناً وتقطر أسى وكأنه تحت وطأة الإحساس ببؤس مرض مؤلم ، منذ أمد طويل لم يُقدر لى رؤية نظرة حزينة كتلك وتملكتنى الشفقة ، لذلك انتهزت الفرصة لأسحب المسلة من السرة وأغرزها أعلى ، حيث ظننت أنه مكان القلب ، وبالفعل ، غرزتها فيه ، لأنه انتفض مرتين أو ثلاثة مثل دجاجة مقطوعة الرأس ثم لازم الهدوء . كان ميتاً بالتأكيد عندما توجهت إليه قائلاً :

- اسمعنى يا « ريمىخيو » اغفر لى ، فأنا لم أقتل « أوديلون » .
عائلة « الكارائس » هى التى قتلتها ، كنت هناك عندما قُتل ، لكننى على يقين بأننى لم أمتّه . كانوا هم ، جميع أفراد عائلة « الكارائس » .
استدرجوه ، ولما انتبهت ، كان « أوديلون » يحتضر . وتعرف لماذا ؟ بداية لأن « أوديلون » ما كان يناسبه الذهاب إلى « ثاپوتلان » . أنت تعرف هذا ، طال الزمن أم قصر كان ولا بد أن يحدث له شىء يعكر الصفو فى تلك القرية التى لا يحبه معظم سكانها ، وعائلة « الكارائس » هى الأخرى لم تكن تطيقه ، لا أنا ولا أنت ندرى سبب استفزازه لهم هناك .

« لقد جرى ما جرى فجأة . كنت قد فرغت من شراء بطانييتى وخارجاً عندما تفل أخوك ما فى فمه من عرقى على وجه واحد من عائلة « الكارائس » . فعل هذا مازحاً ، بقصد أن يتسلى لأنه أضحك من كانوا هناك - لكنهم كانوا جميعاً مخمورين . « أوديلون » وعائلة « الكارائس » والجميع . وفجأة انقضوا عليه ، استلّوا مديهم ومزقوه إرباً . مات من هذا .

وكما ترى ، فلم أكن أنا القاتل ، وددت أن تعرف تمام المعرفة أنه لم يكن لى فى الأمر لا ناقة ولا جمل .
هذا ما قلته للمرحوم « ريمىخيو » .

كان القمر قد انتقل إلى الجانب الآخر لأشجار البلوط عندما رجعت إلى « مطلع العرّابات » ومعى الصيّادة الماهرة . قبل أن أحفظها فى

مكانها غمستها عدة مرات فى مياه الغدير لأزيل آثار الدم العالقة بها .
كنت سأحتاجها بعد قليل ولا يروق لى رؤية دم « ريميخيو » ماثلا أمامى
على الدوام .

حدث هذا فى شهر أكتوبر على ما أظن ، أثناء احتفال « ثاپوتلان »
بأعيادها ، وأقول إن ما حدث جرى فى تلك الأيام لأنهم فى « ثاپوتلان »
كانوا يطلقون الصواريخ ، بينما كانت ترتفع من الجهة التى ألقى فيها
بالجثة أسراب الطيور من جرّاء فرقة الصواريخ فى الفضاء .

مازلت أتذكر هذا .

فقراء لحد الضياع

تنحدر الأمور هنا من سيئ إلى أسوأ . الأسبوع الماضى ماتت عمتى « خائيتنا » ويوم السبت ، بعد أن وارينها التراب وبدأت كواهلنا تتخفف مما عليها من أحزان ، أخذت تمطر مطراً لم يسبق له مثيل .

أطار هذا صواب أبى لأن محصول الشعير كان مكوّمًا للشمس فى الفناء . هبط وابل الأمطار فجأة ، فى موجات عظيمة متتالية ، ولم يدع لنا فرصة لننقذ من بين برائنه ولو حفنة واحدة ؛ كل ما استطعنا عمله ، جميع أهل الدار ، هو الاحتماء تحت سقيفة والتطلع إلى المياه الباردة المتساقطة من السماء وهي تحرق وتبيد ذلك الشعير الأصفر الذى حصدهناه مؤخراً .

وبالأمس فقط ، وهو اليوم الذى أكملت فيه أختى « تاتشا » الاثنى عشر ربيعاً ، علمنا أن البقرة التى أهداها لها والذى بهذه المناسبة قد جرفها النهر .

بدأ فيضان النهر عند الفجر من ثلاث ليالٍ خلت . كنت مستغرقاً فى النوم ، ومع ذلك فإن الصخب المصاحب للنهر عند زحفه أيقظنى فى الحال وجعلنى أثب من الفراش والغطاء فى يدي ، كما لو كنت قد أعتقدت أن سقف البيت يخرّ فوق رأسى ، لكننى عدت إلى الفراش بعد ذلك ، لأننى تعرفت على صوت النهر ، ولأن هذا الصوت ظل يهددنى بإلحاحه حتى جلب لى النعاس ثانية .

عندما نهضت ، كان الضباب يلف الصباح ويبدو أنها استمرت تمطر دون انقطاع . اشتد صخب النهر وأصبح يُسمع على مقربة . كان الجو معبقًا بالرائحة التتة للمياه الهادرة وكأنها دخان حريق ضخم .

كان النهر قد فقد شاطئيه عند ما أطلت عليه . أخذ يرتفع رويدًا رويدًا في الشارع الرئيسي إلى أن اقتحم بسرعة فائقة بيت السيدة التي يطلقون عليها اسم « لاثمبورا » . كانت تُسمع بربطة الماء عند دخوله الحظيرة وعند خروجه متدفقًا من الباب بينما تغدو « لاثمبورا » وتروح منهمكة في إلقاء دجاجها بالشارع لكي يبحث لنفسه عن مأوى يعصمه من الماء .

وعلى الجانب الآخر ، عند المنعطف ، لابد أن يكون النهر قد حمل - دون أن يدري أحد متى كان ذلك - شجرة التمر هندی التي كانت في فناء دار عمتي « خاثيتا » لأنني لا أرى الآن أثرًا لها ، كانت الشجرة الوحيدة بالقرية من هذا النوع . ولهذا السبب وحده أدرك الناس أن الفيضان الذي نشاهده يفوق جميع الفيضانات التي داهمت القرية من سنوات عديدة .

في المساء عدنا ثانية ، أنا وأختي ، لرؤية طوفان المياه التي يزداد غمقانها وثخانتها تدريجيًا وتغطي حاليًا المكان الذي يجب أن تكون فيه القنطرة . ظللنا هناك ساعات وساعات نتطلع إلى ذلك المنظر دون أن ينال منا التعب .

صعدنا بعد ذلك إلى التلّ لنسمع بوضوح ما يقوله الناس ، لوجود جلبية شديدة هناك تحت ، إلى جوار النهر ، حيث تُرى أفواه كثيرة تُفتح ثم تُغلق كما لو كانت تريد التعبير عن نفسها ؛ لكن لا يُسمع شيء . لهذا السبب صعدنا إلى التلّ حيث يوجد أناس آخرون ينظرون إلى النهر

ويعددون الأضرار التى أحدثها ، وهناك عرفنا أن النهر حمل « لاسيريتينا » ، تلك البقرة التى أهدها والدى لأختى « تاتشا » فى عيد ميلادها وكانت لها عينان جميلتان وأذن بيضاء والأخرى ملونة .

لا أدري كيف سوّلت لها نفسها عبور النهر هذا عندما وجدته مغائراً للنهر الذى تعهده كل يوم . « لاسيريتينا » لم تكن أبداً بليدة الحس أو عديمة الإدراك ، بالتأكد كانت نائمة عندما داهمتها مياه الفيضان . فى مرات كثيرة كنت أضطر لإيقاظها من سباتها بعد فتح باب الحظيرة ، لأننى لو تركتها على هواها ولم أفعل هذا لبقيت اليوم بطوله هناك بالداخل مغمضة العينين ، ساكنة بلا حراك وهى تنهد ، وكأنها تسمع تنهيدات الأبقار النائمة وتتجاوب معها .

لابد وأنها كانت نائمة أيضاً ساعة أن جرفها التيار ، ربما حاولت الاستيقاظ عندما أحست بالمياه الشخينة تدق ضلوعها ، ربما تملكها الفزع حينذاك وحاولت الرجوع ؛ لكنها وجدت نفسها محاطة بسياج تلك المياه السوداء القاسية التى تشبه الأرض المتحركة . ربما جأرت طالبة النجدة .

الله وحده يعلم كيف جأرت !

سألت الرجل الذى شاهدها والنهر يجرفها إذا كان قد رأى أيضاً ابنها الرضيع الذى كان معها ، لكن الرجل أنكر رؤيته ، قال فقط إن البقرة المنقطة مرت على ظهرها بالقرب من المكان الذى كان فيه ، وهناك ابتلعها الدوامة فلم يعد يرى لها قروناً ولا أرجلا ولا أية علامة تدل عليها ، فقد كانت تتدحرج على صفحة النهر جذوع أشجار وفروع وسيقان نباتات وكان هو مشغولاً باصطياد الخطب مما جعله لا يستطيع التحقق مما إذا كان التيار يجرف حيواناً أو جذوع أشجار .

ولذا لانعرف إذا كان الرضيع حيًا أو سحبه التيار خلف أمه ، لو كان الأمر الأخير ، فليتغمد الله الاثنين برحمته .

الورطة التي تحمق بدارنا ، بسبب بقاء أختى « تاتشا » خاوية الوفاض ، ستكتشف أبعادها فى القريب العاجل ، ذلك لأن والدى استطاع ، بعد صنوف من الأعمال المضنية ، أن يشتري « لاسيرييتينا » وهى عجلة صغيرة ويتعهد بها بالرعاية والتربية حتى كبرت ووضعت مولودها الأول ثم قدمها هدية لأختى لكى يكون لها رأس مال ولو صغير تتزوج به وتفتدى من الانحراف الذى انحدرت إليه أختاى الكبيرتان من قبل .

وطبقًا لما يرويه أبى ، فقد انحرفت أختاى بسبب فقرنا المدقع ولأنهما ، علاوة على هذا ، كانتا عنيدتين ومشاكستين منذ نعومة أظفارهما . ولما شبتا عن الطوق ساءت أحوالهما لمصداقتيهما رجال علموهما أشياء معيبة . انغمست الاثنتان فى التيار بسرعة وتعلمتا الانصياع لنداءات الطالبين لهما فى الساعات المتأخرة من الليل .

وبعد ذلك لم تتورعا عن فعل هذا فى وضوح النهار ، فقد كثر خروجهما إلى النهر بحجة جلب الماء وأحيانًا ، على غير المتوقع ، كانتا تنتظران عشاقهما فى الحظيرة .

عندئذ طردهما أبى . احتملهما فى البداية قدر ما استطاع ؛ ولما ناء به الحمل بعد ذلك ألقى بهما فى عرض الطريق . طاب لهما المقام فى « أيوتلا » أو لأدرى أين ، حيث احترقتا البغاء .

لهذا يعتصر الألم أبى من أجل « لاتاتشا » ، فهو لا يود أن تلقى مصير أختيها بعد أن أصبحت فقيرة دون بقرة تُسرى عنها أثناء ترعرعها وفورانها وتؤهلها للزواج من رجل مناسب يحافظ عليها ويبادلها الحب طيلة حياته .

وهكذا ازداد الأمر صعوبة الآن . فى وجود البقرة كان الوضع سيختلف ، لأنها لم تكن ستعدم من يتشجع للزواج بها حتى ولو من أجل امتلاك تلك البقرة الرائعة الجمال .

الأمل الوحيد الذى يداعبنا الآن يتمثل فى بقاء ابن البقرة الرضيع على قيد الحياة ، نتمنى ألا يكون قد فكر فى عبور النهر خلف أمه ، لو ثبت هذا لَقُدِّرَ لأختى « تاتشا » تفادى المصير المظلم .

وأمى ترتعد فرائصها فرقا من مجرد التفكير فيه .

لاتدرى أمى سببا للعقاب الجحيم الذى أنزله الله بها عندما وهبها بنات على هذا النحو ، وفى عائلتها لاتوجد جدة واحدة من هذا الصنف ، فقد تربين جميعهن على الخوف من الله ومراقبته وكن مؤدبات ولم يقترفن غلطة واحدة فى حق كائن من كان - ولهذا لاتدرى من أين وصل لبنتيها هذا النموذج السيئ . الأمر يحيرها ، تطوف بذاكرتها فى كل اتجاه ولاتتهدى لمكن الخل فى ولادة ابنة بعد أخرى بالمواصفات السيئة نفسها . لاتتذكر شيئا ، وفى كل كرة ترد ابتساها على خاطرها ، تبكى وتقول : « ليهد الله الاثنتين ويتغمدهما برحمته » .

لكن أبى يعلل ذلك بحتمية القدر الذى لاتغنى منه حيلة . الخطر الداهم يكمن فىمن بقيت هنا ، فى « لاتاتشا » التى لا تتوقف عن النمو مثل عود صنوبر وتوحى مقدمات نمو نهديها بأنها ستكون على شاكلة أختيها : فهما مديبان وعاليان ورجرجتهما تثير الانتباه .

- نعم - يقول أبى - إن صدرها يحرض العيون على التملّى فيه ليفضى بها الحال إلى خاتمة مفاجئة ؛ إننى أتضوع ريح هذا المصير .

هذا ما يؤرق أبى ويزلزل كيانه .

تبكى « تاتشا » عندما علمت أن بقرتها لن تعود بعد أن أخمد النهر أنفاسها . إنها هنا ، إلى جوارى ، بفستانها الوردى ، تطل على النهر من فوق التلّ دون الكف عن البكاء . تشفق على وجنتيها دموع عكرة وكأن النهر قد حلّ واستقر بداخلها .

أعانقها محاولاً التسرية عنها ، دون جدوى . يزداد عويلها . يخرج من فمها صخب مشابه لما تجرّجره ضفتا النهر ، يجعلها ترتجف وتهتز ، بينما يستمر علو الفيضان . يلمح طعم التتانة المتصاعد من هناك وجه « لاتاتشا » المبتل ويتحرك نهذاها صعوداً وهبوطاً ، دون توقف ، وكأنهما شرعا فى الانتفاخ فجأة وأخذا يخططان لإضاعتهما .

الرجل

غاصت قدما الرجل في الرمال ، تاركة آثاراً غير مطبوعة مثل حافر حيوان . تسلّقت الأحجار ، متشبّثة بمقدماتهما بها لانحدار المطلاع ، ثم خطت نحو الأعالي باحثة عن الأفق .

« قدمان مفلطحان - قال الذى يقتفى أثره - . القدم اليسرى ينقصها الإصبع الغليظ - قليلون من بأقدامهم هذه العلامات . من السهل الاهتداء إلى صاحبهما » .

يتجه الطريق إلى أعلى ، تحيط به الحشائش التى تكثر بها الأشجار الشوكية ونباتات « لاس مالاس موخيرس » . يبدو من شدة ضيقه وكأنه صراط للنمل . يصعد دون تعرجات نحو السماء . يختفى هناك بعيداً ليعود للظهور ثانية تحت سماء أشد ارتفاعاً .

تتبع القدمان الطريق دون الانحراف عنه . مشى الرجل معتمداً على عقبيه ، كاشطاً الحجارة بأظافر قدميه ، خدشاً ذراعيه ، متوقفاً عند كل أفق ليقبس نهايته : « ليست نهايتى بالطبع ، بل نهايته » ، قال . التفت ليرى صاحب الصوت .

لاتسرى نقطة هواء واحدة ، بل صدى صخبه فحسب بين الأفرع المقطوعة ، خائر القوى من السير متلمساً ، يعد خطواته ، حابساً أنفاسه : « ماضٍ إلى قدرى » ، عاد ليقول . وأدرك أنه هو الذى يتكلم .

« صعد من هنا ، ممسكًا الجبل - قال الذي يتبعه - . قطع الأغصان بسيف قصير . معلوم أن اللهفة تجرجره ، واللهفة تترك دائمًا أثرًا . هذا سيضيّعه » .

بدأ حماسه يفتر عندما طالت الساعات وخلف كل أفق يظهر آخر والتلّ لا ينتهى . أخرج السيف القصير وقطّع الأفرع الصلبة وكأنها جذوع ثم اجتث الحشائش من جذورها ، مضغ بصقة قدره ثم تفلها على الأرض فى رباطة جأش ، لثم أصابعه وبصق من جديد . كانت السماء هادئة هناك فى الأعالي ، ساكنة ، تعكس صورة سحبها بين ظلال أشجار الطلح غير المورقة . لم يكن الوقت وقت ترعرع الأوراق ، بل ذلك الزمن الجاف والصدئ للأشواك والسنابل البرية الجافة . كان يضرب بسيفه القصير الأعشاب والأشجار القصيرة : « **بمثل هذا العمل تخورقوى الواحد ، الأفضل لك ترك الأشياء قابعة فى سلام** » .

سمع صوته يتردد هناك خلفه .

« رباطة جأشه أفصحت عن هويته - قال مقتفى أثره - ، أعلن عن نفسه ولم يبق الآن سوى تحديد مكانه ، سأصعد حيث صعد ، وأهبط من حيث هبط ، ملاحقًا له حتى أتعبه . وعندما أتوقف سيكون هناك . سبجثو على ركبتيه طالبًا منى العفو ، وسأدع رصاصة تستقر فى قفاه . . . هذا ما سيحدث عندما أجذك » .

وصل إلى النهاية . لاشئ سوى السماء الرمادية نصف المحترقة بغمامات المساء الكبيرة . كانت الأرض قد هوت إلى الجانب الآخر .

نظر إلى البيت الموجود قبالة ويتصاعد منه الرمق الأخير لدخان الجذوة .
شق لنفسه طريقًا في الأرض الطرية المحروثة حديثًا ، وبمقبض السيف
القصير طرق الباب دون رغبة . جاء كلب ولحق بركبتيه ، وجرى آخر
حوله محركًا ذيله ، عندئذ دفع الباب الذي يُغلق فقط في وجه الليل .

قال الذي يقتضى أثره : « أنجز عملا محكمًا ، لم يعطهم فرصة حتى
للاستيقاظ ، لا بد أنه وصل الساعة الواحدة تقريبًا ، عندما يكون النوم أشد
وطأة ؛ عندما يهجم النعاس ؛ بعد « تصبحون على خير » ، عندما تسرح
الحياة بين يدي الليل وعندما يחדش تعب الجسم أوتار الشكّ ويمزقها » .

**« ما كان ينبغي قتلهم جميعًا - قال الرجل - على الأقل ليس عن
بكرة أبيهم » .**

كان هذا ما قاله .

كان السحر رماديًا ، مترعًا بهواء بارد . هبط إلى الجانب الآخر ،
متزحلقا على المرج . ألقى بالسيف القصير الذي كان قابضًا عليه عندما
خدر البرد كفيه . تركه هناك . رآه يلمع بين السنابل الجافة مثل جزء من
أفعى بلا حياة .

هبط الرجل باحثًا عن النهر ، شاقًا لنفسه ثلثة جديدة بين أحراش
الجبل .

يجرى النهر هناك أسفل ، نائراً مياهه بين أشجار قصيرة فوّاحة مزدهرة ؛ محركاً في صمت تياره الثخين ، يمشى ويدور حول نفسه . يأتي ويروح مثل ثعبان متكور فوق الأرض الخضراء ، لا يحدث صوتاً . يمكن للواحد النوم هناك . إلى جواره ، ويستطيع سماع أنفاسه هو ، لا أنفاس النهر ، ينحدر العلّيق من الأشجار الفوّاحة العالية ويغطس في الماء ، تتشابك أياديه لتشكيل بيوت عنكبوت لا يستطيع النهر تفكيك خيوطها أبداً .

اهتدى الرجل إلى مجرى النهر بمساعدة اللون الأصفر للأشجار القصيرة الفوّاحة ، لا يسمعه ، يراه فقط متلوياً تحت الظلال . رأى طيور « تشاتشالاكس » قادمة . في المساء السابق كانت قد ذهبت باتجاه الشمس طائرة في زراقات خلف الضوء ، والشمس الآن على وشك الطلوع ولذا فهي تعود من جديد .

أشار على نفسه بعلامة الصليب ثلاث مرات . « معذرة » ، قال لهم ، وشرع في مهمته ، عندما وصل إلى الثالث كانت الدموع تتدفق من عينيه بغزارة ، أو ربما كان عرقاً . القتل مهمة عسيرة ، الجلد قابل للطى ، يستعصى على القطع ، يدرأ عن نفسه الخطر بالرغم من إثارة الاستسلام . والسيف القصير كان مثلوماً : « معذرة » قال لهم ثانية .

« جلس على رمال الشاطئ - قال الذى يقتفى أثره - ، جلس هنا ولم يبرح مكانه لوقت طويل . آمل أن تنقشع السحب . لكن الشمس لم تطلع هذا اليوم ولا اليوم الذى يليه . مازلت أذكر ، كان يوم الأحد الذى فقدت فيه المولود حديثاً وذهبنا لدفنه . لم نكن حزانى ، أذكر فقط أن

السماء كانت رمادية والزهور التى كنا نحملها كانت حائلة اللون وذابلة وكأنها متأثرة بغياب الشمس .

الرجل هذا ظل هنا ، منتظراً . هاهى آثاره : العش الذى صنعه بالقرب من الشجيرات ؛ حرارة جسمه التى تغوص مثل بئر فى الأرض الرطبة .

« ما كان ينبغي ترك الطريق - حدث الرجل نفسه - . لو لم أتركه لكنت وصلت الآن ، لكن من الخطر السير حيث يسير الجميع ، خاصة وأننى تحت وطأة هذا الحمل الباهظ ، هذا الحمل الذى لا يمكن أن تخطئه أى عين ترانى ؛ لا بد وأنه يرى مثل ورم غريب ، أحسه هكذا ، عندما أحسست بإصبعى المقطوع ، كان الناس قد رأوه قبلى ولم أنتبه إليه إلا فيما بعد . وهكذا لدى الآن ، رغماً عنى ، علامة توشى بى . الحمل الذى أنوء به يجعلنى أحس به ، أوروبما نال منى التعب » . ثم أضاف قائلاً : « ما كان ينبغي قتلهم جميعاً ؛ كان على الاكتفاء بالمقصود ؛ لكن الظلام كان مطبقاً والأحجام متشابهة ... على أى حال ، فالموت الجماعى يقلص تكاليف الدفن » .

« سينال منك التعب قبلى ، سأصل إلى حيث تريد الوصول قبل وجودك هناك - قال الذى يتبعه - ، أحفظ عن ظهر قلب ما يدور بخلدك ، من أنت ومن أين تكون وإلى أين أنت ذاهب ، سأصل قبل أن تصل » .

« ليس هذا هو المكان - قال الرجل عند رؤية النهر . - سأعبره من هنا وربما أخرج على الشاطئ نفسه ، يجب تجاوزه إلى الجانب الآخر ،

حيث لا يعرفنى أحد ولا يدري عنى شيئاً ، وبعد ذلك سأسير دون الانحراف يُمْنَةً أو يساراً حتى أصل ، لن ينتزعنى مخلوق من هناك » .

مرت جماعات أخرى من طيور « تشاتشا لاكس » وهى تنعق نعيقاً يصم الأذان .

« سأتقدم إلى الأمام أكثر ، النهر هنا مشتجرو يمكن أن يعيدنى إلى حيث لا أُرغب فى العودة » .

« لن يَمَسُّكَ ، يابنى ، أحد بسوء . أنا هنا لأحميك ، لهذا ولدت قبلك واشتد ساعدى قبل ساعدك » .

كان يسمع صوته ، خارجاً من فمه على مهل . يحس به يرنّ مثل شىء زائف بلا معنى .

لماذا تفوه بهذا الكلام ؟ من المحتمل أن يكون ابنه يسخر منه الآن ، وربما لا .

« ربما يملكه الغضب منى لأننى تركته وحيداً فى ساعتنا الأخيرة . فقد كانت ساعتى أيضاً ؛ بل ساعتى فحسب ، قَدِم من أجلى ، لم يكن يبحث عنكم ، لأننى ببساطة كنت نهاية رحلته ، الوجه الذى حلم برؤيته ميتاً ، متمسكاً فى الطين ، مدعوساً بالقدم لحد التشوّه ، مثلما فعلت بأخيه ؛ لكننى فعلته وجهاً لوجه ، أمام « خوسيه ألكانثيا » وأمامك ولدت ساعتها بالبكاء والانتفاض رعباً ، ومن يومها عرفت من أنت وكيف ستأتى للثأر منى . انتظرتك شهوراً ، يقظاً بالليل والنهار ، متأكداً من مجيئك متخفياً مثل أفعى أثيمة ، وجئت متأخراً ، وأنا أيضاً وصلت

متأخرًا . أخرنى دفن المولود حديثًا . بدأت أدرك الآن . الآن أدرك سرّ
ذبول الأزهار فى يدى » .

« ما كان ينبغى قتلهم جميعًا - يحدث الرجل نفسه - . لم يكن
الأمريستحق وضع هذا الحمل الباهظ على كاهلى . الأموات يفوقون
الأحياء ثقلًا : يسحقون الواحد تحتهم . كان على أن أتخسسهم واحدًا
بعد آخر حتى أعثر عليه ؛ كان بإمكانى التعرف عليه من الشارب ؛
وبالرغم من الظلام كان بإمكانى الاهتداء إلى الموضع الذى أضربه فيه
قبل تمكنه من النهوض ... على أى حال ، ما حدث هو الأفضل - فلن
يبكيهم أحد وسأعيش فى سلام ، المهم أن أجد مكانًا مناسبًا لعبور
النهر قبل أن يدهمنى الليل » .

اتجه الرجل إلى مكان يضيق عنده النهر ، لم تظهر الشمس طيلة
ما انصرم من نهار ، لكن الضوء كان قد انثنى وأمال الظلال ، ومنه أدرك
الرجل أن الوقت يوافق ما بعد الظهر .

« لقد وقعت فى الفخ - قال الذى يقتفى أثره ويجلس الآن على
ضفة النهر - . أوقعت نفسك فى ورطة ، فعلت أولاً فعلتك الشنيعة وتتجه
الآن نحو التوابيت ، نحو تابوتك الخاص ، لا يهم أن أتبعك حتى هناك .
يجب أن تعود عندما تتعثر فى القيود التى تلفلفها حولك ، سأنتظرك
هنا .

سأستغل الوقت فى تقدير البعد المناسب للتصويب وتحديد المكان
الذى سيتلقى الرصاصة ، لا ينقصنى الصبر وأنت تفتقده ، وهذه

ميزة لى . قلبى ينزلق ويتمرغ فى دمه ، وقلبك خرب وغاص بالعفن .
وهذه أيضا ميزة أخرى . ستموت غداً أو ربما بعد غد أو فى غضون أيام
ثمانية ، لايهم الوقت ، لدى ذخيرة من الصبر لاتنفد » .

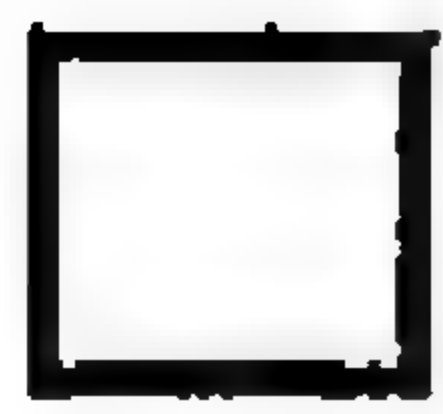
وجد الرجل النهر متصنفاً بين حوائط عالية فتوقف « يجب أن
أعود » ، قال .

النهر فى تلك الأماكن واسع وعميق ولايتعثر فى أى حجر ، ينزلق
فى مجراه مثل زيت ثخين ومتسخ ، ومن حين لآخر يبتلع فى دواماته
ضفدعة ، ويرتشفها رشفاً دون أن تصدر عنها شكوى واحدة .

« يابنى - قال الذى كان جالسا منتظراً - : آن الأوان لأخبرك أن من
قتلك فى عداد الأموات من هذه الساعة . أيعود على من وراء هذا نفع ؟
القضية أننى لم أكن معك . فى ماذا يفيد الشرح ؟ لم أكن معك وكفى ،
ولامعها ، ولا معه . لم أكن مع أحد منكم ؛ لأن المولود حديثاً لم يترك
لى أى علامة للذكرى »

نكص الرجل على عقبيه وقطع شوطاً طويلاً بحذاء النهر .

تثب على رأسه فقاعات من الدم . « ظننت أن الأول سيقظ الباقين
بحشرجه، ولهذا أسرعت » . « أستمحكم العذر فى العجلة » ، قال
لهم ، وأحس بعد ذلك بأن تلك الحشرة كانت مثل شخير النائم ؛ ولذا
تملكه الهدوء عندما خرج إلى الليل ، إلى برد تلك الليلة الملبدة بالغيوم .



كان يبدو أنه جاء هاربًا . كانت ساقاه ملطختين بالطين لدرجة لا يظهر معها لون بنطاله .

رأيته منذ أن غطس في النهر ، ترك نفسه للتيار دون أن يضرب يديه الماء كما لو كان يمشى على قاع النهر . اخترق الشاطئ بعد ذلك وترك أسماه لتجف . رأيته يرتعد من البرد . كان الهواء نشطًا والسماء ملبدة بالغيوم .

كنت أطلّ من فتحة الحظيرة التي عهد لي بها صاحب العمل لأرعى حملانه ، عدت ودققت النظر في ذلك الرجل دون أن أجعله يشعر أن أحداً يتجسس عليه حتى لا يرتبك .

اعتمد على ذراعيه وبقي ممدداً تاركاً جسده ليحف ، أدخل نفسه بعد ذلك في القميص والبنطال المترعين بالثقوب . لاحظت أنه لم يكن يحمل سيفاً أو أى سلاح آخر ، لاشيء سوى غمد يتيم متدل من وسطه

نظر وعاد النظر في جميع الاتجاهات ثم ذهب . كنت على وشك النهوض لأحبس الحملان عندما رأيته يعود بهيئته المشوشة نفسها .

ألقي بنفسه مرة أخرى في النهر ، في فرعه الأوسط ، ميمماً طريق العودة .

« ما وراء هذا الرجل » سألت نفسي .

لا شيء . في طريقه للعودة سحبه التيار المندفع كالسهم وكان على وشك الغرق ، ضرب الماء بذراعيه دون هوادة لكنه لم يستطع العبور في النهاية وخرج هناك وهو يفرغ ما في أحشائه من ماء .

كرر عملية تجفيف نفسه وهو عارٍ تمامًا ثم سار بحذاء النهر في الاتجاه الذى قدم منه سلفًا .

من يُسلمه لى الآن ! لو كنت أعرف ما فعله لكنت أجهزت عليه رمياً بالحجارة دون أدنى تأنيب للضمير .

والآن أدرك أنه كان مجرمًا ، تكفى رؤية وجهة فقط للحكم عليه . لكنى لا أطلع على الغيب ، ياسيادة المحقق ، أنا مجرد راعى حملان ، وخوآف بعض الشئ عندما يجد الجد . صحيح ما تقوله حضرتك من أنه كان من السهولة بمكان إلقاء القبض عليه غيلة وأن حجرًا واحدًا موجهًا بعناية إلى الرأس كان كافيًا لتركه متيسبًا ، معك كل الحق ولا يمكن أن ينازعك فيه أحد .

وماتقصه علىّ بالنسبة لمن قتلهم مؤخرًا يجعلنى أؤنب نفسى . الفتك بالقتلة يسرّ الخاطر ، صدقنى ياسيادة المحقق ، ليست لى بعادة ؛ لكن لا بد -أن يحس الواحد باللذة وهو يعاون الرب فى القضاء على الضالين من عباده . لم ينته الأمر هنا ، رأيته يعود اليوم التالى بحكاية مغامرة ، لكننى لم أكن أعرف شيئًا عن الحقيقة وقتها ، لو كنت أعرف !

رأيته يعود ، بالقميص الممزق ، أشد نحافة من اليوم السابق ، وعظامه تطلّ من تحت جلده ، لم أصدق أنه هو ، وكأننى أراه للمرة الأولى .

عرفته من الهالة التى تحيط بعينه : عيان شبه جامدتين كأن بهما قذى ، رأيته يعبّ الماء ثم يملأ به فمه وكأنه يتمضمض ؛ لكن ما حدث أنه ابتلع حفنة كبيرة من اليرقات ، لأن النُقْرة التى هبط إليها ليشرب كانت وطيفة وتعج باليرقات ، لا بد أنه كان جائعًا .

تأملت عينيه ، كانتا مثل ثقيين مظلمين وكأنهما عينا كهف ، اقترب
منى وسألنى :

« ألك هذه الحملان ؟ » . قلت لا . « إنها لمن ولدها » ، هذا ما
قلته له ، لم يعجبه قولى ، لم ينبس ببنت شفة ، اقترب من أسمن نعجة
ويديه قبض على إحدى أرجلها كالكماشة والتقم الضرع ، ارتفع ثغاء
الحيوان ، لكنه لم يفلته وظل يسحب ويسحب إلى أن سئم من الرضاعة
يكفى أن أقول لك إنه تعين على تطهير ضرع الشاة « بالكيرولين » لكى
يخف احتقانه ولا تحدث له التهابات من جراء عضات الرجل .

تقول إنه قتل جميع أفراد عائلة « أوركيدي » ؟ لو كنت أعرف لمزقه
إرباً ضرباً بالهراوة .

لكن الواحد جاهل ، يعيش الواحد فى التل منعزلاً ، لاصلة له بأحد
سوى الحملان ، والحملان لاتعرف القيل والقال .

عاود الظهور فى اليوم التالى ، عندما وصلت ، حضر . تولد بيننا
نوع من الألفة ، أخبرنى أنه ليس من هنا ، بل من مكان قصي ؛ لكنه لم
يعد يقوى على المشى لأن ساقيه لا تتحملانه : « أمشى وأمشى ولا أقطع
شيئاً ، ركبتيّ تشنّيان وهنّاً وضعفاً ، والأرض التى أنتسب إليها بعيدة ،
بعد تلك الربى بكثير » . أخبرنى أنه أمضى يومين كاملين دون تذوق طعام
سوى بعض الأعشاب ، هذا ما قصّه على .

تقول حضرتك إن الشفقة لم تأخذه بأفراد عائلة « أوركيدي » وقتلهم
عن بكرة أبيهم ؟ لو كنت أعرف لثُبت إلى رشدى وتملكنى العجب وأنا
أراه يرضع لبن نعاجى .

لكنه لم يكن يبدو سيئاً ، حكى لى عن زوجته وأولاده الصغار ، وعن غربته عنهم . كان يرتشف المخاط عندما تلمّ به ذكراهم .

من دقة خاصرته يُستدل على شدة نحافته . بالأمس فقط أكل جزءاً من خروف قتله البرق ، بالتأكيد كان النمل قد أتى من قبل على بعض الخروف والبعض الباقي شواه على النار التى كنت قد أشعلتها لأسخن عليها أقراص الذرة وأجهز عليه بالكامل . مصمص العظام وتركها بلقعا . « الحيوان مات مريضاً » ، أخبرته .

لكنه ازدرده بالكامل ، وكأنه لم يسمعنى . كان جائعاً .

لكن حضرتك تقول إنه أودى بحياة هؤلاء الناس ، لو كنت أعرف ! وما السبيل إلى المعرفة فى ظل العزلة والثقة بالآخرين ، لست إلا راعى غنم وخلاف هذا لا أعرف شيئاً ، وماذا يفيد لو أخبرتك أنه كان يأكل خبزي نفسه ويغمسه فى قصعتى ذاتها !

ولأننى أتيت لأخبرك بما لدى من معلومات ، تعتبرنى مستتراً على مجرم ؟ وتقول إنك ستودعنى السجن لإيوائى هذا الشخص ؟ وكأنى أنا الذى أجهزت على تلك العائلة ، جئت فقط لأبلغ عن قتيل وجدته طريحاً هناك فى نُقْرة بالنهر ، وتستجوبنى عن متى وكيف وأوصاف القاتل ، وعندما أجيب على هذه الأسئلة أصبح مستتراً على مجرم .

صدقنى ، ياسيادة المحقق ، لو كنت أعرف هوية ذلك الرجل ما عدمت وسيلة للفتك به ، لكن ما ذنبى فى الجهل به ؟ أنا لست علام الغيوب .

ما قدمت له سوى الطعام وكان يحدثنى عن أولاده وعيناه تنهمران بالدموع .

وهو الآن ميت ، ظننت أنه نشر أسماله بين أحجار النهر لتجف ؛ لكنه كان هو ، بكامله ، منكفئاً هناك ، ووجهه فى الماء . اعتقدت فى البداية أنه انحنى ليشرب من النهر ولم يتمكن من رفع رأسه فاستنشق الماء بدلاً من الهواء ، إلى أن رأيت الدم المتخثر يتدفق من فمه وعنقه مملوء بالثقوب .

لايخصنى استقصاء هذا الأمر ، أتيت فقط لأخبر سيادتكم بما جرى ، دون حذف أو إضافة . أنا راعى أغنام ولا أفهم فيما يتعدى حدود مهنتى .

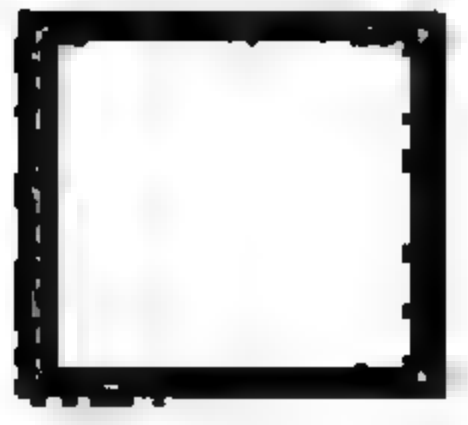
عند السّحر

من وسط الضباب تطلع « سان جبريل » معروقة بقطرات الندى .
نامت غمامات الليل فوق القرية باحثة عن الدفء المنبعث من سكانها .
الشمس الآن على وشك الطلوع والضباب ينقشع ، ملفلاً ملاءته ، تاركاً
خيوطاً بيضاء على أسطح المنازل . من الأشجار والأرض المبتلّتين
يتصاعد ، مفتوناً بالسحب ، بخار رمادي لا يكاد يرى ؛ لكنه سرعان ما
يتلاشى . وخلفة يظهر دخان المطابخ الأسود ، برائحة خشب البلوط
المحترق ، ليحجب السماء بذرات رماده .

التلال البعيدة هناك مازالت تلفها العتمة .

حلق طائر خطّاف فوق الشوارع وبعده أعلنت الأجراس النّوبة الأولى
لقدوم الفجر .

أطفاّت الأنوار . حيثذ طوّقت بقعة ، كأنها من تراب ، القرية التي
استمرت لبعض الوقت تغط في سباتها ، متناومة في دفء بواكير
الصباح .



في طريق « خيكيبيان » ، المحفوف بالأشجار العالية ، يأتي العجوز
« إستيان » على متن بقرة ، قائداً للقطيع الحلوب ، لقد صعد هنالك

ليتفادى مضايقة الجراد ووثوبه على وجهه ، يهش الذباب بقبعته العريضة
ومن حين لآخر يحاول ، بفمه الخالى من الأسنان ، الصّفير للأبقار حتى
لا تتخلف وتظل فى الورا . كانت تسير وهى تجتر ، نائرة ندى الحشائش
على أجسادها .

يتكشف الصباح . يسمع دقات أجراس « سان جبريل » معلنة طلوع
الفجر فينزل من على ظهر البقرة ويجثو على الأرض ، وبذراعيه المبسوطتين
يشير بعلامة الصليب .

تنعق بومة بين الأشجار وعندئذ يثب على ظهر البقرة من جديد ،
يخلع قميصه لكى يجعل الهواء البارد يذهب فزعه ، ويستمر فى طريقه .
« واحدة ، اثنتان ، عشرة » ، يعد الأبقار عند مروره بالحظيرة العمومية
الموجودة عند مدخل القرية . يستوقف إحدى البقرات من أذنيها ويقول لها
وهو يغط شفتيه : « سيفرقون اليوم بينك وبين ابنك ، يا حليقة الرأس ،
اذرفى الدمع مدراراً كما تشائين ؛ لكنه اليوم الأخير الذى سترين فيه ابنك
الصغير » . تنظر إليه البقرة بعينيها الوادعتين ، تضربه بذيلها وتمضى إلى
الأمام .

تدق الأجراس النّوبة الأخيرة للفجر .

لا يدري أحد ما إذا كانت طيور الخطاف تأتى من « خيكيلبان »
أو تخرج من « سان جبريل » ؛ ما يعرف فقط هو أنها تأتى وتروح وهى
تزقزق ، ملوثة صدورها بطين المستنقعات دون أن تمسك عن الطيران ،
تحمل جماعات منها شيئاً ما فى مناقيرها ، تلمس الطين بدقاتها الريشية
وتبتعد ، تنسحب من فوق الطريق لتتوارى فى الأفق المعتم .

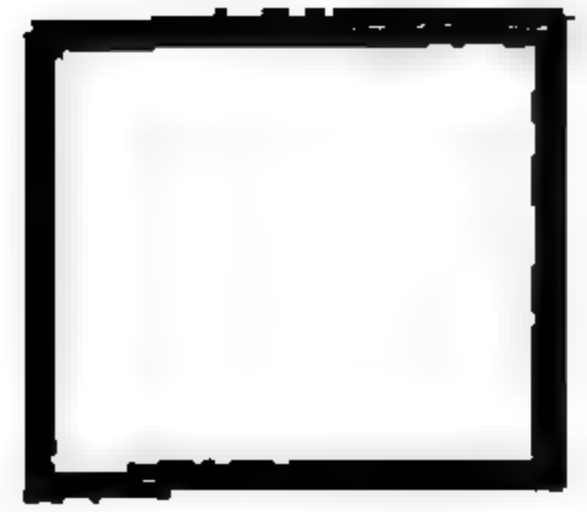
السحب الآن فوق الجبال ، بعيدة جداً ، تبدو مثل مظلات رمادية
مشدودة إلى سفوح القمم الزرقاء . ينظر العجوز « إستيبان » إلى الشرائط

الورقية الملونة التي تطوف بالسماء : حمراء ، برتقالية ، صفراء ، تتحول
النجوم إلى اللون الأبيض . تنطفئ الومضات الأخيرة وتبرز الشمس ،
كاملة ، متوجة أطراف الحشائش بقطرات زجاجية .



« كانت سُرَّتِي باردة بسبب تعرضها للهواء ، لا أتذكر الآن لماذا .
وصلت إلى الدهليز المفضي إلى الحظيرة ولم يفتحوا لي . تهشم الحجر
الذي كنت أطرق به الباب ولم يخرج أحد . ظننت حينئذ أن صاحب
العمل ، سيدى « دون خوستو » ، لم يستيقظ بعد ، لم أخبر الأبقار
بشيء ولم أشرح لهن شيئاً ؛ انسحبت بخفية حتى لا تريننى وتتبعن
خطواتى . بحثت عن المكان المنخفض من السور وتسلقته ثم هبطت في
الناحية الأخرى بين العجول الصغيرة ، وبينما كنت أرفع مزلاج الدهليز
رأيت سيدى « دون خوستو » خارجاً من تحت مظلة الخيزران وهو يحمل
بين ذراعيه الصغيرة « مارجريتا » التي كانت نائمة وعبر الحظيرة دون أن
يرانى ، التصقت بالحائط مخبئاً منه ، ومن المؤكد أنه لم يرني ، على
الأقل هذا ما ظننه . »

شرع العجوز فى حلاية الأبقار ، بقرة بعد أخرى ، وكلما فرغ من واحدة أدخلها . ترك البقرة المحرومة من الاجتماع مع ابنها للنهاية ، لكن جوارها المستمر جعله يُشفق عليها ويدخلها . « هذه هى المرة الأخيرة - قال لها - . انظرى إليه والعقيه بلسانك ؛ انظرى إليه كما لو كنت تودعيه الوداع الأخير ، أنت على وشك الولادة ومازلت تدللين هذا المتصابى » . ثم التفت إليه قائلاً : « تذوق أئداءها فقط لأنها لم تعد لك ؛ ألا تدري أن هذا اللبن قد غدا رخوًا ولا يناسب إلا حديث الولادة » . وعندما رآه يرضع من الأئداء الأربعة جنّ جنونه وانهاه عليه ركلا بالأقدام « سأحطم رأسك ، يا ابن الحيوان » .



« كنت سأمزق خيطمه بالتأكيد لو لم تنشق الأرض عن سيدى »
« دون خوستو » الذى سدد إلى عدة ركلات بقدمه لكى يهدىء من روعى . أخذ الهراوة بعد ذلك وأمطرني بوابل من الضربات جعلتنى أسقط بين الأحجار وعظامى تسزق من شدة ما تلّقت من هول . أتذكر أننى

ظللت طوال ذلك اليوم مخدراً وغير قادر على الحركة من الأورام الناجمة عن العلقة الساخنة ومن الألم الفظيع الذي مارلت أعانى منه حتى الآن .

ما الذى حدث بعد ذلك ؟ لا أدري . كل ما أعرفه أننى لم أعد للعمل عنده ، لا أنا ولا غيرى ، لأنه مات فى ذلك اليوم نفسه . سيادتكم لا تعلم بهذا ؟ جاءوا ليخبرونى به فى البيت ، بينما كنت مستلقياً على سرير نقال وزوجتى إلى جوارى تضمد جراحى ، وتضع عليها الكمادات . جاءوا إلى ليخبرونى أننى قتلته . ربما يكون هذا ما حدث ؛ لكنى لا أتذكر شيئاً ، ألا تعتقد سيادتكم أن قتل آخر يترك آثاراً ؟ لا بد وأن يترك آثاراً ، خاصة إذا كان هذا الآخر يفوق القاتل قوة ومنعة ، لكن لاشك فى أنهم لم يضعونى فى السجن عبثاً وإنما لشيء فعلته ، ألا تعتقد أننى على صواب فى هذا الاستنتاج ؟

خذ بالك معنى : ما أتذكره بوضوح يمتد إلى اللحظة التى ضربت فيها العجل الصغير وما تبعه من هجوم سيدى على ، إلى هنا تعمل الذاكرة بوضوح ، أما ما حدث بعد ذلك فكله غامض المعالم ، أعتقد أننى غبت تماماً عن الوعي بعد تمددى على الأرض وعندما أفقت كنت فى سريرى وزوجتى هناك إلى جوارى تشجعنى على تحمل آلامى كما لو كنت صبياً صغيراً ولم أبلغ من الكبر عتياً ، لدرجة أننى صحت فيها : اصمتى ! أتذكر ما قلته لها ، كيف أنسى - يا امرأتى العجوز - أننى قتلت رجلاً ! ومع هذا ، يصرّون على أننى الذى أردت « دون خوستو » قتيلاً . بماذا قتلته إذن ؟ يقولون بحجر ، أليس كذلك ؟ ربما

حالفهم الصواب فى هذا لأنهم لو قالوا إننى قتلته بسكين لوصفتهم
بالعتة لأننى لا أحمل سكينًا منذ أن كنت شابًا يافعًا ، ومن يومها حتى
وقتنا هذا مرت سنوات لاتحصى .



ترك « خوستو بارامبيلا » ابنة أخته « مارجريتا » على السرير ،
محاولا عدم إحداث ضوضاء . فى الغرفة المجاورة كانت تنام أخته التى
أقعدھا الكساح منذ عامين وجعل جسدها مثل خرقة بالية ، وإن كان النوم
لا يزور عينيها إلا لمساءً ، لا يغشاها النعاس إلا فترة قصيرة عند السحر ،
تنام فيها وكأنها أسلمت الروح إلى بارئها .

استيقظت عند طلوع الشمس ، كانت قد بدأت تفتح عينيها عندما
وجدت « خوستو بارامبيلا » يضع جسد « مارجريتا » النائم على الفراش .
سمعت أنفاس ابنتها وسألت : « أين أمضيت الليل ، يا « مارجريتا » ؟
وقبل أن يبدأ فاصل الصراخ الذى سيؤدى فى النهاية إلى إيقاظها ، غادر
« خوستو بارامبيلا » الحجرة فى صمت .

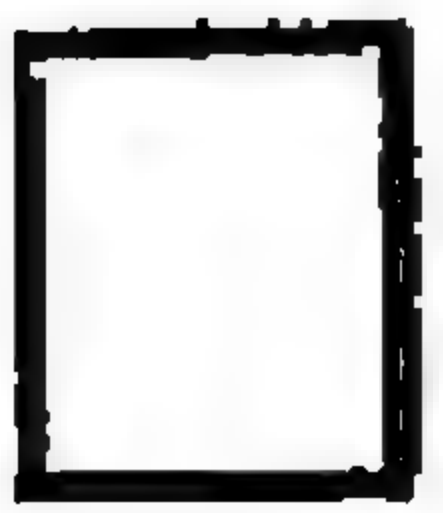
كانت الساعة السادسة صباحًا .

اتجه إلى الحظيرة ليفتح الدهليز للعجوز « إستيبان » . جال بخاطره
التعصير على مظلة الخيزران ليحمل السرير الذى أمضى

الليل فوقه بصحبة « مارجريتا » . « لو يصرح القسيس بهذا ، لتزوجتها في الحال ؛ لكننى على يقين بأنه سيعمل لى فضيحة عندما أطلب منه هذا ، سيقول زنا محارم وسيعلن بموجبه مروقنا عن الدين وارتدادنا عن المسيحية » . فى هذا كان يفكر عندما وجد العجوز « إستيبان » يمسك يدين من حديد خِطْم العجل الصغير ويسدد الركلات إلى رأسه .

كان يبدو أن العجل على وشك أن يفطس ، لأنه كان ينبش الأرض بحوافره دون أن يقوى على النهوض .

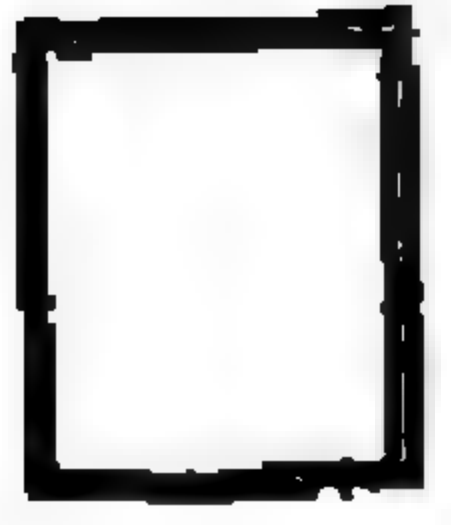
جرى وقبض على رقبة العجوز ودفعه على الأحجار ، بينما كان يركله ويكيل له شتائم لم ترد على لسانه من قبل ، أحس بعد ذلك بسحابات تطفو داخل رأسه وسقط متدحرجاً على أرضية الحظيرة المرصوفة ، حجبت غمامة كبيرة سوداء نظرتة عندما أراد فتح عينيه . لم يكن يحس بألم ، بل بشيء أسود يُطبق على فكره ليحيله إلى ظلام دامس .



نهض العجوز « إستيبان » بعد أن ارتفعت الشمس قدر رمح . مضى متلمساً ما حوله ومتوجعاً ، لا يدرى كيف فتح الباب وألقى بنفسه فى الشارع . . . لا يدرى كيف وصل الى بيته ، مطبق العينين تاركاً خيطاً

من الدم على طول الطريق ، لكنه وصل وتكوّر على سرير النّقال ونام من جديد .

كانت الساعة تشير تقريباً إلى الحادية عشرة صباحاً عندما دخلت « مارجريتا » الحظيرة لتبحث عن « خوستو بارامبيلا » وهى تبكى لأن والدتها نعتها بالبغاء بعد موشح طويل من العظات .



وجدت « خوستو بارامبيلا » ميتاً .

« يقولون إننى قتلته ، ربما ، لكن من الجائز أيضاً أن تكون حميته ذاتها هى التى فتكت به . كان طبعه حاداً وسيئاً للغاية ، لم يكن يعجبه شيء على الإطلاق : فالمذاود يراها دائماً غير نظيفة ، والأحواض خالية من الماء والأبقار عجفاء .

لم يكن يعجبه شيء ؛ حتى نحافتى لم تكن تروقه . ومن أين لى بالسّمنة وفمى لا يعرف الطعام إلا لماماً ! لقد كنت أمضى وقتى كله فى رحلات متواصلة مع الأبقار ؛ أقودها إلى حيث اشترى مرعى فى « خيكيلبان » ؛ وأنتظر هناك حتى تأكل ثم نأخذ طريق العودة لنصل وقت السّحر . كان ذلك مثل ترحال دائم .

والآن ترانى حضرتك بين قضبان السجن منتظراً موعد محاكمتى
الاسبوع القادم بتهمة قتل « دون خوستو » . أنا لا أتذكر شيئاً ؛ لكننى لا
أستطيع نفيه ، ربما كانت على أعيننا غشاوة ولم نتبه إلى أن أحدنا يقتل
الآخر . يحتسمل أن يكون هذا ما حدث . ذاكرتى فى هذه السن
لاتسعننى ؛ ولذا أتوجه بالشكر للخالق لأنه لو طمس كل ملكاتى فلن
يضيرنى الآن كثيراً ، لأننى بالفعل لم تبق لى حالياً ملكة واحدة تقريباً ،
أما بالنسبة لروحي فأنا أعهد بها أيضاً لرب العزة » .

كان الضباب يهبط ثانية على « سان جبريل » . لاتزال الشمس تلمع
فوق الروابى العالية ، وبقعة من التراب تغطى القرية . جاءت الظلمة بعد
ذلك . فى تلك الليلة لم تسطع الأنوار ، حداذاً على « دون خوستو » ،
صاحب الكهرباء ومالك المصابيح . ظلت أنوار الشموع تضئ زجاج
الكنيسة الملون حتى مطلع الصباح ، بينما سهر المشيعون إلى جوار جسد
المرحوم . من بين يقظة الليل وغفوته تنبعث صلوات النساء اللاتى ترددن
بصوت مفتعل : « اخرجى ، اخرجى ، اخرجى أيتها الأرواح الشريرة
المذنبه » .

بقيت الأجراس تدق دقاتها الجنائزية طوال الليل ، حتى السحر ، إلى
أن قطعتها نوبة الإعلان عن الفجر .

« تالپا » (TALPA)

أَلَقْتُ « نَاتالپا » بنفسها بين ذراعی أمها وانخرطت فی بكاء مسترسل مكثوم ، كان بكاءً متراكماً من أيام عديدة ، مُدَّخراً للساعة التي نعود فيها إلى « زیتزونتلا » ، ورأت أمها وأحسَّت بالرغبة فی التفريج عن همَّها .

وعلى خلاف هذا ، لم تخامر الدموع عينيها أثناء المهام الجسام التي حفلت بها أيام عدَّة : عندما كان لزاماً علينا دفن « تانيلو » فی حفرة بأرض « تالپا » دون مساعدة مخلوق ، عندما أنا وهي ، وحدنا ، تكاتفنا وأخذنا ننبش بأظافرنا الأرض الصلبة لنحفر قبراً نواری فيه « تانيلو » سريعاً حتى لا يستمر فی إثارة فزع الناس برائحة هوائه المشبع بالموت .

ولاحتي بعد ذلك ، فی طريق العودة ، عندما أتينا مواصلين الليل بالنهار دون راحة ، سائرين متلمسين كالمتموِّمين ندوس الأرض بخطوات تبدو مثل قرعات فوق جثوة « تانيلو » . فی تلك الأثناء بدت « ناتالپا » مثل حجر صلد تحمل قلباً مكبلاً حتى لا تحس به يتففض داخل صدرها ، لكن عينيها لم تذرفا دموعاً واحدة .

لم تبك إلا بعد أن وصلت إلى هنا ، فی حجر أمها ؛ لتغمها ولتحيطها علماً بمدى ما كابده من معاناة ، ولتغمنا - بالمرّة - كلنا ، لأنني أحسست أيضاً بهذا البكاء وكأنه يعتصر خرقة خطايانا .

المسألة أننا تسببنا ، أنا و « ناتاليا » ، فى موت « تانيلو سانتوس » .
حملناه إلى « تاليا » ليموت ، ومات ، كنا نعرف أنه لن يتحمل طول
المسافة ، ومع هذا دفعناه دفعًا لتخلص منه الأبد . هذا باختصار ما فعلناه .



كان أخى « تانيلو » هو صاحب فكرة الذهاب إلى « تاليا » . راودته
الفكرة قبل غيره ، منذ سنوات ، منذ ذلك اليوم الذى أصبح فيه
والفقاعات الداكنة تغطى ذراعيه وساقيه . وعندما تحولت الفقاعات بعد
ذلك إلى قروح لا ينبثق منها الدم بل شئ أصفر مثل الرأتينج يقطر ماء
ثخينًا . أتذكر جيدًا أنه أعرب لنا وقتها ، والخوف يملكه عن إحساسه
باستحالة الشفاء مما أصابه من ضرر .

لهذا كان يريد الحج إلى عذراء « تاليا » ، لكى تُشفى بنظرتها
قروحه . وبالرغم من أنه كان يدرك أن « تاليا » بعيدة والسفر إليها يتطلب
السير طويلاً تحت قرص الشمس نهاراً وتحت برد مارس ليلاً ، إلا أنه كان
مصممًا ، معتقدًا أن العذراء ستجعله يبرأ من تلك الأشياء التى لا يجف
نبعها قط . لم يتطرق إليه الشك فى قدرة العذراء على غسل الأشياء وإزالة
ما بها من أدران مثل مرج خارج لتوه من المطر ، وأمامها هناك ، ستتهى
بلواه ؛ لن يؤلمه شئ ولن يعد لإيلامه . هذا ما كان يعتقد .

هذا ما جعلنا نضطجبه أنا و « ناتاليا » . كان لزاماً على مرافقة « تانيلو » لأنه أخى ، ومرافقة « ناتاليا » له شبه واجبة على أية حال لأنها كانت زوجته . كان يحتاجها فى الذهاب ليتوكأ عليها وربما دعت الضرورة فى العودة لحمله على الأعناق ، بينما يكتفى هو بجرجرة آماله .

كنت أعرف مسبقاً ما يدور بخلد « ناتاليا » ، فقد خبرتها بعض الشيء . كنت أعرف ، مثلاً ، أن ساقىها الملفوفين ، المكتنزين والساخنين مثل حجارة فى أشعة شمس الظهيرة ، ظلاً وحيدين زمناً طويلاً . كنت أعرف هذا . اجتمعنا مرات عديدة ؛ لكن طيف « تانيلو » كان يفصل دائماً بيننا ؛ كنا نحس أن يديه المقرحتين تقفان حائلاً بيننا وتنتزعان « ناتاليا » للاستمرار فى العناية به ، وسيبقى الوضع على ما هو عليه طالما ظل على قيد الحياة .

أعرف الآن أن « ناتاليا » نادمة على ما حدث . وأنا أيضاً ؛ لكن هذا لن ينقذنا من تأنيب الضمير ولن يعد السلام لجوانحنا مطلقاً . لا يمكن أن يبعث فى نفوسنا الطمأنينة العلم بأن « تانيلو » كان سيموت فى جميع الأحوال ، لأن دوره كان قد حان ولم تعد تجدى الرحلة الطويلة إلى « تاليا » البعيدة ؛ فقد كان فى حكم المؤكد أنه سيموت سواء هنا أو هناك ، أو ربما تأخر قليلاً موعد موته هنا عن هناك ، لأن المعاناة التى كابدها فى الطريق والدم الزائد الذى فقده ، والحماسة وغيرها ، قد اجتمعت وعجلت بنهايته . ما يشير الأسى هو دفعنا له دفعاً إلى الأمام عندما فقد الرغبة فى المواصلة وعندما أحس بعدم جدوى

الاستمرار وطلب منا إعادته . كنا نَشُدُّه شَدًّا من الأرض لكي يواصل السير قائلين له إنه لم يعد بالإمكان التفكير فى التراجع .

« تالبا » الآن أقرب إلينا من « زينزونتلا » ، كنا نقول له . لكن « تاليا » كانت لاتزال بعيدة ؛ خلف أيام كثيرة من السير المتواصل .

كنا نريد أن يموت ، لاشئ غير هذا منذ مغادرة « زينزونتلا » وفى كل ليلة من الليالى التى أمضيناها فى الطريق إلى « تالبا » . إنه أمر لانستطيع فهمه الآن ؛ لكنه كان هدفنا وقتها ، أتذكر هذا جيدا .

لاتفارق مخيلتى تلك الليالى ، كنا نشعل أولا أخشاب الصنوبر للاستضاءة ، ويعد أن تصفو الجذوة ويعلوها الرماد نبحت ، أنا و « ناتاليا » ، عن أى ظل للاحتماء به من ضوء السماء . وهكذا كنا نعتصم بعزلة الحقول حيث يلفنا الليل بجناحيه بعيدا عن عيني « تانيلو » . وتلك العزلة كانت تدفع الواحد منا نحو الآخر ، كنت أهتمصر جسد « ناتاليا » بذراعى فيغشاها نوع من العزاء ، كانت تحس بالراحة ؛ تناسى أشياء كثيرة ثم يعتريها الخدر ويتنفس جسدها الصعداء .

كانت الأرض التى نتوسدها دائما حارة ، ولحم « ناتاليا » ، زوجة أخى ، كان يسخن فى الحال بفعل حرارة الأرض . والحرارتان المجتمعتان كانتا تحرقان الواحد بعد ذلك وتجعله يفيق من حلمه ، عندئذ كانت يداى تلهثان خلفها ؛ تروحان وتجيئان فوق جسدها المشتعل كالجذوة ؛ يخفه فى البداية لتهتصرانها بعد ذلك كما لو كانتا تبغيان عصر دمها . وهكذا مرة بعد أخرى ، ليلة بعد ليلة ، إلى أن يأتى السّحر وتطفئ الرياح الباردة لهيب جسدينا . هذا ما كنا نفعله أنا و « ناتاليا » على جانبي الطريق المؤدى إلى « تالبا » ، خلال مرافقتنا « تانيلو » فى رحلة

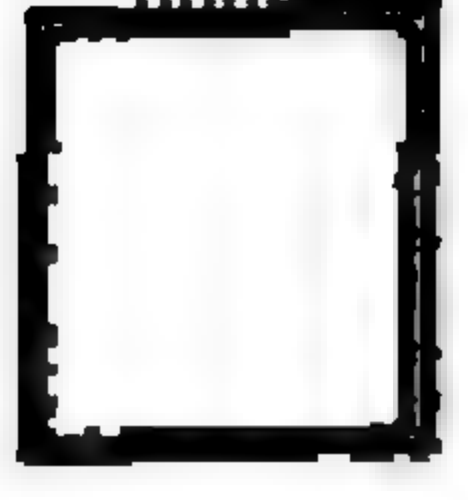
الاستشفاء إلى العذراء . فات كل هذا وانقضى ، وشفى « تانيلو » حتى من حياته . فى ماذا يفيد تقليب المواجع بذكر المعاناة التى كابدها « تانيلو » من أجل العيش ، بذلك الجسد المسمم التالف ، المترع بالماء الأسن الذى ينبثق عند حدوث أى قطع بالساقين أو الذراعين . قروح كبيرة ، تنفتح على مهل ، على أقل مهلها ، ليخرج منها هواء يشير فينا الذعر .

لكنه بعد أن مات أصبحت الأمور تُرى من منظور مختلف . الآن تبكى « ناتاليا » من أجله ، ربما ليرى ، من حيث ترقد عظامه ، تأنيب الضمير الذى يخالط روحها . تقول إن وجه « تانيلو » يطالعها فى الأيام الأخيرة . الشيء الوحيد فيه الذى كان ذا نفع لها ؛ وجه « تانيلو » المخضب دائماً بالعرق من وطأة المجهود الذى يبذله لتحمل آلامه . أحست به يقترب من فمها ثم يختفى بين خصلات شعرها ، طالباً منها . بصوت غير مسموع . مساعده . تقول إنه أخبرها أنه شفى مؤخراً ، ولم يعد يضايقه أى ألم . « بإمكانى الآن ، يا « ناتاليا » ، البقاء إلى جوارك ، ساعدينى لكى أبقى معك » . تدعى أن هذا كلامه لها .

كنا قد فرغنا من مغادرة « تالبا » ، من تركه هناك مدفوناً فى أعماق تلك الحفرة السحيقة التى صنعناها بأيدينا .

ومن حينها نسيته « ناتاليا » ، أعرف كيف كانت عيناها تلمعان من قبل مثل بركتين ينعكس على صفحتيهما ضوء القمر ، لكن لونهما أصبح حائلاً ، وغامت النظرة فيهما كما لو كانت تمرغت فى التراب ، وبدأ أنها

لم تعد ترى شيئاً. كل ما حولها « تانيلو » الذى يخصها ؛ « تانيلو »
الذى تعهدته بالرعاية بينما كان حياً ودفتته عندما وجب عليه أن يموت .



خرجنا من قريتنا وأمضينا عشرين يوماً قبل الوصول إلى الطريق
الرئيسى المؤدى إلى « تالبا » . كنا نسير وحدنا ، نحن الثلاثة ، خلال
تلك الأيام . وبعدها بدأنا ننحشر فى جموع لا تحصى قادمة من جميع
الاتجاهات وأفضت بها طرقها ، مثلنا ، إلى ذلك الطريق الواسع الذى
يشبه مجرى النهر . كنا نمشى جرأً ، مدفوعين من كل جانب كما لو كانوا
يسوقوننا مقيدين بخيوط من الغبار ، هذا لأن الغبار كان يتحرك من جرأء
ديب الجموع السائرة ، غبار أبيض مثل نخالة الذرة يرتفع عاليًا ثم يعاود
الهبوط ، لكن الأقدام المتحركة كانت تردّه وترفعه من جديد ، وهكذا كان
الغبار من فوقنا ومن تحت أرجلنا طيلة الوقت . وفوق هذه الأرض كانت
تُحلّق سماء خاوية الوفاض ، بلا سحب ، فيما عدا الغبار ؛ والغبار لا ظلّ
له .

كنا ننتظر الليل بفارغ الصبر لنستريح من الشمس ومن ذلك الضوء
الأبيض للطريق ، استطال النهار بعد ذلك ، فقد غادرنا
« زينزونتلا » فى أواسط فبراير ، وبعد أن دخلنا الآن فى مارس أصبح
النهار يطلع متعجلاً . لانكاد نغلق أعيننا بالليل حتى توقظنا الشمس من
جديد ، الشمس نفسها التى تبدو وكأنها غربت منذ قليل .

لم أتصور مطلقاً أن بطاء الحياة وقسوتها ، مهما بلغا ، يمكن أن يعادلا السير بين كومات من البشر ؛ كنا مثل فؤارة تعج بدود متراكب بعضه فوق بعض تحت لفح الشمس ، ملفوفين بعنمة الغبار التى تحبسنا جميعاً فى الطريق نقسها وتقتادنا كالمحاصرين بسياج . كانت العيون تتبع الطريق ؛ تصطدم بالغبار كما لو كانت تتعثر فى شىء لا يمكن اختراقه . والسماء رمادية دائماً ، مثل بقعة رمادية غليظة وثقيلة تسحقنا جميعاً من عل . لم يكن الغبار يرتفع عنا وتخف عنمته إلا عندما نعبّر نهراً من حين لآخر . كنا نغمس رؤوسنا الساخنة المُنْبِرة فى المياه الخضراء ، وعندها يتصاعد منّا للحظة بخار أزرق يشبه البخار الخارج من الفم فى جو شديد البرودة ، لكننا كنا نعود ثانية للاختفاء بعدها بقليل فى الغبار ، يحمى بعضنا البعض من الشمس ، من حرارتها المورعة علينا بالقسطاس .

ذات يوم سيأتى الليل . كنا معلقين بهذا الأمل . سيصل الليل ونخلد للراحة فى كنفه . همنا الآن تجاوز النهار ، عبوره . على أى وضع للفرار من الحرارة ومن الشمس ، بعد ذلك سنمسك عن السير . بعد ذلك . ما علينا عمله حالياً هو عدم التوانى فى بذل الجهد بعد الجهد للسير فى أعقاب الجموع التى تتقدمنا وأمام الكتل البشرية التى تتبعنا .

كان هذا هو شغلنا الشاغل أنا و « ناتاليا » وربما « تانيلو » أيضاً ، أثناء سيرنا بين أفواج الحجاج فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى « تالبا » ؛ كنا نريد أن نكون أول الواصلين إلى العذراء ، قبل أن ينفد منها رصيد المعجزات .

لكن « صيحة تانيلو » أخذت تتدهور أكثر ، جاءت لحظة لم يكن يريد فيها الاستمرار ، عندما انتفخ لحم قدميه وأدى الانتفاخ إلى انبثاق الدم منهما . أوليناها عنايتنا حتى تحسن ، ومع هذا لم يرد الاستمرار .
« سأبقى جالساً هنا يوماً أو اثنين ثم أعود بعدهما إلى « زينزونتلا » ، هذا ما قاله لنا .

لكننا أيّنا . كان بداخلنا شيء منعنا من الإحساس بأي نوع من الشفقة تجاه أيّ « تانيلو » . كنا نريد الوصول به إلى « تالبا » لأن حالته وقتها لم تكن تَنمُّ عن جفاف نبع الحياة به . لهذا كانت « ناتاليا » تستحثه أثناء شطفها لقدميه بمطهر لتخفيف الورم ، كانت تقول له إن شفاءه يتوقف على عذراء « تالبا » . فهي الوحيدة القادرة على إبرائه من آلامه إلى الأبد ، هي دون غيرها ، توجد عذارى أخريات ؛ لكن عذراء « تالبا » تفضلهن جميعاً . هذا ما كانت تقوله « ناتاليا » .

وعندئذ كان « تانيلو » ينخرط في البكاء بدموع تشق أخدوداً بين عرق وجهه وبعدها يلعن نفسه ويتحسر على حاله . كانت « ناتاليا » تجفف بخمارها دفتات دموعه ، وتُنفضه فيما بيننا من على الأرض لكي يسير .
وهكذا سحبناه سحباً حتى وصلنا به إلى « تالبا » .

في الأيام الأخيرة نال التعب منا أيضاً ، كنا نحس أننا و« ناتاليا » أن أجسادنا قد انطوت تحت الأعباء الثقّال ، كأن قوة خفية توقفتنا لتضع أحمالاً باهظة فوقنا . كان « تانيلو » دائم السقوط وكان علينا رفعه من الأرض وحمله أحياناً على الأكتاف . ربما تسبب هذا في الحالة التي وصلنا إليها : جسدان خائران ، وَهَنٌ يحصل بينهما وبين القدرة على المشي ، لكن الجموع التي كانت تمضي هناك إلى جوارنا كانت تعجل بسيرنا .

فى اللئل كانت تهلأ حركة هءا العالم المنءفع قءمآ إلفى الأمام . كانت
الجلءوات المشءعلة المءنآءرة فى كل مكان ءلمع فى الهواء الطلق ، وءول
ألسنة اللهب ءصلف جموع الءءاج وهف عاقفة أءرعتها على شكل صلبان
ونظراتها ميممة شطر سماء « ءالفا » ، والرفا ءأء ذلك الءفف وءرءه ،
مقلبة له ، ءءى ءءل منه هءفرا مءوءءا ، بعء ذلك بقلل فففى كل شفء
هامءا ، ومع هءا فعنء منءصف اللئل ءقرفبافا كان فءناهف إلفى سمعنا صوء
بعفء فصفف ، بعء ذلك ءغلق العفون وءنءظر ءون نوم هءوم صبء الءوم
ءالف .



ءءلنا « ءالفا » وءءن نرءء صلاة ءسافف .

ءرفنا من قرفءنا أواسط فبرافر ووصلنا إلفى « ءالفا » فى نهافة مارس
أءناء مءاءرة أناس كءفرفن لها وصلوا قبلنا . ءسبب « ءانفلو » فى هءا
ءالءفر لإصراره على مءارسة بعض الطقوس المصاءبة لإعلان ءوبة .
عنءما وءء نفسه مءاطا برءال فعلقون أوراق الصبار الشءفنة فى شكل
أءءبة ، قرر عمل شفء ءصاص به ، ءالء بفأطره فكرة ربط إءءف
قءمفه بالأءرف بكم قمفصه لإعاقه وءعءفز ءطوآاه ، أراد بعء ذلك وءع
إكلفل من الشوك فوق رأسه . وبعءها مباءرة عصب عففه ، وبعء ذلك ،
فى الءزاء الأءفر من الطرفق ، ارءكز على الأرض وراح فمشف على عظام
ركبفه وفءاه معقوفءان ءلف ظهره ، وبهءا الشكل وصل إلفى « ءالفا » ذلك
الشفء الذى كان أءف ، « ءانفلو ساءءوس » ؛ ذلك الشفء المءرع بالقروح
وءفوط الدم الغامقة ءفى كانت ءرك فى الهواء ، عنء مروره ، رائءة

حامضة مثل حيوان ميت . وعلي خلاف ما نبغى رأيناه وقد ألقى بنفسه
فى خضم الرقصات . غفلنا عنه لنجده هناك ، والصنوج الطويلة فى
يده ، يدق الأرض بقدميه الزرقاوين الحافيتين دقات عنيفة . بدا هائجاً
بكامله ، كما لو كان ينفض الحمية التى يدّخرها بداخله منذ وقت طويل ؛
أو كما لو كان يخرج ما تبقى فيه من جهد ليتمكن من الحياة مدة أطول
قليلا .

ربما تذكر ، عند رؤيته الرقصات ، الأيام الخوالى عندما كان يذهب
كل عام إلى « توليمان » ، فى ذكرى موت المسيح ، ويظل يرقص الليلة
بكاملها حتى تتفكك أوصاله ، لكن دون أن يناله نصيب . ربما تذكر هذا
وأراد أن يستعيد نشاطه القديم .

رأيناه أنا و « ناتاليا » مدة ليست بالقصيرة ، ثم شاهدناه بعد ذلك
يرفع ذراعيه ويجلد جسده بالأرض ، والصنوج لا تزال بيديه وقد غمرها
الدم . انتزعناه جراً من هناك ، محاولين حمايته من رفسات أقدام
الراقصين ؛ من بين هياج تلك الأقدام التى تتدحرج على الصخور وتشب
داعسة الأرض دون الانتباه إلى ما إذا كان هناك شىء قد سقط بينها .

دخلنا به الكنيسة وهو مطوى الساقين كالكسيح . جثت « ناتاليا »
معه أمام تمثال عذراء « تالبا » المذهب ، شرع « تانيلو » فى الصلاة
وسقطت منه دمعة كبيرة ، خارجة من الأعماق ، وأطفأت الشمعة التى
وضعتها « ناتاليا » بين يديه . لم ينتبه لهذا واستمر فى صلاته ، كان
يصلى بصوت كالصراخ ليتأكد من أنه يصلى .

لم يفده كل هذا بشىء . لقد مات على أى حال .

« ... نتضرع إليها أيضا من سويداء قلوبنا ضراعة يُغلفها الألم .
استغاثتنا بها مضمخة بالأمل . حنانها يترقرق أمام النحيب والدموع ، لأنها

تقاسى مثلنا . هى قادرة على إزالة هذه الغشاوة لتترك القلب لَدنا نقيًا مهياً لاستقبال رحمتها وعطفها . عذراؤنا ، أمنا ، التى لايهمها معرفة شىء عن خطايانا ؛ التى تغفر لنا الذنوب ، التى تود لو حملتنا بين ذراعيها لكى تَسَلِّمَ حياتنا ، إنها هنا إلى جوارنا تخفف عنا وتشفينا من أمراض الروح وأوجاع الجسد المكلم المبتهل . إنها تعرف أن إيماننا يزداد صلابة مع الأيام لأنه يركز على التضحية وبذل النفس » .

هذا ما كان يقوله القسيس من على منبر الكنيسة ، وبعد فراغه من حديثه ، أخذ الناس يصلون فى آن واحد ، محدثين صخبًا يماثل صخب جيش من الزنابير أفرعه الدخان .

لكن « تانيلو » لم يسمع ما قاله القسيس . بقى هامدًا ، ورأسه جاثم على ركبتيه . كان ميتًا عندما حرَّكته « ناتاليا » لكى ينهض .

فى الخارج كانت تُسمع جلبة الرقصات ؛ الطبول والمزامير ؛ قرعات الأجراس وهاجمنى الحزن حيثُذ ، عندما أحسست فى تلك اللحظة نفسها بوجود أشياء كثيرة حولى تنبض بالحياة : ها هى العذراء ، أمامنا مباشرة ، توزع علينا ابتسامتها ، وهنا إلى جوارى « تانيلو » ، مجرد عائق . أصابنى هذا بالغم . لكننا نحن الذين حملناه ليموت هناك . لن أنسى هذا ما حيت .



نحن الآن فى « زينزونتلا » . عدنا بدونه . ولم تسألنى أم
« ناتاليا » عن شىء ؛ ولا عما صنعت به بأخى ، أخذت « ناتاليا » تبكى
على صدرها وقصت عليها ما حدث .

بدأت أشعر وكأننا لم نصل لأى مكان ، أننا هنا مؤقتًا ، لكى
نستريح ثم نواصل السير بعد ذلك . لا أدرى إلى أين ؛ لكن علينا
أن نواصل ، لأننا هنا على مقربة من الندم وتأنيب الضمير ومن ذكرى
« تانيلو » .

ربما إلى أن يأتى الوقت الذى يبدأ فيه كل واحد منا الخوف من
الآخر . ربما أود أن أقول إننا لم نتبادل كلمة واحدة منذ مغادرة
« تاليا » . ربما يكون جسد « تانيلو » شديد القرب منا نحن الاثنين ، ممدداً
على حصيرة القش ؛ مغطى من الداخل والخارج بغليان ذباب أزرق يئز
كما لو كان شخيراً عظيماً يتسلل من فمه ؛ من ذلك الفم الذى لم يستطع
غلقه بالرغم من محاولات « ناتاليا » ومحاولاتى ، وكأنه كان يرغب فى
التنفس بدون صوت مسموع . « تانيلو » الذى لم يعد شىء يؤلمه ، وكان
موجوداً ويدها ورجلاه متقرحتان وعيناه مفتوحتان وكأنهما يطالعان موته .
وهنا وهناك تقطر كل قروحه ماءً أصفر ، مُعَبِّقًا بتلك الرائحة التى تنسكب
فى كل اتجاه ويحس بها الفم ، وكأنه يستطيع عسلاً ثخيناً ومراً يذوب فى
دم الواحد مع كل زفرة هواء .

ربما هذا هو الذى نتذكره كثيراً هنا عن ذلك « التانيلو » الذى دفناه
بأرض « تاليا » المقدسة ؛ الذى أهَّلنا عليه التراب والحجارة حتى لا تنبش
مثواه الأخير وحوش الجبل .

« مأكاريو » (MACARIO)

أجلس بجانب القنطرة فى انتظار ظهور الضفادع ، أثناء تناولنا العشاء ، ليلة أمس ، أخذت تصدر صخبًا شديدًا ولم تتوقف عن النقيق إلا بعد طلوع النهار . تُؤمِّن حاضتى على هذا أيضًا قائلة إن نقيق الضفادع أطار النوم من عينيها ، وهى تريد الآن الاستغراق فى النوم دون إزعاج ، ومن ثم فقد طلبت منى الجلوس هنا ، إلى جوار القنطرة ، ويبدى لوح من الخشب لكى أضرب به الضفدعة التى تظهر على صفحة الماء وأمزقها شر تمزيق . . . الضفادع نوعان : نوع لونه أخضر بالكامل فيما عدا البطن ، ونوع جبلى أسود . عينا حاضتى سوداوان أيضًا . الضفادع الخضراء تُؤكل لأن لحمها طيب ؛ أما السوداء فلحمها خبيث ، ومع هذا فقد أكلت الأخيرة أيضًا ، بالرغم من أنها لا تُؤكل ، ووجدت طعمها لا يختلف فى شىء عن سابقتها . « فيليبا » هى التى تدعى بأن لحم الضفادع السوداء سيئ وخبيث ، لـ « فيليبا » عينان خضراوان مثل عيون القطط . هى التى تقدم لى الطعام فى المطبخ عندما يحلّ مواعده ، وتريد منى ألا أصيب الضفادع بأذى ، لكن حاضتى هى التى تأمرنى بفعل هذا وترك ذاك . . . أنا أحب « فيليبا » أكثر من الحاضنة ، لكن الأخيرة هى التى تملك حافظة النقود وتعطى منها « فيليبا » لكى تشتري ما نأكله . يقتصر عمل « فيليبا » على إعداد الطعام

بالمطبخ لثلاثتنا . لا تفعل أكثر من هذا منذ أن عرفتُها . أما غسيل الأواني فيقع على عاتقي ، كما تقع على عاتقي أيضاً مهمة جمع وإحضار الحطب اللازم لإيقاد الفرن . وحاضنتي هي التي تقوم بعد ذلك بتوزيع حصص الطعام علينا . بعد أن تفرغ هي أولاً ، تعمل كومتين بيديها : كومة لـ « فيليبا » والأخرى لي . لكن « فيليبا » كثيراً ما تزهد في الأكل ، وعندها أنفرد بالكومتين وحدي . لهذا أحب « فيليبا » ، لأنني أشعر دائماً بالجوع ولا أشبع قط ، حتى مع أكلتي نصيبها . بالرغم من أنهم يرددون أن جوف الواحد يمتلئ عندما يأكل إلا إنني لا أحس بالامتلاء مهما قدموا لي من طعام . و« فيليبا » تعرف هذا أيضاً . في الشارع يصفونني بالجنون لأنني لا أشبع أبداً . سمعت حاضنتي هذا منهم ، أما أنا فلم أسمع شيئاً . لا تركني حاضنتي أخرج وحدي إلى الشارع . لا تُخرجني إلا للذهاب إلى الكنيسة لسماع القداس ؛ وهناك تجلسني إلى جوارها وتربط يدي بطرف خمارها . لا أدري سبباً لربطها يدي ، لكنها تقسول حتى لا أتشيطان وآتي بأفعال مرعجة ، أدعوا ذات يوم أنني حاولت خنق شخص ما ؛ أنني طوّقت يديّ عنق سيدة وحاولت خنقها دون سبب . لا أتذكر هذا ، لكن حاضنتي هي التي تقول إنني أفعل كل هذا ، وهي لا تكذب . عندما تنادي عليّ لأكل ، تصدق وتعطيني نصيبي من الطعام ، على خلاف أناس آخرين يدعونني للأكل معهم ولما أقرب يمطرونني بوابل من الحجارة فأطلق ساقى للريح دون أن أتبلغ لا بطعام ولا بغيره ، لكن حاضنتي تعاملني معاملة حسنة . لهذا أنا مسرور في دارها . هذا بالإضافة لإقامة « فيليبا » معنا ، وأنا أحبها

لأنها صديقة ودودة لبن « فيليبا » حلو المذاق مثل زهور « الأوبيليسك » . شربت لبن الماعز ولبن الخنزيرات حديثة العهد بالولادة ، لكنهما لا يضارعان لبن « فيليبا » حلاوة . . . منذ أمد بعيد وهى تسمح لى بامتصاص ثدييها اللذين يخرجان لبنًا أشهى من اللبن الذى تقدمه حاضتى فى غذاء أيام الأحاد . . . من قبل كانت تأتى كل ليلة إلى غرفة نومى وتستلقى علىّ أو إلى جوارى ثم تبحث عن الوضع الأمثل لكى أستطيع تلقى ذلك اللبن الدافئ الحلو الذى يتدفق من الحلمتين . . . أكلت أزهار « الأوبيليسك » مرات كثيرة لأشغل الجوع عني . كان اللبن « فيليبا » الطعم نفسه ، لكننى كنت أحبه أكثر لأنها كانت تدغدغ كل جزء من جسدى أثناء استقبالى له من ثدييها . كانت تخلد بعد ذلك إلى النوم بجوارى حتى انبلاج الصباح . كان هذا ذا نفع كبير لى : فهو - من جهة - يطرّد البرد عني ويجعلنى أنعم بالدفء ؛ ومن جهة أخرى ، يحول بينى وبين الفكرة المسيطرة على ذهنى ومفادها أننى سأدخل النار لامحالة إذا مت وحيداً فى غرفتى . . . فى بعض الأحيان لا يعترينى خوف من الجحيم ، وأحياناً أخرى أرتعد فرقاً منه . بعد ذلك أشعر بلذة فى تخويف نفسى بفكرة ذهابى المؤكد إلى الجحيم يوماً ما ، لأن رأسى فى غاية الصلابة ، لولهى ، بنطح أول شيء أجده أمامى ، لكن « فيليبا » كانت تأتى وتطرّد مخاوفى . تدغدغنى يديها الخبيرتين وتفصل بينى وبين فكرة الموت الملحة إلى أن أنساها تماماً بعد مضى وقت قصير . . . تقول « فيليبا » لى ، عندما تكون لديها الرغبة فى البقاء معى ، إنها ستعترف للرب بكل ذنوبى ، وأنها سترتقى فى السّو إلى السماء وتتوسل إلى الرب لكى يطهرنى من الخبث

الجسم الذى يطوق جسدى من أعلاه إلى أسفله . ستطلب منه المغفرة حتى أنام قرير العين ، لهذا فهى تعترف كل يوم ، لا لأنها سيئة بل لأن جوانحى تعج بالشياطين ومن الضرورى إخراج هذه الأرواح الشريرة من جسدى باعترافها نيابة عني . كل يوم ، مساء كل يوم ، وستظل تسدى إلى هذا المعروف طيلة حياتها ، هذا ما تقوله « فيليبا » . لهذا أحبها كثيراً وبالرغم من هذا ، فكل ما تقدم يهون بالمقارنة بحكاية شدة صلابة الرأس وتحجرها ، يظل الواحد ساعات وساعات ينطح عواميد الممر بمقدمة رأسه ولا تُصاب الرأس بأذى ، تستحمل ولا تنهشم ، ويسدد النطحات إلى الأرض ، بخفة في البداية وبقوة بعد ذلك ، حتى يجعلها ترن كالطبله . مثل الطبله المصاحبة للنائى ، عندما يأتى النائى للاحتفال بالرب ، وعندئذ يسمع الواحد ، فى الكنيسة وهو مشدود إلى حاضته ، قرعات الطبله وهى ترن فى الخارج « توم » « توم » . . . تقول حاضتى إنسى سأتلظى بنار جهنم إذا استمر هوسى بنطح الأرض ، وتواجه البق والصراصير والعقارب فى حجرتى خير شاهد على هذا المصير المحتوم ، لكن ما أريده هو سماع صوت الطبله ، عليها أن تدرك هذا ، سماعها ، مثلما يكون الواحد فى الكنيسة ، منتظراً خروجه الوشيك إلى الشارع ليرى كيف يُسمع صوت تلك الطبله من مسافة بعيدة وكيف يملا فى الوقت نفسه الكنيسة من الداخل ويغطي على إذانات القسيس . . . « طريق الأعمال الصالحة يشع بالضياء ، وطريق الأعمال الطالحة تسوده الظلمة » . هذا ما يقوله القس . . . أنا أنهض وأخرج من غرفتى والظلام لا يزال مُطبّقاً ، أكنس الشارع وأعود ثانية إلى غرفتى

قبل أن يمسك ضوء النهار بتلابيبى . فى الشارع تحدث أشياء كثيرة . لا
يعدم الواحد من يتطوعون بشجّ رأسه بمجرد أن يروه ، تنهمر حجارة كبيرة
ومدببة من كل اتجاه وبعدها يلزم رُتُق القميص والانتظار لأيام طويلة حتى
تلثم السجحات بالوجه أو الركبتين . ويتحمل الواحد ثمانية تقييد يديه حتى
لا تنتزع الضمادات ويعود الدم للانبثاق من جديد . الدم أيضا مزاقه حلو
برغم اختلافه عن طعم لبن « فيليبا » . . . لأجل هذا (تفادى الرمى
بالحجارة) لا أبرح الدار بتاتا ، وبمجرد أن يقدموا لى الطعام وألثمهم أدخل
غرفتى وأغلق بابها جيدا بالمزلاج حتى لا تفسرسنى الآثام منتهزة فرصة
حلول الظلام . ومع هذا لا أوقد المصباح لأرى المكان الذى تتسلقنى منه
الصراصير وتتبختر فوقى .

أنام على جانبى ، وعندما أحس بالأرجل الخادشة لأى صرصار فوق
عنقى أفحصه بصفعة واحدة من يدى ، لكننى لا أضيء المصباح لكى
لا تهتدى إلى الآثام وأنا أفتش به عن الصراصير المختبئة تحت غطائى . . .
ترعد الصراصير كالعبوة الناسفة عندما يمزق الواحد أحشاءها .
لا أدرى ما إذا كانت الجداجد الليلية تُصدر الصوت نفسه أيضا . لم أجرب
قتل الجداجد من قبل . تقول « فيليبا » إن الجداجد تصدر صخبا
مستمرا ، دون أن تتوقف أو تعطى لنفسها فرصة للتنفس ، لتغطى
على الصرخات العالية للأرواح التى تتظهر فى السماء من آثامها
الدينية . وعندما يأتى اليوم الذى تتلاشى فيه الجداجد سيمتلىء العالم
بصرخات وتوجعات الأرواح العلوية وسيطلق الجميع ، عندئذ ، ساقبه
للريح من شدة الهلع . وعلاوة على ما تقدم ، يروقنى

كثيراً إصاخة السمع لهدير الجداجد التى تغصّ بها حجرتى . من المحتمل إن عدد الجداجد الموجودة هنا ، بين ثنايا الدعائم الخشبية التى أرقد فوقها ، يفوق بكثير عدد الصراصير . توجد أيضاً عقارب ، تتساقط فى كل آن من السقف وعلى الواحد أن يكتم أنفاسه حتى تستكمل مشوارها فوقه وتصل إلى الأرض ، فلو حرك الواحد ذراعه أو بدأت ضلوعه ترتجف سيشعر فى الحال بحرقان اللدغة ، وهذا يؤلم . ذات مرة ، لدغت عقربة « فيليبا » فى مؤخرتها . أخذت تبكى وتوجهت بصراخ مسترسل مكتوم إلى العذراء البتول متوسلة الإبقاء على مؤخرتها . ذهنتُ لها مكان اللدغة بلعابى ، أمضيت الليلة بطولها أدهن لها برضايبى وأصلّى من أجلها ، إلى أن جاء وقت تأكدت فيه أننى لم أخفف عنها شيئاً بعلاجى ، وعندئذ أخذت أساعدها بدموع عينى قدر ما استطعت . . . على أية حال ، أنا أجد راحتى أكثر فى غرفتى عن الظهور فى الشارع لافتنا انتباه محبى ضرب خلق الله . أنا هنا بمنأى عن الأذى . فحاضتى لاتعنفنى لأكلى زهور « الأوبيليسك » أو الرياحين أو أشجار الرمان الموجودة فى بيستها ، لأنها تعرف شهيتى المفتوحة دائماً للطعام ، وتعرف ملازمة الجوع لى ، وعدم كفاية أية كمية من الطعام لسد رمقى بالرغم من ازدرادى كل لحظة أشياء من هنا ومن هناك . وهى تعرف أيضاً أننى ألتهم الحمص المنقوع بدلاً من تقديمه للخنازير السمينة والذرة الجافة التى يجب على تقديمها للخنازير العجفاء . وهكذا فهى تدرك جيداً فسادحة الجوع الذى يصاحبنى منذ أن أصبح إلى أن أمسى ، ولذا لن أبرح مكانى طالما وجدت فى البيت الذى يأوينى طعاماً أطعمه ، ذلك لأننى أعتقد أن اليوم الذى ينأى فيه الطعام عنى سيشهد خاتمتى ، وساعتها سأذهب إلى الجحيم بكل تأكيد . ومن هناك لن يستطيع

أحد إنقاذى من أُنونه ، ولاحتى « فيليبا » بالرغم من حديها وعطفها على ، ولا الحجاب الذى أهده لى حاضتى وأحملة متدلياً من عنقى . . . أنا الآن بجانب القنطرة أنتظر خروج الضفادع على صفحة الماء ، ولم تظهر ضفدعة واحدة طيلة هذا الوقت الذى أتكلم فيه وأتحدث عن نفسى .

لو تأخرت عن هذا فى الظهور ربما أروح فى إغفاء ، وعندها لن تجد من يقتلها وسيخاصم النوم عينى حاضتى لسماعها صخبهم ، وسيملكها الغضب . ستطلب عندئذ من طابور القديسين الموجود بحجرتها إطلاق الشياطين من عقالها وإرسالهم إلى ليقتادونى جرّاً إلى الجحيم السرمدى ، مباشرة ، دون التعرّيج على المكان المخصص للتطهر من الذنوب قبل حساب يوم القيامة ، وعندها لن أتمكن من رؤية أبى ولا أمى الموجودين دون شك فى ذلك المكان . . . من الأفضل إذن الاستمرار فى الحديث . . . تملكنى رغبة عارمة فى العودة للتذود ببعض جرعات من لبن « فيليبا » ، من ذلك اللبن اللذيذ والحلو مثل العسل الذى يخرج من تحت زهور « الأوبيليسك » .

السهل يحترق

« قتلوا الكلبة ،

لكن مازال صغارها أحياء . . . » .

(مقطع من أغنية شعبية)

« يعيش » بيترونيلى فلورس ! » .

ارتطمت الصبحة بالحوائط الضخمة للوهدة وصعدت قفزاً إلى حيث
نوجد . تلاشت بعد ذلك .

لبرهة ، حملت إلينا الرياح التى تهب من تحت جلبية أصوات
متكؤمة ، محدثة صخباً يماثل ما تحدثه مياه الفيضان عند جريانها على
أرض مليئة بالحصى .

تبعثها صبحة أخرى ، خارجة من المكان نفسه هناك ، تلوت على
منعطف الوهدة ثم تسلقت الحوائط الضخمة ووصلت إلى جوارنا بكامل
قوتها :

« يعيش الجنرال » بيترونيلى فلورس ! » .

نظرنا إلى بعضنا .

نهض " لاييرآ " متثاقلا ، سحب الخرطوش من خزانة بندقيته وحفظه فى جيب سترته ، دنا بعد ذلك من مكان « الأربعة » وقال لهم : « أتبعونى ، أيها الفتيان ، لنبحث عما نصارع من ثيران ! » . تبعه الإخوة " بينابيدس " الأربعة ، منحني الرءوس ؛ " لاييرآ " وحده كان يمضى منتصب القامة ونصف جسده النحيل يظهر من فوق السور الحجري .

ظللنا ، نحن ، فى موضعنا هناك ، بلا حراك . كنا مرصوصين على حافة البساط العشبي الأخضر مستلقين على ظهورنا وبطوننا نحو السماء مثل سلاحف تستدفئ بحرارة الشمس .

كان السور الحجري يشتد تعرجه عند صعوده الأكمام وهبوطه منها ، ومعه كان يتلوى أيضاً " لاييرآ " بصحبة الأربعة وكأن أقدامهم مطوقة بسلاسل .

هكذا رأيناهم وهم يختفون عن أعيننا . أعدنا وجوهنا لتطلع ثانية إلى أعلى ، إلى شجيرات " الأمولس " * التى تنعم علينا بظلها المتهرئ المتواضع . كان الجو مُعَبِّقًا بمزيج من رائحة الظل الساخن بفعل حرارة الشمس ورائحة شجيرات " الأمولس " المتعفنة ؛ وفى الهواء يتناثر الإحساس بنعاس القيلولة .

كانت الجلبة القادمة من هناك ، تحت ، تتصاعد طوال الوقت من الوهدة وتهز أجسادنا بعنف لتطير منها النوم .

* " الأمولس " (Amoles) : أشجار مختلفة الأنواع تستخدم بصيالاتها كصابون للفسيل ، (المترجم)

وبالرغم من أننا كنا متحرقين شوقاً لتمييز الأصوات ، مرهفين السمع ، فلم يكن يصل إلينا سوى الصَّخَب : دوامة من الهمهمات مثلما يُسمع من بعيد الحفيف الذي تحدثه عربات الكارو عند مرورها بعطنة مسدودة مليئة بالحجارة . دوى ، فجأة ، صوت عيار نارى . رجعت الوهدة صدها كما لو كانت تتساقط .

أيقظ هذا ما حولنا : طارت عصافير " توتوشيلوس " ، تلك العصافير الملونة التى كنا نشاهدها تفرح بين أشجار " الأمولس " . وفى الحال استيقظت أيضاً الباغات من سبات القيلولة وملأت الأرض بصريرها .

- ما هذا ؟ - سأل " پدرو ثامورا " ، ووسن القيلولة مازال يثقل جفنيه . عندئذ نهض " تشيويلا " ، مجرجراً بندقيته كما لو كانت غصن شجرة ، وترجل فى إثر من ذهبوا .

- سأذهب لأستكشف ما حدث - قال وهو يختفى مثل الذين سبقوه .

تعالى صرير الباغات حتى أصابنا بالصمم ولم نتسبه للساعة التى ظهوروا فيها هناك ، وعلى خلاف ما نشتهى وجدناهم أمامنا مباشرة وقد جردوا مما كانوا يحملون ، بدوا وكأنهم على سفر ، فى أبهى الحلل ، كما لو كانوا متهيئين لنوازل أخريات غير هذه النازلة التى أطبقت عليهم الآن .

عدنا أدراجنا وأخذنا نرقبهم من فتحات المزاغل .

مرّ المتقدمون وتبعهم آخرون ثم آخرون غيرهم ، بأجساد منحنية إلى الأمام ، متعبين من النعاس ، كانت وجوههم تلمع بالعرق كما لو كانوا قد غمسوها فى الماء أثناء اجتيازهم النهر .

تابعوا المرور .

جاءت الإشارة . سُمع صفيح مسترسل وبدأ تبادل إطلاق النار بعيداً هناك ، حيث ذهب " لا پيرآ " .

استمر إطلاق النار بعد ذلك هنا .

كانت المهمة فى غاية السهولة . فقد كانوا يسدون بأجسادهم فتحات المزاغل ، تقريباً ، وكان هذا مثل التصويب عن كثب وجعلهم يغادرون الحياة إلى الموت فجأة دون أن يشعروا تقريباً بذلك .

استمر هذا وقتاً قصيراً . كالوقت المنصرم بين طلقة وأخرى . وسرعان ما خلت فتحات المزاغل التى تكفى إطلالة واحدة منها لرؤية من كانوا منحنيين وقد تكوّروا على الأرض وكأن أحداً مازال يطلق الرصاص عليهم هناك ، اختفى من كتبت له النجاة . ظهرُوا ثانية ، لكن فى مكان آخر .

أمسكنا عن إطلاق الدفعة الثانية من الرصاص .

صاح أحدنا : « يعيش " يدر و ثامورا " ! »

جاءت الإجابة من الجانب الآخر ، بصوت كالهمس : الغوث يا إلهى ! الغوث ! النجدة يا قديس " أتوتشا ! " .

مرّت الطيور . عبرت الأفق فوقنا ، متجهة نحو السربى ، أفواج السُّمان .

جاءنا الإطلاق الثالث للنار من الخلف . صدر منهم ، وجعلنا نثب إلى الجهة المقابلة من السور متخطين القتلى الذين قتلناهم .

بدأ بعد ذلك مشوار الفرار بين الأحراج .

كنا نحس بالرصاص يزمجر فى أعقابنا ، كما لو أننا سقطنا فوق أعشاش اليعاسيب ، ومن حين لآخر ، وكل مرة أكثر تواملا من سابقتها ، يستقر الرصاص فى منتصف واحد منا فيهبى على الأرض وعظامه تطقطق .

عدونا ، وصلنا إلى حافة الوهدة وتدلينا من هناك وكأننا نتساقط .

واصلوا إطلاق الرصاص . استمروا فى الضرب حتى بعد أن صعدنا - على أيدينا وأرجلنا - إلى الجانب الآخر ، مثل زبازب أفزعها اللهب .

« عاش الجنرال " بيترونيلى فلورس " ، يا أولاد ... ! » ، وصلتنا صيحاتهم مرة أخرى ، صيحات كالرعود تقافزت نحو قاع الوهدة .



انحنينا خلف الحجارة الضخمة المستديرة التى وصلنا إليها وأنفاسنا متقطعة من شدة الركض ، كنا ننظر وحسب إلى " يدرو ثامورا " مستفسرين بعيوننا عما جرى .

لكنه كان ينظر إلينا أيضاً دون أن يفتح فمه ، كأن الكلام قد نفذ من الجميع ، أو كأن ألسنتنا قد انعقدت مثل الببغاوات " البيروكس " ويشق علينا فك عقدها لتتفوه بكلمة .

ظل " يدر و ثامورا " ينظر إلينا . كان يعدنا بعينه ؛ بهاتين العينين المحمرتين بكاملهما وكأنهما لا تنطبقان أبداً ، كان يعدنا واحداً واحداً . كان يعرف عدد من كانوا هناك ، لكن بدا وكأنه ليس متأكداً ؛ لذلك كان يكرر العدّ مرات ومرات .

ينقص البعض : أحد عشر أو اثنا عشر رجلاً ، دون عدّ " لايرآ " و " تشيويلا " ومن رافقوهم ، يحتمل أن يكون " تشيويلا " قد ارتقى غصن شجرة وتمدد فوق بندقيته منتظراً انسحاب القوات الحكومية .

كان " لوس خوسيسوس " ، ولدا " لايرآ " ، هما أول من رفعاً رأسيهما ثم جسديهما بعد ذلك . راحا ينتقلان من موضع إلى آخر منتظرين سماع شيء من " يدر و ثامورا " . قال :

- هجوم آخر مثل هذا وسيفنوننا عن بكرة أبينا .

تحرك بلعومه ، في التوّ ، وكأنه يتلع ملء الفم شجاعة ليصبح فيهما : « أعرف أن أباكما لم يعد ، لكن اصبراً ، تحملاً قليلاً ، وسنبحث عنه » .

دوّت طلقة صادرة من هناك ، طار على إثرها سرب من العصافير على السفح المواجه لنا ، اتجهت العصافير نحو الوهدة وظلت تخفق بأجنحتها إلى أن اقتربت منا ؛ وعندما رأتنا أصابها الهلع فاستدرت متألفة بأشعة الشمس وعادت لتملأ بالصياح أشجار السفح قبالتنا .

رجع " لوس خوسيسوس " إلى مكانهما السابق وأقعا في صمت .

ظللنا هكذا طيلة ما تبقى من النهار . عندما جنّ الليل وصل
" تشويلا " وبرفقته واحد من « الأربعة » . أخبرانا أنهما قادمان من هناك
تحت ، من عند " لايدرا لىسا " ، لكنهما لم يستطيعا إفادتنا بشيء عن
القوات الحكومية : هل انسحبت أم بقيت متربصة هناك ؟ مما لاشك فيه أن
الهدوء يُطبق على المكان ، ومن حين لآخر ، كان يُسمع عواء الذئاب .

- أنت يا " ييتشون " ! - نادى على " يدرو ثامورا " - . أوكل
إليك ، أنت و " لوس خوسيسوس " ، مهمة الذهاب إلى " لايدرا لىسا "
للبحث . عن " لايرآ " . لو عثرتم عليه مقتولا ، ادفنوه . عليكم بفعل
الشيء نفسه مع الآخرين . أما الجرحى فاتركوهم فوق شيء مرتفع حتى
يراهم الهنود (الحمر) ؛ لكن لا تحضروا أحداً منهم .

- هذا ما سنفعله .

وذهبنا .

كانت الذئاب تعوى على مقربة منا عندما وصلنا إلى الاضطبل الذى
تركنا فيه خيولنا .

الآن لا توجد خيول ، بل حمار ضامر فحسب كان يعيش بالمكان قبل
مجيئنا ، لابد وأن القوات الحكومية قد استولت على ما خلفناه وراء
ظهورنا من خيول . عثرنا على بقية « الأربعة » خلف بعض الشجيرات ،

الثلاثة معا ، الواحد منهم فوق الآخر وكأنهم كؤموهم هناك ، رفعنا رءوسهم وهزرتها قليلا لنرى ما إذا كانت بأحدهم حياة ؛ لكنهم كانوا ميتين موتًا لا مرء فيه . وعلى حافة النهر وجدنا آخر وأضلاعه تطل من جلده وكأنهم أجهزوا عليه بالسيوف . مسحنا البقعة الغاصة بالأعشاب من أعلاها إلى أدناها وعثرنا على آخرين ، واحد هنا وآخر هناك ، أغلبهم داكن الوجه .

- لقد قتلوا هؤلاء غيلة - قال واحد من " لوس خوسيوس " .

تفرغنا بعد ذلك للبحث عن " لايرآ " ولم نحفل بغيره .

لا أثر له .

« لا بد وأنهم حملوه - قلنا لأنفسنا - . أخذوه معهم ليعرضوه على

الحكومة » ؛ ومع هذا ظللنا نفتش عنه في كل مكان ، بين القش . لم تكف الذئاب عن العواء ، ظلت تعوى طيلة الليل .

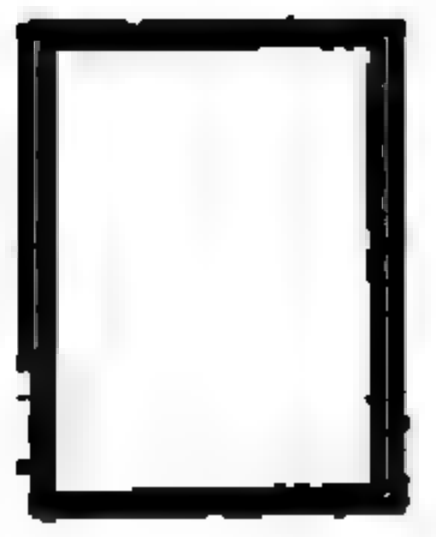


بعد أيام قليلة ، فى " أرميريا " ، عند عبورنا النهر ، التقينا من جديد بقوات " بيترونيو فلورس " . حاولنا التقهقر ، لكن بعد فوات الأوان ، كان مثل الإعدام رميًا بالرصاص ، أنطلق " يدرو ثامورا " أمامنا هامزًا ذلك الجواد المبرقش الربعة الذى لم أر مثيلا له طيلة

حياتى . تبعناه ، زرافات ، منحنين على رقاب الخيول . كانت مذبحة عظيمة ، بكل المقاييس ، لا أعى تفاصيل ما حدث لأننى غصت فى قاع النهر وفوقى حصانى المقتول ، وجرفنا التيار بعيداً ، نحن الاثنين ، حتى أوصلنا إلى مكان ضحل غاص بالرمال .

كانت تلك هى المواجهة الأخيرة لنا مع قوات " بيترونيلى فلورس " . لم نقاتل بعد ذلك . ولتحرى الدقة أقول إننا لا نقاتل منذ زمن طويل ، بل نحاول الخلاص بأجسادنا ، ولذلك قررنا العودة بما تبقى من رجال إلى التلّ للاحتماء به والفرار من المطاردة . أصبحنا فى نهاية المسطاف شرازم قليلة لإيهابها أحد ، لم يعد الآن لمثل هذا المشهد وجود : واحد يجرى مدعوراً وهو يصبح « احترسوا ، رجال " ثامورا قادمون " .

لقد عاد السلام ليرفرف بجناحيه على السهل الكبير .



لكن لن يستمر هذا لوقت طويل .

مضى ما يقرب من الثمانية أشهر ونحن محتشمون بمخبأ وادى « توثين » الضيق العميق ، حيث يتعثر نهر " أرميريا " لساعات عديدة قبل أن يهوى مرتطمًا بشطآنه . ظللنا ننتظر مرور الأعوام لنعود إلى العالم بعد ذلك ، عندما ينسانا الناس . أخذنا نربى الدواجن

ونصعد الجبل من حين لآخر بحثًا عن الوعول . كنا خمسة ، تقريباً أربعة ،
لأن واحداً من " لوس خوسيوس " أمسكت بساقه غرغرينة من جرّاء الطلقة
التي أصابوه بها أسفل مؤخرته ، عندما هاجمونا من الخلف .

كنا هناك ، حيث بدأ الإحساس بعدم الفائدة يتسلل إلى قلوبنا ، ولو
لم نكن متأكدين من تعليقهم لنا على أعواد المشانق لسلمنا أنفسنا
واسترحنا ، وبينما نحن على هذه الحال ، ظهر المدعو
" أرمانثيو ألكالا " ، ساعى بريد " " يدر ثامورا " .

عند انبلاج الصباح ، ونحن نتهياً لتقطيع أوصال إحدى البقرات ،
سمعنا صغير القرن ، كان قادماً من مسافة بعيدة للغاية ، باتجاه السهل .
سمعناه ثانية بعد مرور وقت قصير ، كان مثل حوار الثور : حاد في
البداية ، أجش بعد ذلك ، ثم حاداً مرة أخرى ، كان الصدى يُرجّعه
ويطيله أكثر وأكثر ويقذف به إلى جوارنا هنا ، إلى أن يخمد في النهاية
خبر النهر .

كانت الشمس على وشك البزوغ عندما استبان " ألكالا " هذا وظهر
من بين نباتات العرعر .

كان يضع على محفة ذات عجلتين خراطيش عيار « ٤٤ » وعلى متن
جواده يحمل بالعرض حقيبة محشوة بالبنادق .

ترجل من على فرسه ، وزّع علينا البنادق ثم أغلق الحقيبة على الباقي
منها .

· إذا لم يكن لديكم ما تفعلونه من اليوم إلى الغد ، فعليكم بالتهيؤ للرحيل إلى « سان بوينا بيتتورا » . « پدرو ثامورا » ينتظركم هناك . وحتى تكملوا استعداداتكم سأترككم للبحث قريباً من هنا عن عائلة « زاناتس » . سأعود بعد ذلك .

عاد في اليوم التالي قبيل الغروب . بالفعل ، كانت عائلة « زاناتس » معه ، كانت وجوههم تلمع بالدكنة بين ألوان الغروب الرمادية . كان يرافقهم ثلاثة لا نعرفهم .

- سنحصل على جياذ في الطريق - قال لنا .

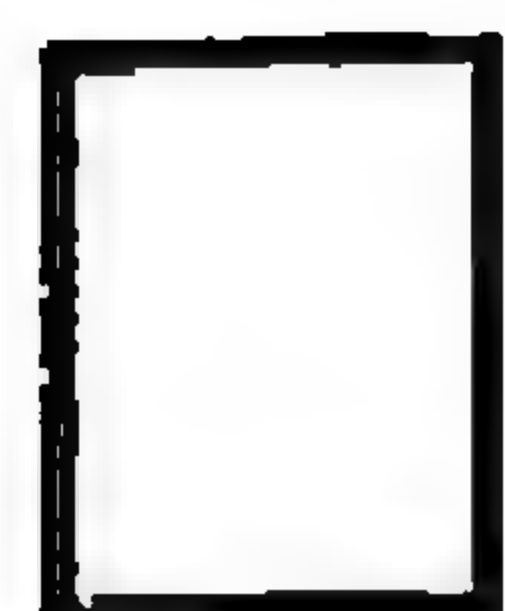
وتبعناه .

قبل الوصول إلى « سان بوينا بيتتورا » بكثير شاهدنا أكواخ مربى الماشية وهي تحترق ، كانت ألسنة اللهب تتصاعد عالياً من عنابر الغلال كما لو كانت النار قد أضرمت في مستنقعات زيت سريع الاشتعال ، كانت الشرارات تتطاير وتنعقد في ظلمة السماء مشكلة سحباً كبيرة مضيئة .

واصلنا تقدمنا ، مهتدين بأضواء « سان بوينا بيتتورا » ، كما لو أن يداً خفية تدفعنا إلى هناك لتقضى على من بقى منا .

قابلنا على مشارف المدينة فرساناً يأتون خيلاً على صهوات خيول شُدت إلى مقدمة سروجها حبال ؛ بعضها يجرجر رجالاً مقيدون يحاولون متابعة الخيول على أيديهم ، والبعض الآخر يجرجر رجالاً سقطت أيديهم إلى جوارهم وورءوسهم متدلّية . شاهدناهم يمرون . تبعهم بعد ذلك « پدرو ثامورا » وخلق كثير على ظهور الجياذ ، أناس كثيرون لم نعهد لكثرتهم مثيلاً من قبل . تملكنا الحبور .

من لا يملكه السرور وهو يتخيل اجتياز تلك الصفوف للسهل الكبير
مرة أخرى ، كما كان يحدث في الأزمان الهائلة الغابرة ! ومن ينسى
البداية ! عندما انشقت الأرض عنا مثل زهور المناطق الحارة الناضجة وقد
أذرتها الرياح لتشيع الرعب في كل الأرجاء المحيطة بالسهل . مضى زمن
كنا فيه هكذا ويبدو أنه يعود من جديد .



نزلنا كالصاعقة على " سان پدرو " . أضرمنا فيها النيران وولينا
وجوهنا شطر " بيتكال " .

جرى هذا ومحصول الذرة على وشك الحصاد وأعواده تشتت بفعل
الرياح التي تهب على السهل في ذلك الوقت من العام . وهكذا كان من
دواعي السرور رؤية النيران وهي تترج بين مراعى الخيول ؛ رؤية السهل وقد
تحول معظمه إلى جذوة خالصة والدخان يتلوى فوقها ؛ ذلك الدخان الذي
يتضوع برائحة العسل والقصب ، ذلك لأن اللهب كان قد امتد أيضاً إلى
مزارع القصب .

ومن بين الدخان كنا نخرج ، كالأشباح ، والوجوه يعلوها الهباب ،
نسوق أمامنا قطعان الماشية من هنا وهناك ونجمعها فى مكان ما ونسلخ
جلودها بعد ذبحها ، تلك كانت تجارتنا : جلود الماشية .

هذا لأن « يدرؤ ثامورا » قال لنا : « سنمول هذه الثورة بأموال
الأغنياء ، سيغطون بأموالهم ثمن السلاح ونفقات هذه الثورة ، وبالرغم
من أننا نفتقر حتى الآن لراية وشعار نحارب من أجلهما ، إلا أنه يجب
علينا الإسراع فى جمع ما تصل إليه أيدينا من أموال ، لكى نكون على أتم
الاستعداد عندما تأتى قوات الحكومة » . هذا ما قاله لنا .

وعندما عادت قوات الحكومة أخيراً أخذت تنزل بنا الإصابات كسابق
عهدنا ، وإن لم يكن بالسهولة نفسها . يرى الآن من عدة فراسخ أنهم
يهابوننا .

لكن الخوف منهم كان يملكنا أيضاً . كان من السهل ملاحظة كيف
كانت حلوقنا تغص بأرواحنا بمجرد سماع الجلبة التى تحدثها تشكيلاتهم أو
سماع حوافر جيادهم وهى تركض فوق حجارة أى طريق حيث نكمن
للإيقاع بهم . عند رؤيتهم وهم يمرون أمامنا ، كان يتأبنا إحساس بأنهم
ينظرون بطرف خفى إلينا وكأنهم يقولون لنا : « راثحتكم تزكم أنوفنا ،
وما نفعله ليس إلا مناورة ومداراة » .

وكثيراً ما كان يصدق هذا الإحساس ، فبمجرد أن نبدأ فى إطلاق
النار عليهم نجدهم استلقوا على الأرض ، مترسين بخيولهم ويقاوموننا من
موضعهم ، إلى أن يضرب آخرون حولنا الحصار دون أن نشعر

بهم ، ويتلقفوننا مثل دجاج محبوس بالحظائر . أدركنا من وقتها أننا لن نستمر طويلا على هذا المتوال مهما كانت كثرتنا .

هذا لأن من نواجههم الآن من رجال ليسوا كرجال الجنرال « أوربانو » الذين أرسلوهم إلينا فى البداية وكانوا يفزعون من مجرد الصباح والتلويح بالقبعات ؛ أولئك الرجال الذين أُخرجوا من ديارهم قسراً ليحاربونا وكانوا لا يجرون علي مهاجمتنا إلا إذا تأكدوا من قلة عددنا . لقد فنى هؤلاء ولم يعد لهم أثر ، جاء بعدهم آخرون فى منتهى السوء . الآن يقودهم « أولاتشيا » ومعه أناس متمرسون يمتازون بالصبر والتحمل ؛ علاوة على رجال ذوى بأس جاءوا من « تيوكاليتشى » مُطعمين بهنود « تيهوانس » : هنود شعث الرءوس ، معتادين على الصيام لعدة أيام وبإمكانهم فتح عيونهم ساعات كاملة دون أن تطرف للتجسس على الواحد ، منتظرين ظهور رأسه ليسكنوا فيها إحدى رصاصات عيار « ٣٠ x ٣٠ » الطويلة التى تهشم المخ وكأنها تحطم غصناً متعفنًا .

ودون الحاجة إلى تعليل يمكن القول إن الانقضاض على أكواخ مربى القطعان كان أسهل بكثير من عمل الكمائن للقوات الحكومية . لهذا السبب تفرقنا ، وبزمرة من الأفراد هنا وأخرى هناك أنزلنا بهم أضراراً لم يسبق لها مثيل . لم نكن نستقر أبداً فى مكان بل نهول من موضع لآخر مسلمين أقدامنا للريح مثل بغال سريعة العدو .

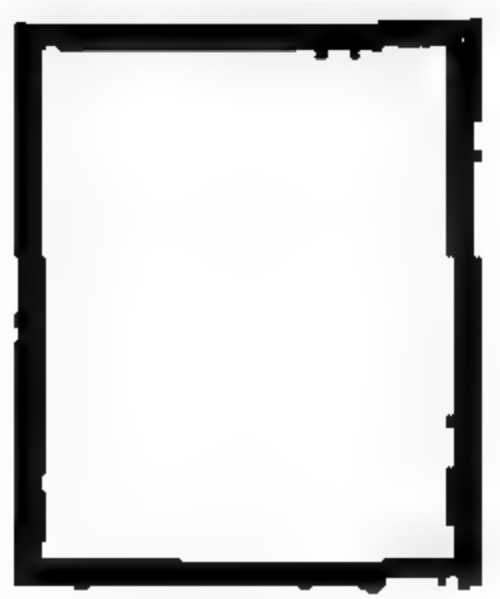
وهكذا ، فبينما كان بعضنا يشعل الحرائق فى بيوت وأكواخ مربى القطعان فى « خاثمين » ، كنا نسقط كالدواهى على ثكنات الجند

ونحن نخرج أفرع الشجر لإيهام الناس بكثرتنا ، ومتخفين بين مانشيره من غبار وصياح .

كانت المباغته من نصينا ، ولجنودهم الترقب والانتظار .

قضينا زمناً ونحن نتقل من مكان لآخر ، إما إلى الأمام أو إلى الخلف ، كالتأرجحين . من هنا كانت تُرى النيران المضرمة بالجبل ، حرائق ضخمة كما لو كانت النيران قد أمسكت بالأرض الفضاء . من هنا كنا نشاهد ألسنة اللهب وهي تتصاعد طوال الوقت من الحظائر والأكواخ وأحيانا من القرى الكبيرة مثل « توثاميليا » و « ثاپوتيتلان » وتحيل الليل إلى نهار ساطع ، كان رجال « أولاتشيا » يغادرون ثكناتهم ويغزون السير في اتجاه تلك الحرائق ، وعندما يصلون إليها ، يشاهدون « تولوليمسيا » وهي تحترق خلفهم .

كان مشهداً يبعث على السرور : مغادرة الأوكار فجأة بعد انطلاق الجند المتحمسين للقتال ، ورؤيتهم وهم يجتازون السهل الخاوي ، دون عدو يواجهونه ، وكأن البحر السحيق بلا قرار ، ذلك السهل المحفوف بالجبال كالحدوة الكبيرة ، قد انشق وابتلعه .



حرقنا « كواستيكوماتى » واستمتعنا هناك بمشاهدة ما تبقى فيها من رجال وهم يُقتلون على شاكلة الثيران فى حلبات المصارعة . كان « يدرو ثامورا » شديد الولع بلعبة الثور هذه .

كانت القوات الحكومية قد غادرت « كواستيكوماتى » فى طريقها إلى « أوتلان » لتعقب العصابات التى تعشش ، طبقاً لاعتقادهم ، فى مكان يقال له « لاپوريفيكاثيون » . كنا قد تركنا هذا المكان عندما اتجهوا إليه ، ومن ثم فقد كانت « كواستيكوماتى » متهيئة لاستقبالنا .

سمحت لنا الظروف هناك بتقليد مصارعة الثيران . الثمانية جنود الذين تركتهم القوات الحكومية ، علاوة على الصّراف والقائم بالأعمال الإدارية (الإدارى) ، كفوا ليومين مصارعة .

أقمنا سوراً خشبياً مستديراً مثل الذى يُعد لحبس العنزات ، لاستخدامه كحلبة ، جلسنا على السور لنمنع خروج المصارعين الذين كانوا يجرون بسرعة فائقة عندما يرون الموسيقى الذى يجرى وراءهم به « يدروثامورا » ويريد نطحهم به .

صرع الجنود الثمانية فى أمسية ، والاثنان الآخران فى الأمسية التالية ، الوحيد الذى احتاج صرعه لجهد كبير هو الصّراف الطويل والنحيف مثل الرمح السمهرى ، ذلك لأن مجرد ميله إلى جانب كان كفيلاً بتفادى النطحة ، أما الإدارى فلم يصمد لأكثر من جولة ، كان ربع القامة أحرقاً ولم يلجأ لأية حيلة كي يتفادى الموسيقى ، مات صامتاً صمتاً مطبقاً ، دون أن تصدر عنه حركة وكأنه كان يتمنى هذه الميتة ، لكن الصراف تطلب جهداً .

كان « پدرو ثامورا » قد أعار كل واحد من المصارعين مدرعة سميكة وثقيلة ، ولهذا السبب استطاع الصراف أن يناور بمهارة نطحات الموسيقى ، فقد استفاد جيداً من المدرعة إذ كان يحركها برشاقة أمام النطحات المسددة إليه مباشرة ، وبهذا الشكل راوغ « پدرو ثامورا » حتى أتعبه ، كان يُلاحظ بوضوح مدى التعب الذى ألّم به من ركضه العشوائى نحو الصراف ومن عدم إصابته إلا ببعض الخدوش ، عندئذ نفذ صبره ، ترك الأمور تسير على ما هى عليه ، وفجأة ، وبدلاً من النطح المواجه كما يفعل الثيران ، أبعد المدرعة بيد وبالأخرى التى تمسك الموسيقى طعنه طعنة قاتلة . بدا وكأن الصراف لم يتنبه لما حدث لأنه ظل يجرى بعدها لفترة وهو يهز المدرعة إلى أعلى وإلى أسفل وكأنه يهش مجموعة من الزنابير ، لم يمسك عن الجرى إلا بعد أن شاهد الدم وهو ينبثق من وسطه ، انتابه الهلع وحاول بأصابعه سد الفتحة التى يخرج منها فى فوارة ذلك الشيء الملون ليتركه صاحب اللون ، بقى بعد ذلك ممدداً وسط الحلبة وهو ينظر إلى الجميع ، وظل هكذا إلى أن قمنا بشنقه ، لأننا لو لم نفعل لتأخر موته كثيراً .

ومن بعدها ، لم يتخل « پدرو ثامورا » عن ممارسة لعبة الثوره هذه كلما سنحت له الفرصة .



فى ذلك الوقت ، كان معظمنا من المناطق المتاخمة ل « خاليسكو » ، من بداية موطن « پدرو ثامورا » إلى مايليه ؛ انضم إلينا بعد ذلك أناس من مناطق مختلفة :

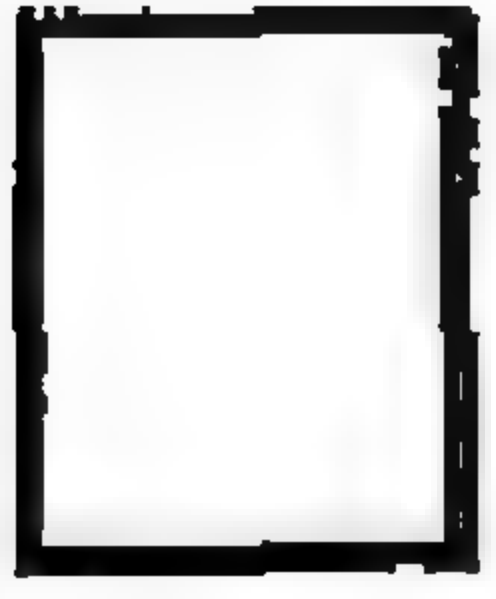
الهنود « الجويروس » من « ثاكو ألكو » و « ثانكو نثوتس » أصحاب الوجوه المماثلة للبن العاقد ، كما انضم إلينا آخرون من المناطق الباردة التي تسمى « ماثاميلتا » وعباءاتهم الطويلة لا تفارق أجسادهم طوال الوقت وكأن الثلوج أتت وراءهم ولا تكف عن التساقط فوقهم . كان هؤلاء لا يحسون بالجوع في الأجواء الدافئة ، ولذا كلفهم « يدرو ثامورا » بالتمركز في منطقة البراكين حيث لا توجد سوى الرمال الخالصة والحجارة الملساء .

لكن الهنود « الجويروس » سرعان ما أحبوا « يدرو ثامورا » ولم يرضوا بديلاً لصحبته ، كانوا ملازمين له ، مثل ظله ، ويلبون جميع أوامره ؛ لدرجة أنهم كانوا أحياناً يقومون بختف أجمل ما في القرى من فتيات ويقدمونهن لـ « يدرو ثامورا » .

مازلت أتذكر بوضوح كل شيء ، تلك الليالي التي كنا نغضيها بالجبل ، نغز السير دون إحداث ضجيج والنعاس ملء جفوننا ، فارين من ملاحقة القوات الحكومية التي تقتفى آثارنا . ما زلت أتخيل « يدرو ثامورا » متلفعاً بعباءته ولا يكف عن إصدار التعليمات لنا حتى لا يتأخر أحد عن الركب :

- أنت ، يا " ييتاسيو " ، أهمز هذا الجواد وأنت ، يا " ريسنيدس " ، لا تتم ، أنا بحاجة للتحدث معك !

نعم ، كان يعتنى بنا جميعاً . كنا نسير فى جوف الليل والنحاس
يداعب جفوننا وراءوسنا فارغة من الأفكار ؛ لكنه كان مشغولاً بنا ، يحدثنا
كى نستيقظ ونرفع هاماتنا . كنا نحس بعينه المفتوحتين اليقظتين ، اللتين
لا يخامرهما النحاس ، المعتادتين على الرؤية فى جوف الليل وعلى التعرف
علينا فى الظلام الخالك . كان يعدنا جميعاً ، واحداً واحداً ، كمن يعد ما
بكيسه من نقود ، ثم يسير إلى جوارنا . كنا نسمع وقع حوافر جواده
ونعرف أن عينيه على حذر دائم ؛ لهذا كنا نتبعه كالعميان ، صامتين ،
دون أن تصدر عن فرد منا شكوى ، لا من البرد ولا من النحاس .



لكن الأمور ساءت وأخذت فى التدهور السريع منذ حادثة قطع سكة
القطار عند المطلع المؤدى إلى "سايويلا" وإخراجه عن القضبان .
لو لم يحدث هذا ، ربما ظل باقياً على قيد الحياة كل من " پدرو
ثامورا " و " تشيويلا " و " التشينو أرياس " وكثيرين غيرهم ، ولربما
استمرت الثورة فى طريقها الصحيح ، لكن " پدرو ثامورا " أهان الحكومة
وأثار حفيظتها بمهاجمة قطار " سايويلا " .

لا يفارق مخيلتى إلى الآن منظر ألسنة اللهب وهى تتصاعد من الحفرة
المكدسة بالموتى ، كانوا يكومونهم بمجارف ويدحرجونهم كجذوع الأشجار
إلى أسفل المطلع وعندما تعلو الكومة يصبون عليها البترول ويضرمون فيها
النيران . كانت أجنحة الرياح تحمل النتن إلى مسافات بعيدة ، وظل الجو
لأيام طويلة معبقاً برائحة اللحوم الأدمية المشوية .

لم نكن نعى تماماً أبعاد ما نحن مقبلون عليه حتى قبل وقوع الواقعة
بقليل ، كنا قد رشقنا مسافة كبيرة من السكة الحديد بقرون وعظام
الأبقار ، وللزيادة فى الحيلة فتحنا القضبان فى النقطة التى سينعطف
عندها القطار ، فعلنا هذا وانتظرنا .

كان السحر قد بدأ ينثر ضيائه على الأشياء ؛ وعلى أسطح عربات
القطار تُرى بوضوح تجمعات من البشر . كان يُسمع غناء بعضهم ،
أصوات لرجال ونساء ، مروا أمامنا ولا تزال تلفهم غلالة من سواد
الليل ، لكننا استطعنا تمييزهم : جنود بكامل استعداداتهم . انتظرنا . لم
يتوقف القطار .

كان بمقدورنا إصابتهم برصاصنا إصابات مباشرة ، لأن القطار كان
يسير متمهلاً ويلهث وكأنه يريد صعود المطلع معتمداً فقط على مجهوده
الذاتى ، بل كان بإمكاننا تجاذب أطراف الحديث معهم حيناً من الوقت .
لكن الأمور لم تكن تمضى فى هذا الاتجاه .

بدءوا يتبهبهون لما يحدث عندما أحسوا بأرجحة العربات وبرجرجة
القطار وكان أحداً يهزه بعنف . بعد ذلك نكصت القاطرة على عقبيها ،

مسحوبة وهي خارج القضبان بثقل العربات الغاصة بالبشر . كانت القاطرة تطلق صفيرا أجش ، طويلا وحزينا ، لكن لم يمد لها أحد يد العون . استمرت فى التراجع ، مجرورة بذلك القطار الذى لا يرى له آخر ، إلى أن خانتها الأرض تحتها فمالت على جنبها وهوت فى قاع الوهدة . وفى لمح البصر تبعثها العربات ، واحدة واحدة ، وانكفأت كل منها فى مكانها هناك . أطبق الصمت بعد ذلك وكأن الجميع ، بما فيهم نحن ، قد أخرسه الموت .

هذا ما حدث .

عندما بدأ يخرج من بقى منهم حيا من بين ركاب العربات ، انسحبنا والرعب يعصف بنا .

اختبأنا بضعة أيام ؛ لكن قوات الحكومة أتت لتقتلنا من مخابئنا . لم يتركونا ننعى بالهدوء لحظة ؛ حتى ولو من أجل مضغ قطعة من قديد . جعلوا ليلنا ونهارنا سواء ، وصادروا ساعات نومنا وطعامنا . أردنا الاحتماء بوادى « توثين » الضيق العميق ؛ لكن الحكومة وصلت إليه قبلنا . سرنا بمحاذاة البركان ، وتسلقنا الجبال الشاهقة الارتفاع وهناك ، فى ذلك المكان المسمى « طريق الرب » ، وجدنا رصاصاتهم بانتظارنا . كنا نحس بسخونة الهواء المحيط بنا من جراء الرصاص المتساقط علينا فى دفعات مضغوطة ، لدرجة أن الحجارة التى كنا نحتمى بها تبعثت أشلاء كما لو كانت من حلوى . عرفنا بعدها أن بنادقهم التى كانت تطلق الرصاص لم تكن بنادق بل مدافع رشاشة إذا أصابت دفقة منها جسد إنسان

جعلته كالمصفاة . وقَر فيأذهاننا حينذاك أن أعدادهم لا تحصى ، بالآلاف ،
وأن ليس أمامنا من سبيل سوى العدو أمامهم .

جسرنا قدر استطاعتنا . فى « طريق الرب » تخلف " تشيويلا " خلف شجرة قطلب والعباءة ملفوفة حول عنقه وكأنه يحتوى من البرد . ظل يحدق فينا ، واحداً واحداً ، أثناء مرورنا عليه ليوزع على كل واحد منا نصيبه من الموت ، بدا وكأنه يضحك علينا ، بأسنانه المتفرقة الملتطخة بالدم .

تفرقنا فى مجموعات صغيرة : جنى ثمار التبعر كثيرون ، وأضير به آخرون غيرهم ، كان من النادر ألا نرى واحداً منا على قارعة إحدى الطرق معلقاً من قدميه فى عمود طويل ، ويستمر هكذا ردىاً من الزمن ، متديلاً مثل جلد غير مدبوغ . كانت العقبان تأكل لحومهم وأحشاءهم من الداخل ولاتركها إلا وهى هياكل عظيمة ، وبما أنهم كانوا يعلقونهم على ارتفاع كبير فقد كانوا عُرضة لأرجحة الرياح أياماً طويلة ، وربما شهوراً ، وأحياناً حتى لايتبقى من المُعلق سوى بنطاله وكأنهم علقوه ليجف هناك . حينما كانت عين الواحد تقع على هذه المشاهد يحس بجدية الأمر ودنو الأجل .

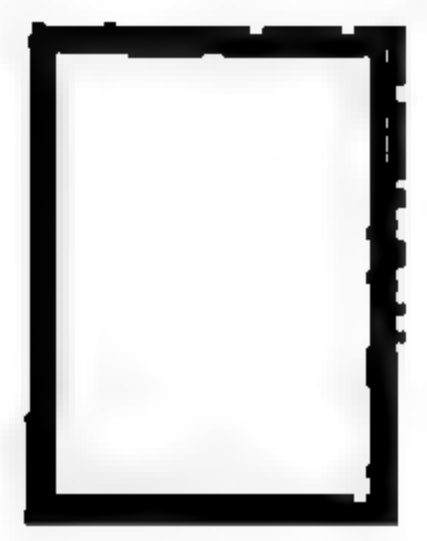
استطاع البعض الفرار بجلودهم إلى التلّ الكبير حيث كنا نرحف كالأفاعى لنقضى الوقت فى التطلع إلى السهل ، إلى تلك الأرض الجائمة هناك حيث وُلدنا وعشنا ، وحيث ينتظروننا الآن ليجهزوا علينا . أحياناً كان الرعب يملكنا من ظلال الغمام .

لو أتيتحت لنا الفرصة لذهبنا لمن بيدهم الأمر عن طيب خاطر لإعلان التوبة وطلب العفو حتى يتركونا فى سلام ؛ لكن الجرائم الكثيرة التى اقترفناها من جهة ، وخبث الناس وسوء طويتهم من جهة أخرى ، لم يتركنا لنا صديقاً واحداً نلجأ إليه ، حتى الأموال المعلقة على حلفائنا السابقين ، الهنود الموجودين على مقربة ، هنا فى الأعلى ، قد تبخرت هى الأخرى بعد أن قلبوا لنا ظهر المجن . ينسبون إلينا الفتك بحيواناتهم . زودتهم الحكومة بأسلحة كثيرة وأرسلوا إلينا من يحذرنا من الاقتراب منهم لأنهم لن يترددوا فى قتل من يلمحونه .

« لانريد رؤيتكم ؛ لكن لو رأيناكم لن يعصمكم منا عاصم » ،
أوصلوا لنا هذه الرسالة .

وبهذا الشكل ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، لم يبقَ لنا ولاحتى بضعة الأمتار التى نحتاجها لنرقد فيها أمواتاً .

لهذا قررنا ، نحن المتبقين ، التفرق ، وعلى كل واحد أن يكتوى (بحياته) اتجاهه الخاص .



أمضيت مع "پدرو ثامورا" خمس سنوات . بأيام هنيئة ؛ وأخرى مريرة ، اكتملت السنوات الخمس ، لم أره بعدها ، يقولون إنه ذهب إلى « مكسيكو » (العاصمة) وراء امرأة وهناك قتلوه . انتظرنا عودته ، ظهوره أحد الأيام لنخوض معه غمار الثورة من جديد ؛ لكننا تعبنا من طول الانتظار . قتلوه هناك . أخبرني رفيق بالسجن بتمكنهم منه .

غادرت السجن من ثلاث سنوات مضت . عاقبوني بتهم كثيرة ؛ ليس من بينها مؤامرة "پدرو ثامورا" في ثورته ، لم يعرفوا هذا . قبضوا على لجرائم أخرى ، من بينها عاداتي السيئة في اختطاف الفتيات . تعيش معي الآن إحداهن ، ربما أفضل امرأة بين نساء العالم ، الموجودة هناك ، خارج قضبان السجن ، منتظرة ، لا أحد يعلم منذ متى . إطلاقهم سراحى .

- " بيتشون " ، أنا في انتظارك - قالت لى - . انتظرتك لسنوات طويلة !

تخيلت حيثذ أنها تنتظرني للانتقام منى ، طَفَّت صورتها على مخيلتى ، وفيما يشبه أحلام اليقظة تذكرت من تكون ، عاودنى الإحساس بالماء البارد المتساقط من العاصفة على « تلكمپانا » ، تلك الليلة التى داهمنا فيها القرية وسويناهما بالأرض ، كنت شبه متيقن من أن أيبها هو ذلك الشيخ القانى الذى قتلناه ونحن فى طريقنا إلى الخروج ؛ ذلك الذى أطلق أحدا على رأسه رصاصة بينما كنت أضع ابنته عنوة على سرج حصانى وأضربها ضربات غير مدمية على رأسها

لكى تهدأ وتكف عن عضى . كانت صبية فى الرابعة عشرة من عمرها ،
ذات عينين جميلتين ، وكلفنى ترويضها عناء وجهداً كبيرين .

- معى ابن لك - قالت لى بعد ذلك - . إنه هنا .

وأشارت بإصبعها إلى صبى فارغ الطول قلق العينين .

- اخلع القبعة لكى يراك والدك .

ونخلع الصبى القبعة ، كان مثلى تماماً وبنظرته شىء من الشر ، ورثه
بالتأكيد عن أبيه .

- يسمونه أيضاً " ييتشون " - عادت المرأة لتقول لى ، تلك التى هى
زوجتى الآن - . لكنه ليس قاطع طريق ولا قاتلاً ، إنه طيب المنبت .
طأطأت رأسى .

قل لهم يتركوني أعيش

- "خوستينو" ، قل لهم يتركوني أعيش . هيا ، قل لهم هذا ،
رحمة بي ، قل لهم يحسنوا إلى ويتركوني .
- لا أستطيع . هناك جاويز لا يريد سماع شيء عنك .
- اجعله يسمعك ، استخدم شطارتك معه وأخبره أنه إذا كان المقصود
تخويفه فقد تعذب بما فيه الكفاية ، قل له يفعل هذا ابتغاء الأجر من
الله .
- الأمر لا يتعلق بإثارة الفزع ، يبدو أنهم مصممون على قتلك ، ولا
أريد العودة إليهم ثانية .
- جرب مرة أخرى . مرة أخرى فقط . ولنتظر ما ستسفر عنه
محاولتك .
- لا ، لا أرغب في الذهاب . أنا ابنك ، وإذا ترددت عليهم كثيراً
قد يعرفون من أنا ويقررون ساعتها إيرادى المورد نفسه . الأفضل ترك
الأمور تمضي على ما هي عليه .
- هيا ، يا "خوستينو" . توسل إليهم أن تأخذهم بعض الشفقة
بي . قل لهم هذا لا أكثر .
- جزء "خوستينو" على أسنانه وهز رأسه قائلاً :
- لا .

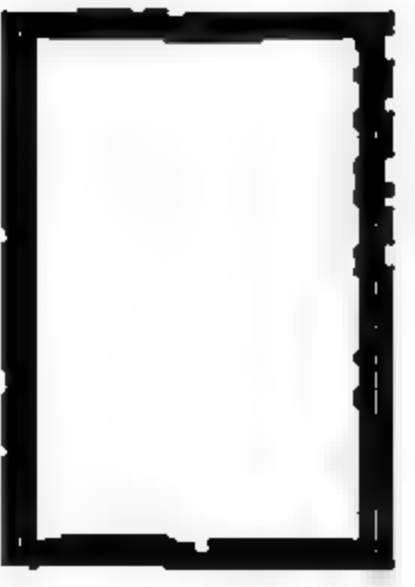
وظل يهز رأسه شوطًا طويلا .

- اطلب من الجاويش مقابلة « الكولونيل » . وأخبره بمدى ضعفى وكبر سننى ، وأنتى لم أعد أصلح لشيء . ماذا سيجنى من وراء قتلى ؟ لاشيء البتة ، لابد وأن له قلبًا ، توسل إليه أن يعفو عني ابتغاء المثوبة من الله .

نهض "خوستينو" من على حافة الخوض الحجري الذى كان جالسًا فوقه واتجه نحو باب الحظيرة . عاد أدراجه بعد ذلك ليقول :

- أنا ذاهب ، لكنهم لو أعدمونى أنا الآخر ، من سيتكفل عندئذ برعاية زوجتى وأولادى ؟

- العناية الإلهية ، يا "خوستينو" . ستتكفل بهم . لا تشغل بالك بشيء سوى الذهاب إلى هناك ولا تفكر فى غير ما يمكن أن تصنعه من أجلى . هذا هو الأمر العاجل .



أحضروه وقت طلوع الفجر . والآن تكشف النهار وما زال هناك ينتظر ، مربوطًا فى آلة خشبية . كان مضطربا . حاول أن يغفو قليلا لينعم بالهدوء ، لكن النوم كان قد طار من عينيه ، كما تلاشت رغبته فى الطعام . لم تكن له رغبة فى شيء ، فيما عدا البقاء على قيد الحياة . بعد أن تيقن من دنو أجله ، تملكته رغبة عارمة فى الحياة لا يحس بمثلها إلا من بُعث من الأجداث حديثًا .

من كان يظن أن ذلك الحادث الكريه الذى عفى عليه الزمن وابتلعه النسيان ، حسب اعتقاده ، سيعود ليطل برأسه من جديد ، عندما دفعته الظروف ليقتل "دون لوبى" . لم يقتله شططا كما يدعى أهل « أليما » ، بل كانت لديه الدوافع والأسباب . مازال يذكر ما حدث .

كان « دون لوبى تيريروس » صاحب إقطاعية " لا پويرتا دى بيدرا " وفوق هذا أباه من العماد . ولهذا السبب اضطر « خوبشيو نابا » لقتله ؛ لكونه صاحب " لا پويرتا دى بيدرا " ولأنه أيضاً أبوه من العماد ، ومع هذا منع ماشيته من المرعى .

تحمّل فى البداية ، مراعاة لما بينهما من أواصر الصلة ، لكنه بعد أن حلّ الجفاف ورأى ماشيته تتساقط واحدة بعد أخرى من فرط الجوع الذى ألهبها بسياطه ، وأبوه من العماد مازال يركب رأسه ويضنّ عليها بعشب خيوله ، قرر وقتها إزالة سياج المرعى أمام كبة حيواناته الشديدة الهزال لكى تأكل حتى التخمة . لم يعجب هذا "دون لوبى" وأمر بإعادة السياج إلى ما كان عليه ليعود "خوبشيو نابا" ليفتح فيه من جديد إحدى الثغرات . وهكذا ، ظلت الثغرة تُغلق بالنهار لتفتح بالليل بينما ينتظر القطيع هناك متربصاً بجانب السور ؛ ذلك القطيع الذى كان يستمد من قبل مقومات وجوده معتمداً فقط على شَم رائحة العشب دون التمكن من الوصول إليه

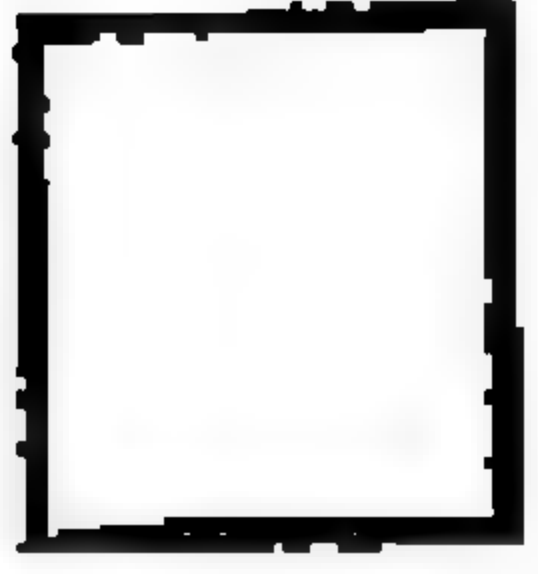
احتدم النزاع بينهما ولم يصلا لاتفاق .

إلى أن حذّره "دون لوبى" ذات مرة :

- اسمع يا "خوبنثيو" ، لو اقتحمت إحدى مواشيك المرعى سأقتلها

أجابه :

- ليس ذنبى أن تبحث الحيوانات عن الجانب الذى يريحها . إنها لاتفقه شيئاً ؛ ولذا أحذرك من التعرض لها .



« وقتل لى عجلا من العجول .

فى شهر مارس يكون قد انقضى على هذا خمس وثلاثون سنة ،
لأننى أمضيت الشهر التالى له (أبريل) هائماً على وجهى فى الجبل فراراً
من العدالة . ولم تكف البقرات العشر التى أعطيها للقاضى ، ولاقيمة
رهن دارى التى أخذها مقابل مغادرتى السجن . وكل ما تبقى لى بعد ذلك
دُفع رشوة للكف عن مطاردتى ، وبرغم هذا لم يكفوا عن ملاحقتى ،
وأُتيت مع ابنى للعيش فى قطعة الأرض الصغيرة التى كنت أملكها فى
" يالودى بينادو " . وكبر ابنى وتزوج من " إجنائيا " وأنجب ثمانية أولاد
. وبما أن الشيخوخة قد أدركتنى فلا بد وأن تكون الحادثة قد طواها
النسيان ، لكن ما يحدث معى الآن يؤكد أنها لم تُنسَ .

وحسبت حيثذ أن المائة " بيزو " المتبقية كفيلة بتسوية المسألة . المرحوم « دون لوبى » كان وحيداً ، ولم تكن معه سوى زوجته وطفلين يحبوان ، الأرملة ماتت هى الأخرى حسرة على زوجها ، واحتضن الطفلين أقارب لهما يعيشون بعيداً ، ولذلك فإن الشعور بالخوف منهما لم يكن له مبرر على الإطلاق .

لكن الآخرين لم ينسوا أننى مطلوب من العدالة واستغلوا ذلك فى إرهابى ومواصلة ابتزازى .

إذا حلّ غريب بالقرية يسارعون بإنذارى :

- خذ حذرك ، يا "خوبتثيو" ، بالقرية غرباء .

وعندئذ أخفّ بالخروج إلى الجبل ، وأتوارى بين أشجار القطلب وأظل أياماً أتغذى على الأعشاب والنباتات البرية . كنت أهرب أحياناً فى منتصف الليل كمن تلاحقه الكلاب . استمر هذا حياة بطولها ، لم يكن لعام أو اثنين ، بل لحياة بكاملها .

والآن جاءوا للبحث عنه ، بعد أن تلاشى الأمل فى ظهور أحد وتملكه اليقين فى نسيان الناس للحادث ، وأعتقد أنه سيقضى أيامه الأخيرة فى طمأنينة وراحة بال . « ستكون شيخوختى جواز مرورى إلى الطمأنينة ، بسببها ستركوننى وشأنى » ، ظن هذا .

داعبه هذا الأمل حتى ملك عليه نفسه ، ولهذا شقَّ عليه استيعاب فكرة موته هكذا ، فجأة ، فى هذه المرحلة من العمر ، بعد أن جاهد كثيراً من أجل الفكاك من ربقة الموت ؛ بعد أن أمضى ربيع عمره

هائماً على وجهه من جهة لأخرى يجرجره الفزع ، وعندما ذبل جسده وتحول إلى جلد متغضن مدبوغاً بالأيام المريرة التي حكم عليه فيها بالهرولة للتخفى عن أعين الجميع .

وعلى سبيل الاحتياط ، ألم يصل به الأمر لحد ترك امرأته تهرب ؟ عندما أشرق عليه صباح ذلك اليوم بخبر فرار زوجته ، لم تدر حتى بخلده فكرة الخروج للبحث عنها ، تركها تهرب دون أن يتقصى مع من أو إلى أين حتى لا يضطر إلى الذهاب إلى القرية ، تركها تضع مثلما ضاع قبلها كل ما عنده دون أن يحرك ساكناً . لم يبقَ له شيء يهتم به سوى حياته ، ولن يدخر وسعاً في سبيل الحفاظ عليها ، لم يعد بإمكانه السماح لهم بقتله . ليس بإمكانه ؛ وخصوصاً الآن .

لكنهم أحضروه من هناك ، من " بالودي ينادو " ، لهذا الغرض بالذات . لم يكونوا بحاجة لشد وثاقه حتي يتبعهم . مشى باختياره مطوقاً بغلّ الخوف ليس إلا ، أدركوا أنه لا يستطيع الفرار منهم بذلك الجسد الفاتى ، وبهاتين الساقين النحيلتين مثل عصيتين جافتين ، والمكبلتين بالخوف من الموت . لقد كان ذاهباً لذلك المصير . ليموت . أخبروه بهذا .

من ساعتها عرف ما هو ماضٍ إليه ، وبدأ يحس بذلك الغثيان الذي كان يعتريه دائماً بمجرد رؤيته لشبح الموت يحوم حوله ، ويجعل الجذع يطلّ من عينيه ، ويورم فمه بالفصص المريرة التي كان عليه أن يتجرعها رغماً عنه ، بذلك الشيء الذي يُثقل قدميه بينما تتأرجح رأسه فوق عنقه ويدق قلبه بعنف بين ضلوعه . لا ، لا يمكن أن يستوعب فكرة قتلهم له .

لابد وأن يكون هناك بصيص من الأمل ، لم تُصادر بعد إمكانية وجود أمل ما . ربما يكونون قد أخطأوا ، ربما كانوا يبحثون عن "خوبثيو نابا" آخر وليس عن شخصه هو .

مشى صامتًا بين هؤلاء الرجال ، وذراعاه متهدلان إلى جواره . كان السّحر معتمًا ، بلا نجوم ؛ والرياح تهب على مهل ، محملة بموجات من التراب ، معبقة بتلك الرائحة التي تشبه البول المغلف بغبار الطرق . كانت عيناه ، اللتان لملتھما السنين ، تريان الأرض تحت قدميه بالرغم من الظلمة وهناك ، على الأرض ، كانت توجد كل حياته ، سبعون سنة من العيش فوقها ، من صرّها بكفيه ، من تذوقها مثلما يتذوق طعم اللحم ، ظل لفترة طويلة يحملق فيها ، مستطعمًا كل حفنة منها كما لو كانت المرة الأخيرة ؛ وقد كان شبه متيقن بأنها فعلا الأخيرة .

نظر بعد ذلك إلى الرجال الذين يسرون إلى جواره وكأأنه يريد أن يتفوه بشيء . كان سيطلب منهم إطلاق سراحه ، تركه لحال سبيله :

« لم أصنع سوءًا بأحد ، أيها الفتيان » ، كان سيقول لهم ، لكنه ظل صامتًا . « سأطلب منهم هذا بعد قليل » ، قال لنفسه . كان يتطلع إليهم وحسب . كان بإمكانه تخيلهم كأصدقاء ؛ لكنه أحجم ، لم يكونوا كذلك ، لم يكن يعرف أحدًا منهم ، كان يراهم إلى جواره ينحنون من وقت لآخر للاستدلال على الطريق وللتأكد من استمرارهم عليه .

كان قد رآهم لأول مرة عندما تلون المساء باللون الرمادي ، في تلك الساعة الحائلة اللون التي يبدو فيها كل شيء وكأنه يشيط .

كانوا يعبرون الأرض المزروعة داعسين بأقدامهم نباتات الذرة الطرية . اتجه نحوهم لأجل هذا : ليقول لهم إن نباتات الذرة فى طور النمو مازالت ضعيفة لاتتحمل السير فوقها ، لكنهم لم يتوقفوا .

رأهم قبل أن يصلوا إليه بوقت كاف . دائماً حالقه الحظ فى رؤية الأشياء فى الوقت المناسب . كان بوسعه الاختفاء ، السير لعدة ساعات بالتلّ حين ذهابهم ثم يعود إلى مقره . لقد كان الأمل فى نباتات الذرة معدوماً فى جميع الأحوال .

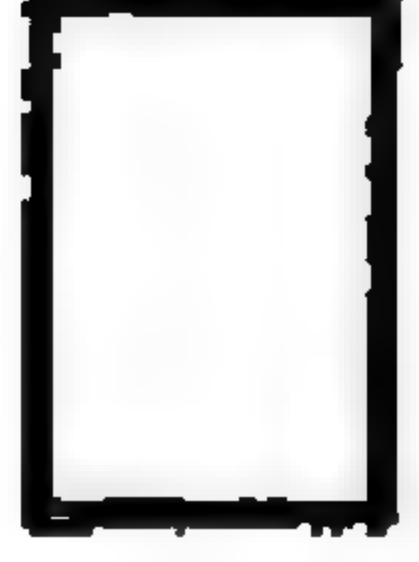
كانت تنتظر سقوط المطر ولما تأخر أخذت نباتات الذرة فى الذبول . ولن يطول بها العهد حتى تجف بالكامل .

وهكذا لم يكن الأمر يستحق لكى يتوجه إليهم ؛ لكى يضع نفسه بين هؤلاء الرجال وكأنه يدخل فى شقّ يتعذر عليه الخروج ثانية منه .

والآن يواصل إلى جوارهم ، كاتباً رغبته فى التوجه إليهم بطلب إطلاق سراحه ، لم يكن يرى وجوههم ؛ بل أجراماً تلتصق وتنفك عنه . وبهذا الشكل فعندما شرع فى الكلام لم يكن يدرى إذا كانوا يسمعون . قال :

- لم ألق الأذى بأحد من قبل - قال هذا . لكن لم يتغير شيء .
كأن لم يسمعه أى جرم من الأجرام ، لم تستدر الوجوه للنظر إليه .
استمروا على حالتهم السابقة كما لو كانوا منومين .

فهم حينئذ أنه لاداعى للاستطراد ، وعليه إرجاء الأمل إلى فرصة لاحقة ، ترك ذراعيه يتهدلان إلى جواره مرة أخرى واخترق البيوت الموجودة على مشارف القرية بين هؤلاء الرجال الأربعة المتشحين بسواد الليل .



- سيدى الكولونيل ، ها هو الرجل .
- كانوا قد توقفوا أمام ثلثة الباب ، خلع قبعته ، احتراماً ، في انتظار خروج أحد ، لكن لم يخرج سوى الصوت :
- أى رجل ؟ - سألوا .
- رجل "بالودى بينادو" ، سيدى الكولونيل . الذى أرسلتنا لإحضاره .
- اسأله إذا كان قد قضى شطراً من حياته فى « أليما » - عاد الصوت ليقول من الداخل .
- أنت ، هل عشت فى أليما ؟ - كرر الجاويش ، الواقف قبالة ، السؤال .
- نعم . قل للكولونيل إننى من هناك ، وإبنى عشت فيها حتى وقت قريب .

- اسأله إذا كان يعرف "جوادا لوبى تيريروس" .
- يسألك إذا كنت تعرف " جوادا لوبى تيريروس" . .
- "دون لوبى" ؟ نعم . أخبره أننى أعرفه . لقد مات .
- أعرف أنه مات - قال .

واصل الكلام وكأنه يتحدث مع آخر بالداخل ، على الجانب الآخر من حائط البوص :

« جواد لوبى تيريروس » كان أبى ، عندما كبرت وبحثت عنه أخبرونى أنه مات ، من الصعب أن تنمو وأنت تدرك أن الشيء الذى يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات . هذا ما حدث معنا .

علمت بعد ذلك أنهم قتلوه طعنًا بمنجل ، وغرزوا منخس الثور فى معدته . أخبرونى أنه ظل مفقودًا ما يزيد على اليومين ، وأنهم عندما عثروا عليه ملقى فى النهر كان مازال يحتضر ويوصى برعاية أسرته من بعده .

يبدو أن هذا بالإمكان نسيانه بمرور الزمن . حاول الواحد نسيانه . ما لا يمكن نسيانه هو معرفة أن الذى فعل هذا مازال ينعم بالحياة ، ويمنى روحه الفاسدة بوهم الحياة الأبدية . لا يمكن العفو عنه ، حتى ولو لم أكن أعرفه ، ومسجد علمى بمكانه يدفعنى للانتقام منه . ليس بمقدورى غض الطرف عن استمراره على قيد الحياة . إنه ما كان يستحق الولادة أصلاً .

- فى الخارج هنا ، سُمع بوضوح جميع ما قاله . أمر بعد ذلك :
- خذوه ، اربطوه لبعض الوقت حتى يتعذب ، ثم اعدموه .
 - انظر إلى ، أيها الكولونيل - طلب الرجل - . لم أعد أساوى شيئاً . سأموت عما قريب وحدى ، بداء الشيخوخة . لا تقتلنى . . .
 - أحملوه ! - عاد ليقول الصوت القادم من الداخل .
 - . . . لقد دفعت الثمن ، أيها الكولونيل . دفعته مرات عديدة . سلبونى كل شىء ، وعاقبونى بشتى الطرق . أمضيت أربعين عاماً مختبئاً كالموبوء ، وكل دقة من قلبى تصرخ فى على الدوام أننى هالك لامحالة . لا أستحق الموت هكذا ، دعنى على الأقل لعذاب الضمير وسخط الرب ، لا تقتلنى ، قل لهم يتركونى أعيش .
 - كان هناك ، وكأنهم أوسعوه ضرباً ، يخبط الأرض بقبعته ، صائحاً . وفى التو أمر الصوت القادم من الداخل :
 - اربطوه وأسكروه بشراب حتى لا يشعر بألم الرصاص .



والآن ، فى نهاية المطاف ، سكنت جوانحه ، كان هناك متزويماً أسفل الآلة الخشبية التى ربطوه فيها .

من قبل كان قد أتى ابنه " خوستينو " ، ذهب ثم عاد ، وها هو الآن قادم مرة أخرى .

حملة فوق الحمار . شد وثاقه وأحكم ربطه بالحبال حتى لا يسقط في الطريق ، وضع رأسه في كيس حتى لا يثير فزع من يراه ، وبعد أن اضطبر الحمار لحين فراغه من عمله ، انطلقوا بسرعة حتى يصلوا إلى « پالو دى بينادو » في وقت يسمح لهم بتجهيز مراسم الدفن .

- لن تتعرف عليك زوجة ابنك ولا أحفادك - كان يقول له . سينظرون إلى وجهك وينكرونك ، سيخيل إليهم أن ابن آوى قد افترسك ، عندما يطلعون على هذا الوجه الملىء بالثقوب من كثرة الأعيرة التي أطلقوها عليك .

« لوبينا »

من بين تلال الجنوب العالية ، فإن أكمة « لوبينا » هي الأشد ارتفاعاً والأكثر تحجراً ، إنها موبوءة بتلك الحجارة التي يصنع منها الكلس وإن كان في « لوبينا » لا يصنع منها كلس ولا يُستفاد منها بشيء . إنهم يسمونها هناك « الحجارة الشرسة » ، كما يطلقون على التل الصاعد نحو « لوبينا » « الصخرة الصماء » . لقد تكفلت الرياح والشمس بتفتيتها بطريقة جعلت التربة هناك بيضاء لامعة كما لو كانت مخضلة بندى الصباح الباكر ؛ وهذا لمجرد القول لأن الليل - مثل النهار - في « لوبينا » شديد البرودة وقطرات الندى تتخثر في السماء قبل أن تفكر في السقوط على الأرض .

... والأرض شديد الارتفاع ، تتفصد من كل الجوانب في وهاد سحيقة ذات أعماق تتوارى بعيد ، يقول أهالي « لوبينا » إن النعاس يتصاعد من تلك الأغوار ؛ لكنني لم أشاهد سوى الريح ترتفع منها ، في حفيف وجلبة ، كما لو كانوا قد حشوها - هناك تحت - في أنابيب من الغاب .

ريح لاترك حتى للنمو عنب الذئب : تلك النباتات الضئيلة الحزينة التي يمكنها الحياة فقط لفترة قصيرة متمسكة بالأرض ومتشبثة بجرف الجبل . أحيانا يزدهر فقط نبات « الشيكالوته » * بشقائقه البيضاء ،

* « الشيكالوته » : نبات ذو ساق شوكية تستخدم عصارته في التداوى من سم الأفاعى (المترجم)

مختبئًا بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظل . لكن « الشيكالوته »
سرعان ما تذبل ، وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية
محدثة حفيقتًا يماثل صوت السكين على حجر المسنّ .

- سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على "لويينا" . إنها قائمة ،
يقولون لأنها تجر جر رمادًا من البركان ؛ لكن الشئ المؤكد أنه هواء
أسود . عما قريب سترى ، إنه يمسك بتلابيب الأشياء فى "لويينا" .
كما لو كان يعضها ، وفى أيام كثيرة يحمل أسقف المنازل كما لو كان
يحمل قبعة من سعف ، تاركًا الحوائط جرداء بلا ساتر . وبعد ذلك
يخدش كما لو كانت له أظافر :

يسمعه الواحد - صباح مساء ، ساعة بعد أخرى ، دون هوادة -
وهو يخدش الحوائط ، ينتزع نتفا من التراب ، يحفر بمجرفته المدبية تحت
الأبواب حتى يحس به الواحد يزمر بداخله كما لو كان يحرك مفاصل
عظامنا ذاتها ، عما قريب سترى .

بقى ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتًا برهة ، محملقًا فى
الفضاء .

كان يصل إليهما صوت احتكاك مياه النهر الغزيرة بأفرع النباتات
المتسلقة ؛ حفيف الهواء وهو يحرك بوداعة أوراق شجر اللوز ، وصياح
الأطفال وهم يلعبون فى رقعة الضوء الصغيرة المتسللة من الحانة .

كانت الأرضات * تطير وتضطدم بالمصباح البترولى ثم تسقط على
الأرض محترقة الأجنية .

* الأرضات : نوع من الذباب يظهر بالليل ويستهو به الضوء . (المترجم) .

وفى الخارج كان الليل يواصل تقدمه .

- اسمع ، يا " كاميلو " ، أرسل إلينا بزجاجتين أخريين من الجعة !
- قال الرجل ، ثم أردف :

- شيء آخر ، ياسيدى ، لن تشاهد سماءً زرقاء فى "لوبينا" .
الأفق هناك حائل اللون ؛ مغطى دائماً ببقعة داكنة لاتنمحي ، الأكمة كلها
جرداء ، بلا شجرة ولانبتة خضراء تستريح عليها العين ؛ كل شيء
ملفوف بهواء داكن مشئوم . سترى هذا : تلك الهضاب المنطقئة كما لو
كانت ميتة و "لوبينا" فى أعلاها تتوجهها بيوتها البيضاء مثل إكليل
ميت ..

اقتربت صيحات الأطفال حتى دلفت داخل الحانة . وهذا جعل
الرجل ينهض ويتجه نحو الباب ليقول لهم : « ابتعدوا ، لاتفسدوا علينا
الحديث ، استمروا فى اللعب ، لكن دون إحداث جلبة » .
بعد ذلك ، اتجه ثانية إلى المائدة ثم جلس وأضاف :

- نعم ، كما كنت أقول لك ، تمطر قليلاً هناك . فى منتصف العام
تصل بعض العواصف التى تمزق الأرض وتلهبها بسياطها وتجعل حجارتهما
الكثيرة طافية فوق التراب . حيثُ ترى كيف تجرجر السحب بعضها
بعضاً ، كيف تستقل من أكمة إلى أخرى وهى تتأرجح مثل مثانات متفخة
وتنطلق منها الرعود لتتهشم على أسنة الروابى ، لكنها بعد عشرة أيام أو
اثنى عشر يوماً تذهب ولاتعود إلا فى العام التالى ، وأحياناً لاتعود إلا بعد
بضعة أعوام .

« ... نعم ، تمطر قليلا - قليلا جداً أو لا شيء تقريباً ؛ ولذا فإن الأرض الجافة المتغضنة مثل جلد قديم عندما ينزل عليها المطر تمتلئ بالصدوع الحادة المدببة التي تنغرس في قدم من يسير عليها ، وهكذا حتى الأرض هناك تُنبِت الأشواك » .

أفرغ محتوى الزجاجاة فى جوفه ولم يترك غير فقاعات الزبد فى قاعها ثم أستأنف حديثه :

- مهما تباينت وجهات النظر فإنسها تُجمع فى النهاية على أن « لوبينا » مكان يثير الأسى . أنت ذاهب إلى هناك وستدرك هذا . وأنا أقول إنه مكان يعيش فيه الحزن . لا تُعرف فيه الابتسامة ، وكأن وجوه سكانه جميعاً قد استُبدلت بألواح خشبية . وإذا أردت يمكنك رؤية هذا الحزن فى أى ساعة تريدها . الهواء الذى يهب هناك يحرك الحزن ويُقلِّبه لكنه لا يحمله أبداً . إنه قابع وكأنه مولود هناك . بإمكانك حتى لمسه والإحساس به ، لأنه دائماً فوق الواحد وحواليه ، ولأنه ضاغط مثل لزقة كبيرة على لُحمة القلب .

« ... يقول من يعيشون هناك إن البدر عندما يكتمل ترى الريح متجسدة تطوف بشوارع « لوبينا » وهى تجر جر وراءها عباءة سوداء ؛ لكن ما توصلت أنا لرؤيته دائماً ، عند ظهور القمر فى سماء « لوبينا » ، كان صورة للكآبة ... دائماً .

لكن ، تناول مشروبك ، أرى أنك لم تتذوق رشفة منه . تناوله . أو ربما لاتعجبك الجمعة فاترة ، لا يوجد غيرها هنا ، أعرف أنها هكذا

غير مستساغة الطعم مثل بول حمار . الواحد يعتاد هنا ، أما هناك
فأنا على يقين بأنك لاتستطيع الحصول على مثلها . عندما تذهب إلى
« لوبينا » ستستبد بك الغرابة . هناك ليس أمامك إلا شُرب
« العرقى » الذى يصنعه الأهالى من عشب يسمونه « أوخاس » وستُفرغ ما
فى جوفك بمجرد تناولك جرعات منه . من الأفضل أن تتناول مشروبك .
أنا أدرك ما أقوله لك .

مازال يُسمع فى الخارج صوت النهر . حفيف الهواء . لعب
الأطفال . كان يبدو أن الليل لم يتقدم كثيراً .
أطلّ الرجل مرة أخرى من الباب ثم عاد .
الآن يقول :

- من الصعب الحكم على الأشياء من هنا ، من خلال استحضارها
فى الذاكرة التى لاتماثل الواقع بأى حال . يمكننى مواصلة الحديث
معك دون عناء ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بـ « لوبينا » .
هناك تركت الحياة . . . ذهبت إلى ذلك المكان مفعماً بالآمال وعدت
عجوزاً ومستهيأ . والآن ، ذاهب أنت إلى هناك . . . حسناً . يبدو أننى
أتذكر البداية ، أضع نفسى مكانك وأفكر . . . انظر ، ياسيدى ،
عندما وصلت أول مرة إلى « لوبينا » . . . لكن أسمح لى قبل مواصلة
الحديث بتناول مشروبك ؟ أرى أنك لاتلقى له بالاً ، وهو لى ذو نفع
كبير ، يخفف عنى . أحس معه وكأننى أغسل رأسى من الداخل بزيت
مخلوط بالكافور . . . حسناً ، أكمل لك : عندما وصلت أول مرة إلى «
لوبينا » فإن الحوذى الذى حملنا لم يتوقف هناك ولم يترك جياده لتستريح
بمجرد أن هبطنا ، استدار :

» - أنا عائد - قال لنا .

- انتظر ، ألن تترك جيادك تنعم ببعض الراحة ؟ إنهم فى غاية التعب

- سيزداد تعبهم هنا - رد علينا - . الأفضل أن أعود .

وذهب ، متدحرجاً بعربته من على منحدر « الصخرة الصماء » ،
هامزاً جياده وكأنه يبتعد عن مكان يعج بالشياطين .

ويقينا هناك ، أنا وامراتى وأولادى الثلاثة ، واقفين وسط الميدان
وجميع حاجياتنا بأيدينا . وسط ذلك المكان حيث لا يُسمع سوى صوت
الريح ... ميدان قفر ، دون نبتة واحدة تصدّ الهواء . ظللنا هناك وحيث
سألت زوجتى :

- « أجريينا » ، فى أى بلد نحن ؟

هزت كتفها .

- حسناً ، اذهبنى للبحث عن مكان نأكل فيه وننام الليلة . سنتظرك
هنا - قلت لها .

أمسكت بأصغر أولادها وذهبت .

لكنها لم تعد .

ومع الغروب ، عندما كانت أشعة الشمس تنسحب من فوق قمم
الروابي ، ذهبنا للبحث عنها ، مشينا فى حوارى « لوبينا » إلى أن
وجدناها فى الكنيسة : جالسة وحسب وسط تلك الكنيسة المقفرة ،
والطفل نائم فى حجرها .

- « أجريبينيا » ، ماذا تفعلين هنا ؟

- دخلت للصلاة - ردت علينا .

- لماذا ؟ - سألتها .

هزت كتفيها .

لم يكن هناك من يُصَلِّي له ، إنه عنبر خاو بلا أبواب ، ليس به سوى بعض المزاغل المفتوحة وسقف ملىء بالثقوب مثل غربال يتسلل منه الهواء .

- والمطعم ؟

- لا يوجد مطعم .

- والخان ؟

- لا يوجد خان .

- رأيت أحداً ؟ هل يعيش أحد هنا ؟ - سألتها .

- نعم ، أمامك هنالك . . . انظر إليهن . أرى الكرات اللامعة لعيونهن . . . لكنهن لا يملكن طعاماً كي يقدمنه لنا . قلن لى دون أن يُخرجن رءوسهن أنه لا يوجد فى هذه القرية مايؤكل . . . عندئذ دخلت هنا لأصلى وأنشد العون من الله .

- لماذا لم تعودى إلينا ؟ كنا ننتظرك .

- دخلت هنا كي أصلى . ولم أنته من صلاتى إلى الآن .

- أى بلدة هذه ، يا « أجريينيا » ؟

عاودت هز كتفيها .

فى تلك الليلة تهيأنا للنوم فى ركن من الكنيسة ، خلف المذبح المفكك . كانت الريح تصل إلينا ، بالرغم من أنها كانت أقل حدة ، كنا نسمعها وهى تدخل وتخرج من ثقوب الأبواب ، ضاربة بأياديها الهوائية الصليبان المعلقة : صليبان كبيرة مصنوعة من عصي صلبة معلقة على الحوائط بطول الكنيسة ومثبتة بأسلاك كانت تتر مع كل صفعة ريح مثل اصطكاك الأسنان .

كان الأطفال يكون لأن الخوف كان يحول بينهم وبين النوم . وزوجتى كانت تحاول ضمهم بين ذراعيها ، معانقة حزمتهما من الأولاد . وأنا هناك ، لا أدري ماذا أفعل .

قبيل الفجر بقليل هدأت الريح . عادت بعد ذلك . مضت لحظة فى هذا البكور بقى فيها كل شيء ساكنا ، كما لو كانت السماء قد انطبقت على الأرض ، داعسة الجلبة بثقلها . . . كان يُسمع تنفس الأطفال وهم خالدون للراحة . كنت أسمع لهاث امرأتى إلى جوارى .

- ماذا يكون ؟ - سألتنى .

- ماذا يكون ماذا ؟ - رددت عليها .

- هذا ، الدوى هذا .

- إنه الصمت . نامى . استريحى ولو قليلا ، قريباً ستشرق

الشمس .

لكننى على التو سمعت أنا أيضاً . كان مثل خفقان أجنحة الخفافيش
فى الظلام ، قريباً منّا . لخفافيش ذات أجنحة كبيرة تلامس الأرض .
نهضت وسمعت الخفقان أشد حدة ، كأن كومة الخفافيش قد فُزعت وطار
نحو ثقب الأبواب . مشيت عندئذ على أطراف أصابعى حتى هناك ،
أحسست أمامى تلك الهمهمة الخرساء .

توقفت لدى الباب ورأيتهن . رأيت نسوة « لوبينا » جميعهن
وجراهن على أكتافهن ، بطرحاتهن المتدلّية من على رءوسهن وصورهن
السوداء على خلفية الليل القائمة .

- ماذا تردن ؟ - سألتهن . عن ماذا تبحثن فى هذه الساعة ؟

أجابت إحداهن :

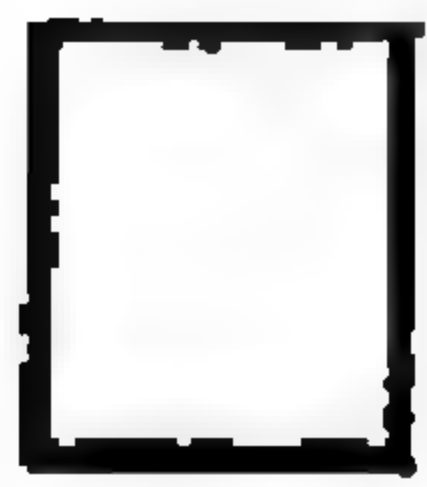
- ذاهبات لإحضار الماء .

رأيتهن واقفات قبالتى ، ينظرن إلىّ . بعد ذلك ، وكأنهن أشباح ،
واصلن السير بجراهن السوداء .

لا ، لن أنسى ما حييت أول ليلة أمضيتها فى « لوبينا » .

... ألا تعتقد أن هذا يستحق كأساً أخرى ؟ حتى ولو لم تكن لها

فائدة سوى إزالة الطعم الكريه للذكرى .



- يبدو أنك سألتنى عن عدد السنوات التى قضيتها فى « لوبينا » ،
حقا . . . ؟

بالفعل لا أدرى ، لقد فقدت الإحساس بالزمن منذ أن داهمتنى
الحمى ؛ لكن لا بد وأن يكون سرمدياً . . . فالوقت هناك طويل جداً . لا
أحد يحصى الساعات ولا أحد يهتم بتراكم السنين . النهار يبدأ وينتهى .
وبعده يجنّ الليل . النهار ثم الليل فقط إلى أن يأتى الموت ، أملهم
جميعاً .

« لا بد وأنت تعتقد أننى أعيد على مسامعك الكلام نفسه . بالفعل ،
ياسيدى . . . يبقى الواحد جالساً على عتبة الدار ، معلقاً بصره بشروق
الشمس وغروبها ، رافع الرأس ومطأطئها حتى تجف روافده وعندئذ يهدأ
كل شيء ، دون زمن ، كما لو كان يعيش فى الخلود دائماً . هذا ما يفعله
العجائز هناك .

لأنه فى « لوبينا » يعيش فقط - كما يُقال . . . - العجائز الخُلص ،
والذين لم يولدوا بعد . ونساء منهكات ، مرهونات بالضعف والنحافة .
الأطفال الذين وُلدوا هناك رحلوا . . . فور أن يُبصروا الفجر يغدون رجالاً
وكمما يُقال : يرفسون على صوت المعاول الكبيرة حَلَمات صدور أمهاتهم
ويختفون من « لوبينا » . هذا هو الحال هناك .

فقط يبقى العجائز والنساء وحيدات ، أو مرتبطات بأزواج ، الله
وحده يعلم أين ذهبوا . . . يأتون أحياناً مثل العواصف التى حدثت عنها ،
تُسمع همهمة فى جميع أرجاء القرية حين يرجعون ومثل زمجرة عندما
يرحلون يتركون أجولة المؤن للعجائز ويغرسون أطفالاً آخرين

فى بطون زوجاتهم ، ولا أحد بعد ذلك يدرى عنهم شيئاً إلا العام
التالى ، وربما إلى الأبد . . . إنها العادة . يطلقون عليها هناك «القانون»
لكن هذا لا يغير من الأمر شيئاً . يُمضى الأبناء حياتهم فى كد من أجل
الآباء مثلما عمل هؤلاء من أجل أسلافهم ولا أحد يدرى كم من الأجيال
أوفت بهذه السُّنة . . .

وفى هذه الأثناء ينتظر العجائز من أجلهم ومن أجل الموت ، جالسين
على عتبات دورهم وأذرعتهن مُهَدَّلة ، تحركهم فقط عودة الابن الغائب
. . . وحيدين ، فى تلك الوحدة فى «لوبينا» .

حاولت ذات يوم إقناعهم بالذهاب إلى مكان آخر ، أرضه جيدة .
« هيا من هنا ! - قلت لهم - . لن نعدم وسيلة للإقامة فى بقعة أخرى .
ستساعدنا الحكومة » .

سمعونى ، دون أن تطرف لهم عين . نظروا إلى من قيعان عيونهم
بنقطة الضوء التى تطل منها بعيداً .

- تقول إن الحكومة ستساعدنا ، يا حضرة المدرس ؟ أتعرف
الحكومة ؟

قلت لهم نعم .

- نحن أيضاً نعرفها . يالها من مصادفة ! مالا نعرف عنه شيئاً هو أم
الحكومة . قلت لهم إنها الوطن . هزوا رؤوسهم قائلين لا . وضحكوا ،
كانت المرة الوحيدة التى رأيت فيها أهل «لوبينا» يضحكون . شحذوا
أسنانهم غير المتناسقة وقالى لى لا ، الحكومة ليس لها أم .

وعندهم حق ، تعرف ؟ هذا الرجل لا يعلم عنهم شيئاً إلا عندما قام أحد أبنائه بارتكاب أحد الأخطاء هناك تحت ، وساعتها قامت الحكومة بمطاردته حتى « لوبينا » وقتلته . غير هذا لا يحسون لها بوجود .

- تريد منا ترك « لوبينا » لأنه - حسب زعمك - يكفى ما تحملناه من جوع دون ذنب أو جريرة - قالوا لى - . لكن إذا نحن ذهبنا ، من سيحمل أمواتنا ؟ هم يعيشون هنا ولا يمكننا تركهم وحدهم .

وهم يواصلون هناك ، ستراهم عندما تذهب ، يعضفون ورق شجر الطلح الجاف ويستلعون لعبهم لخداع الجوع ، ستراهم يمرون كالأشباح ، ملزوقين فى حوائط البيوت ، تجرحهم الريح تقريباً .

- ألا تسمعون هذه الريح ؟ - سألتهم - . ستقضى عليكم .

- لتستمر ما عليها أن تستمره . إنها إرادة الله - أجابونى - . اختفاء الهواء أسوأ وأضل ، لو حدث هذا لاقتربت الشمس من « لوبينا » أكثر ومصت دماءنا والمياه القليلة التى تختزنها جلودنا . الريح تبعتها ، وهذا أفضل .

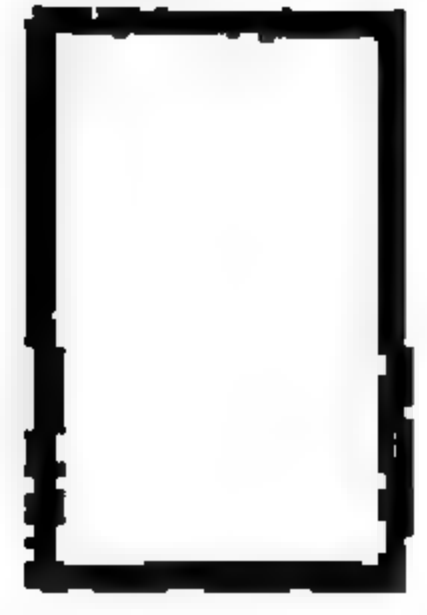
لم أقل لهم شيئاً بعدها ، خرجت من « لوبينا » ولم أعد ، ولا أفكر فى الرجوع .

.... لكن تأمل دوران عجلة الزمن . الآن ، أنت ذاهب إلى هناك خلال ساعات معدودة . لقد مضت خمسة عشر عاماً تقريباً على نفس ما قالوه لى :

« أنت ذاهب إلى » سان خوان لوبينا . فى ذلك الحين كنت محتفظًا بقواى ، كنت محملاً بالأفكار . . . تعرف أنهم يلقنوننا أفكاراً . والواحد منا يمضى بهذا الصلصال على رأسه ليصوغه ويشكله فى كل مكان . لكنه لم يفلح فى « لوبينا » - جربت وفشلت

« سان خوان لوبينا » . یرنّ فى الأذن كاسم عذب من الجنة ، لكنه هناك عذاب الجحيم . مكان محتضر ، ماتت فيه حتى الكلاب ، ولا يوجد من ينبج على الصمت ؛ لأنه بمجرد التعود على الريح العاصف التى تهب هناك ، لا يُسمع حيثئذ سوى الصمت القابع فى جميع الأرجاء الخاوية . وهذا يقضى على الواحد . انظر إلى . لقد تمكن منى . أنت ذاهب إلى هناك وستدرك سريعاً معنى ما أقول

ما رأيك لو طلبنا من السّاقى أن يعدّ لنا كمية من العرقى ؟ شرب الجعة يتطلب النهوض كثيراً وهذا يقطع الحديث . « كاميلو » ، أحضر لنا بعض العرقى ! نعم ، كنت أقول لك



لكنه لم يقل شيئاً . ظل محملاً فى سطح المائدة حيث تتقلب الأرضات المحترقة الأجنحة مثل دود عار .

فى الخارج مازال يُسمع تقدم الليل ، برَبطة النهر فى سيقان النباتات
المتسلقة ، صياح الأطفال الذى ابتعد الآن . ومن سماء الباب الصغير
كانت تطلّ النجوم . الرجل الذى كان ينظر إلى الأرضيات مال على المائدة
واستغرق فى النوم .

الليلة التي تركوه فيها وحيداً

- لمَ كل هذا البطء ؟ - سأل « فيليثيانو رويلاس » من يسيران في المقدمة - . سننام على هذا الإيقاع . ألا يهمكما الوصول بسرعة ؟
- سنصل فجر الغد - أجابه .

كان هذا آخر ماسمعه منهما . كلماتهما الأخيرة . لكن وقت تذكره لهذا لم يحن بعد ، موعده اليوم التالي .

كان يمضى ثلاثتهم هناك ، ونظراتهم صوب الأرض ، محاولين الاستفادة مما يشي به ظلام الليل من وضوح .

« الظلمة هكذا أفضل ، حتى لا يرونا » . قالوا هذا أيضاً ، قبل كلماتهما الأخيرة بقليل ، أو ربما الليلة السابقة . لم يعد يتذكر ، لأن النعاس كان قد طمس تفكيره .

الآن ، عند صعود الجبل ، شاهده قادمًا من جديد ، أحس به عندما اقترب منه ، وطوقه وكأنه يبحث عن العضو الأشد تعبًا إلى أن اعتلاه ، وجثم فوق ظهره المحمّل بالبنادق .

كان يمشى بسرعة ، بينما كانت الأرض منبسطة ، ولما أخذت في الارتفاع ، تأخر ، بدأت رأسه تتحرك ببطء ، أكثر بطئًا من مُعدّل تحوّل خطواته إلى القصر . تجاوزه الآخران ، هما الآن يسبقانه بينما يواصل مؤرجحًا رأسه النائم .

أخذ يتأخر . كان الطريق أمامه ، فى مستوى عينيه تقريباً ، وثقل البنادق ، والنعاس المتسلق هناك فوق ظهره المنحنى .

سمع تلاشى خطواتهما : هذا الوقع الأجوف للأقدام الذى ظل يسمعه لا أحد يدرى منذ متى ولا خلال كم من الليالى : « من » لامجدلينا « إلى هناك ، الليلة الأولى ؛ بعد ذلك من هناك إلى هنالك ، الليلة الثانية ؛ وهذه هى الثالثة . قد لا تكون كثيرة - قال لنفسه - لو أننا نمنا أثناء النهار .

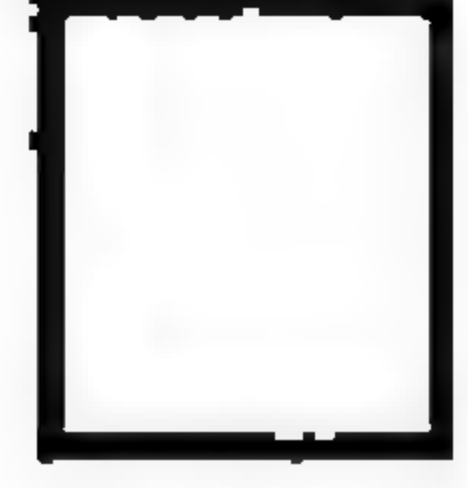
لكنهما رفضا : « يمكنهم إلقاء القبض علينا ونحن نائمون - قالوا - . هذا أسوأ » .

- الأسوأ لمن ؟

الآن ، يفك النوم وثاق لسانه ، يجعله يتكلم : « قلت لهما لاداعى لمواصلة السير : نرتاح اليوم . وفى الغد سنسير بهمة ونشاط ، وسنجرى إذا لزم الأمر » .

توقف وعيناه مطبقتان . قال : « ما الذى سنجنيه من وراء الاستعجال ؟ يوم ؟ لا يستحق العناء ، بعد الأيام العديدة التى أضعناها » . صاح على الفور : « أين أنتما ؟ » . وفيما يشبه الهمس : « اذهب ، إذن ، اذهب » . تكور إلى جوار جذع شجرة . كانت الأرض رطبة هناك وتحول العرق إلى ماء بارد ، لا بد أن هذا هو الجبل الذى حدثاه عنه ، الجوفات هناك تحت ، وفى الأعلى هنا يتسلل البرد إلى ما تحت عباءته : « كأنهم يخلعون قميصى ويدلكون جلدى بأكفهم المتجمدة » .

جلس فوق الطحالب ، فتح ذراعيه ، وكأنه يريد قياس حجم
الليل ، لكن سياج الأشجار احتجزهما . استنشق هواءً معبقاً برائحة زيت
التربتينا . دلف بنعومة فى النوم ، وأحس بالخدر يستولى على جسده .



أيقظه برد السحر . رطوبة الندى .

فتح عينيه . شاهد ، فوق الأغصان المعتمة ، نجومًا تتألق فى سماء
وضّاحة « الليل فى بدايته وستغرق الدنيا عما قريب فى الظلام » ظن
هذا ، ونام من جديد .

نهض عند سماعه صيحات ووقع مضغوط لحوافر على البحر الجاف
للطريق . ضوء أصفر يمسك بتلابيب الأفق .

مرّ الحمّارون ، وهم ينظرون إليه . ألقوا عليه بالتحية : « صباح
الخير » ؛ لكنه لم يرد .

تذكر ما كان عليه أن يفعله . لقد بزغ النهار ، وكان عليه أن يعبر
الجبلى أثناء الليل لتفادى البصّاصين . كانا قد أخبراه أن هذه المسافة من
الطريق تتطلب حيلة أكثر وهى الأولى من غيرها بالتستّر .

أمسك بحزمة البنادق ورفعها فوق ظهره . ابتعد عن الطريق وتوغّل
فى الجبل ، باتجاه شروق الشمس . صعد وهبط ، متجاوزاً روابى وعرة .

بدا له وكأنه يسمع الحمّارين يُذَلّون بأوصافه : « رأيناه هناك فى
الأعالى ، أوصافه كذا وكذا ، ويحمل أسلحة كثيرة » .

ألقى بالبندق على الأرض ، لينفك من قيوده ، أحس بالخفة حيثُذ
وأطلق ساقيه للريح وكأنه يسابق الحمّارين فى الهبوط .

كان عليه أن « يصعد نحو القمة ، يدور حول الهضبة ثم يهبط » .
هذا ما كان يفعله ، كان ينفذ تعليماتهما بالحرف الواحد ، بالرغم من
تأخرها عن الوقت المحدد .

وصل إلى حافة الوهاد ، شاهد السهل الرمادى الكبير هناك بعيداً .
« لابد أنهما هناك ، يستريحان تحت أشعة الشمس ،
نخاليا البال » ، حسب هذا .

ألقى بنفسه ليهبط الوهدة ، يتدحرج ويجرى ليعود للتدحرج من
جديد .

« العون ياإلهى » ، كان يقول ، ومرات تدحرجه كانت تزيد على
مرات جريه كلما هبط .

بدا له وكأنه مازال يسمع الحمّارين عندما ألقوا عليه
بالتحية : « صباح الخير » ، وأحس بما كانت تنطوى عليه أعينهم من
خداع . سيبلغون أول بصّاص يقابلهم فى الطريق : « رأيناه فى المكان
القلانى . ولن يتأخر فى الوصول إليه » .

بقى ، فجأة ، بلا حراك .

« ياللمسيح ! » قال . كان على وشك الصياح : « يعيش المسيح رب الأرباب ! » ، لكنه كبح جماح نفسه ، سحب المسدس من الجراب ووضعه جاهزاً تحت قميصه ، وأحس به يداعب لحم جسده . أعطاه هذا شجاعة . اقترب من مخيمات « أجوا زركا » على أطراف أصابعه ليشاهد جلبة الجنود المتحلقين حول شعلات عظيمة من النيران .

وصل إلى سور الحظيرة واستطاع رؤيتهما بوضوح ؛ التعرف على وجهيهما : كانا هما ، عمه « تانيس » وعمه « ليرادو » . كان عمّاه معلقين من رقبتيهما في شجرة وسط الحظيرة ويتأرجحان ، بينما يطوف الجند حول ألسنة اللهب .

بدا أنهما لا يلقيان بالاً للدخان المتصاعد من الشعلات ، والذي كان يغطي بسحبه أعينهما الزجاجية ويُعَفِّرُ وجهيهما .

لم يتحمل مواصلة النظر إليهما . زحف بجوار السور وانزوى في ركن ، مريحاً جسده ، مع أنه كان يحس بدودة تتلوى في معدته .

من فوقه ، سمع شخصاً يقول :

- ماذا تنتظرون لإنزال هذين ؟

- ننتظر وصول الآخر . أخبرونا أنهم ثلاثة ، ولا بد أن يكونوا كذلك . يقولون إن الناقص فتى حديث السن ؛ ومهما كان عمره قلن يشفع له ، لأنه هو الذى نصب الكمين للنقيب « باراً » ورجاله وقضى عليهم ، لا بد وأن يقع بين أيدينا كما وقع هذان الآخران الأكبر سناً والأكثر خبرة .

وحيطه . يقول سيدى القائد إذا لم يظهر الثالث من الآن وحتى الصباح سنعلق بدلا منه أول شخص يمر بالموقع ، وبهذا الشكل نكون قد نفذنا الأوامر .

- ولماذا لانخرج للبحث عنه ؟ ولو من باب كسر حدة الملل الذى نشعر به .

- الأمر لا يحتاج . إنه آت لا ريب ، فهناك مجموعة تمشط جبل « كومنخا » وستنضم إليها جماعة الفيلق الرابع عشر المدرية حديثا على مثل هذه المهام . يستحسن تركهم ليمسحوا المنطقة العالية بكاملها ويشيروا الهلع بين قاطنيها .

- هذا شيء طيب ، لكن بشرط ألا يكلفوننا نحن أيضا بعد انتهاء هذا الأمر بالسير فى نفسه الاتجاه لعمل شيء مشابه .

انتظر « فيليشيانو رويلاس » حتى تهدأ نائرة المغص الذى يهتصر معدته .

استنشق بعد ذلك كمية كبيرة من الهواء وكأنه سيغطس فى الماء ، وبدأ ينحنى إلى أن انبطح على الأرض وأخذ يزحف ، دافعا جسده بيديه .

عندما وصل إلى منحدر جدول الماء ، رفع رأسه وأطلق ساقيه للريح ، شاقا لنفسه طريقا بين نباتات الحلفاء ، لم ينظر خلفه ولم يتوقف عن الجرى حتى أحس بذوبان الجدول فى السهل .

توقف عندئذ . تنفس بعمق وفرائصه ترتعد .

نقطة العبور إلى الشمال

- أنا مسافر إلى مكان بعيد ، ياأبتاه . أتيت لأحيطك علمًا بهذا .

- وإلى أين أنت ذاهب ؟

- إلى الشمال .

- ولماذا تذهب إلى هناك ؟ أليس لك عمل هنا ؟ ألا تعمل في تجارة

الخنازير ؟

- كنت . أما الآن فلا ، الأسبوع الماضي لم نجد ما نشتري به طعامًا والأسبوع الذى قبله أكلنا سلًا فقط . الجوع منتشر انتشار النار فى الهشيم ، ياأبتاه ؛ لاتصلك رائحته لأنك تعيش فى بحبوحة .

- ماذا تعنى ؟

- أقصد أن الجوع فى كل مكان ، وأنت لاتحس به . تبيع أسلحة وذخيرة وبارودًا وبأثمانها تقضى حوائجك وزيادة . ومادامت الحروب والتراعات لاتنتهى سيظل المال ينهمر عليك كالطر ؛ لكن حالتى مختلفة ، ياأبتاه . لم يعد أحد يقبل على تربية الخنازير فى وقتنا الراهن . وإذا ربّاهَا تأكلها أنت وأمثالك ، وإذا باعها فبأسعار مرتفعة ، وفوق هذا وذاك لم يعد المال اللازم لشرائها متوافرًا . تجارة الخنازير عفى عليها الزمن ، ياأبتاه .

- وماذا ستفعل فى الشمال ، بحق الشياطين ؟

- أجمع المال ، ألم تر كيف عاد « الكارمیلو » غنيًا ، لقد أحضر حتى حاكيا (جرامافون) ويتقاضى على كل رأس خمسة مليمات مقابل سماع موسيقاه . يذيع فيه كل ألوان الموسيقى من أول الرقصات وحتى الأغاني الحزينة لتلك المغنية التي يسمونها « لا أنديرسون » ؛ كله بتعريفه موحدة ، والناس يتزاحمون في صفوف من أجل السماع وليعمروا جيوبه بوافر الأموال . وكما ترى ؛ فليس على أكثر من الذهاب والعودة ، لهذا حزمت أمري وقررت السفر .

- وأين ستترك زوجتك وأولادك ؟

- جئت إليك من أجل هذا ، لكي تتولى رعايتهم .

- أنتظني مرضعتك ؟ إذا ذهبت فأمرك وأمرهم على الله ، لا أطيق الآن تربية الأطفال ، لقد أدت ما على زيادة بتريتك أنت وأختك ، عليها الرحمة . من اليوم فصاعدًا لا أريد تحمل أدنى مسئولية ، وكما يقول المثل : « إذا كان الجرس لا يدق فلأنه يخلو من المدقة » .

- لا أدري ماذا أقول ، يأبتاه ، لقد حيرتني . ماذا استفدت من تربيتك لي ؟ أعمالا شاقة متواصلة ، لقد تركتني وشأني بمجرد أن تفتحت عيناى على هذا العالم . لم تعلمنى حتى صناعة السلاح ، كما لو كنت تخشى منافستى لك . ألبستنى قماطا وإزارا وألقيت بى في عرض الطريق لكي أتعلم العيش من كدّى ، والآن تَرُدُّنى من بيتك خاوى الوفاض . والنتيجة : أننا هالكون لامحالة من الجوع ، أحفادك وابنتك هذا وزوجته ، أى كل سلالتك ، على وشك لَفْظ الأتفاس جوعًا ، أعتقد أن هذا عدل أو مشروع ؟

- وما علاقتى أنا بكل هذا ؟ لماذا تزوجت ؟ لقد تركت البيت دون أن تفكر فى استئذانى .

- فعلت هذا لنفورك المستمر من « لاترانسيٲو » . كنت تسيء معاملتها دائماً كلما أحضرتها ، ألا تذكر أنك لم تكلف حتى خاطرك برؤيتها عندما جاءت أول مرة : « هاهى ، يا أبى ، الفتاة التى أنوى الزواج بها » . عندما أخذت تتكلم بالشعر وقلت إنك تعرفها بما فيها الكفاية ، كما لو كانت إحدى الساقطات . وتفوّهت بكبّة من الأشياء لم أفهمها ، لهذا السبب لم أحضرها ثانية . لا أطلب منك الآن سوى رعايتك لها لأن قرار سفرى لارجعة فيه ، لا يوجد حالياً أى عمل هنا ، ولا حتى أمل فيه .

- هذا محض افتراء ، بالعمل يجد الإنسان ما يطعمه ، وبالطعام يعيش . لقد بلغت من الكبر عتياً ومع هذا لا أشكو . ومنذ أن كنت شاباً يافعاً لم يرد على لسانى مثل هذا الكلام ؛ كان معى ليس فقط ما يكفينى بل ما يغطى نفقات مغامراتى النسائية التى لا تحصى . عائد العمل يغطى جميع المتطلبات بما فيها جميع الغرائز الجسدية . كل ما فى الأمر أنك عبيط . ولا تقل لى إننى علمتك هذا أيضاً .

- لكنك والدى . وكان الأجدر بك أن تضعنى على الطريق الصحيح ، لا أن تطلقنى كجواد جامح بين حقول الذرة .

- كنت فارع الطول يوم أن تركت البيت ، أكنت تريد منى تحمل مسئوليتك إلى الأبد ؟

السحالي وحدها هي التي ترتبط بمخابئها حتى ساعة موتها . أعترف
أن الأمور سارت معك على ما يرام وأنتك تزوجت وأنجبت أولادًا ، كثيرون
غيرك لم يعرفوا هذا طول حياتهم ، مروا على الدنيا مرور الكرام مثل مياه
الأنهار ، دون أن ينعموا بمشرب أو بمأكل .

- لقد ضننت علىّ حتى بتعلم القريض الذي تبرع فيه ، ولو علمتني
لكنت كسبت على الأقل شيئًا من وراء تسلية الناس به كما تفعل . قلت لى
يوم طلبت منك ذلك : « عليك بتجارة البيض ، ودع نظم القصائد
لغيرك » . وبدأت بتجارة البيض لأتحول إلى الدجاج ثم إلى تجارة الخنازير
التي تمتعت فى كنفها بالسَّتر ، كما يقولون . لكن المال ينفد ؛ يأتى
الأولاد ويرتشفونه كالماء لكى لايبقى منه شىء لمزاولة المهنة . فى هذه
الأيام لا يوجد من يضع ثقته فى رجل مفلس . أخبرتك الآن أن السَّلَق
الذى لم نجد غيره طعامًا قبل أسبوعين تعذر علينا الحصول عليه الأسبوع
الماضى . لهذا أنا ذاهب . قد لاتصدق ، يا أبى ، لو أخبرتك أننى ذاهب
والحزن يهتصرنى لأننى أحب أولادى ولا أرغب فى فراقهم ، على خلاف
ما فعلت أنت بفلذتى كبذك عندما ألقيت بهما فى عرض الطريق بمجرد أن
شَبَّا عن الطَّوق .

- يا بنى ، ضع ما أقوله لك الآن حلقة فى أذنك : فى عش الدواجن
الجديد ، لابد وأن تحتفظ ببيضة . عندما ترفرف عليك الشيمخوخة
بجناحيها ستتعلم كيف تعيش ، ستدرك كيف يفارقك الأبناء ، دون أن
يشكروا لك صنيعةً ؛ يطمرون حتى ذكراك .

- هذا بيت خالص من الشعر .
- سيكون بالفعل ، لكنها الحقيقة .
- أنا لم أنساك ، كما ترى .
- جئتنى عندما دفعتك الحاجة . لو كانت أمورك مستقرة ما تذكرتنى . أحسست بالوحدة منذ وفاة أمك ، ولما ماتت أختك أصبحت وحدتى أشد وطأة ؛ وعندما تركتنى أيقنت أننى سأظل وحيداً بقية عمري . وتأتى الآن قاصداً إثارة عواطفى وتحريكها ثانية ؛ لكن أتعرف أن بعث ميت أصعب بكثير من بث حياة جديدة ؟ تعلم شيئاً . غشيان الطرق يعلم الكثير . ما حَكَّ جلدك مثل ظفرك ، وهذا ما يجب أن تفعله .
- أفهم من هذا أنك تتهرب من رعايتهم ؟
- اتركهم هنالك ، لا أحد يموت جوعاً .
- أخبرنى صراحة أنك قبلت الوصية ، لا أريد الذهاب قبل التأكد .
- كم عددهم ؟
- لايزيدون عن ثلاثة أولاد وبتنين بالإضافة إلى زوجة الابن التى تسترد شبابها من جديد .
- تقصد أنها تسترد سلوكياتها المعيبة .
- كنت زوجها الأول . كانت عذراء . إنها طيبة . لاتستمر فى جفائك لها ، يا أبى .

- ومتي ستعود ؟

- سريعاً ، يا أبى . سأعود بمجرد تحقيق الهدف الذى أنا ذاهب من أجله ، سأعطيك ضعف ما ستنفقه عليهم . قدم لهم كل ما يحتاجونه من طعام ، هذا كل ما أوصيك به .

من النجوع والعزب يتجه الناس إلى القرى ، ويذهب أهل القرى إلى المدن . وفى المدن يضيعون ؛ يذوبون بين طوفان البشر . « ألا تعرف مكاناً به عمل ؟ » . « نعم ، عليك بالذهاب إلى مدينة « خواريث » . بإمكانى تسهيل سفرك إلى هناك وتقويتك من نقطة المراقبة نظير مائتى بيزو . ابحث عن فلان الفلانى وأخبره أنك من طرفى . إياك وإفشاء هذا السر لأحد . »

« حسناً ، ياسيدى ، ستكون النقود عندك غداً » .

- اسمع ، يقولون إنهم يحتاجون عمالاً فى « نونو ألكو » لتفريغ القطارات .

- ويدفعون ؟

- بالطبع ، الكيلة بقرشين .

- صحيح ؟ أفرغت أمس حوالى طن من المسوز بالقرب من « لاميرثى » وأعطونى عدة أصابع أكلتها . أتضح فى النهاية أنه سُرِق منهم ولم يدفعوا لى شيئاً ؛ حتى أنهم اتهمونى وسلمونى للشرطة .

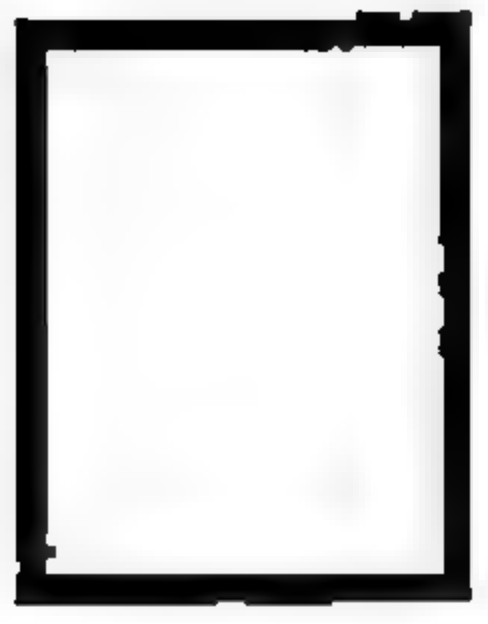
- العمل فى السكة الحديد يتسم بالجدية . إنه شىء آخر . إذا كنت مستعداً فعليك به .

- وَلَمْ لَا !

أنزلنا بضائع من القطارات من شروق الشمس إلى غروبها وفاض من
البضائع ما يكفي لعمل يوم آخر . أعطونا أجرنا . عددت النقود : أربعاً
وستون پيزو . آه لو تسير كل الأيام على هذا المنوال !

- سيدى ، أحضرت لك المائتى پيزو .

- حسناً . سأعطيك ورقة لزميلنا فى مدينة « خواريث » . احتفظ
بها ولا تضعها ، سيساعدك فى عبور الحدود ولن يتركك إلا وعقد العمل
فى يديك . فى الورقة عنوانه وتليفونه لكى تتصل به فى أقرب فرصة .
لا ، لن تذهب الى « تكساس » . أسمعت عن مدينة « أوريجون » ؟ .
حسناً ، قل له إنك تريد الذهاب إلى « أوريجون » . لجمع التفاح ، هذا
أنسب لك . ابتعد عن جنى القطن . (باين عليك راجل نبيه) . قدّم
نفسك لـ « فرناندث » . لاتعرفه ؟ . حسناً ، اسأل عنه . وإذا كنت
لاتريد جمع التفاح سيجعلك تعمل فى تثبيت فلنكات قضبان السكك
الحديدية . العمل الأخير عائده أكبر ومدته أطول ، ستعود محملاً
بالدولارات . لاتضع الكارت .



- أجهزوا علينا ، يا أبى .

- على من ؟

- علينا . أطلقوا علينا الرصاص ، أثناء عبور النهر ، ومزقونا
أربًا .

- أين ؟

- هناك ، عند نقطة العبور إلى الشمال ، أضواء علينا الكشافات
بينما كنا نتجاوز النهر .

- لماذا ؟

- لا أدري ، يا أبتاه . أتذكر « إستانيسلاو » هو الذى أوعز إلى
بالسفر إلى هناك . حدثنى عن خبرته الطويلة بمسألة السفر وعن إدراكه
لكل دقائقها ، وذهبنا أولاً إلى « مكسيكو » ومنها إلى نقطة العبور . كنا
نعبّر النهر عندما حصدونا ببنادق « الموزر » . عدت أدراجى لأنه توصل
إلى قائلاً : « أخرجنى من هنا ، يابن بلدى ، لا تركنى » . عندما طلب
منى هذا كان مستلقيًا على قفاه وجسده أشبه بمصفاة من كثرة الرصاص
الذى اخترقه . سحبته ، جرجرة ، قدر استطاعته وابتعدت به عن ضوء
الكشافات التى كانت تبحث عنا . قلت له : « أنت حى » ، فأجابنى :
« أخرجنى من هنا ، يابن بلدى » . قال لى بعد ذلك : « لقد تمكنا
منى » . كنت مصابًا بطلق نارى فى إحدى ذراعى وعظمة كسوعى
ليست فى مكانها ، لهذا مددت له يدى السليمة وقلت له : « تشبث بها
جيدًا » .

مات منى على ضفة النهر جهتنا ، قبالة أنوار قرية تقع داخل حدودنا
وتسمى « أوخينا جا » ، بين نباتات الأسل التي لاتزال تمشط النهر وكأن
شيئاً لم يكن .

رفعته على الشاطئ وسألته : أما زلت حياً ؟ . لم يجب .
أمضيت بقية الليل إلى جواره أحاول بشتى الطرق إعادة الحياة إلى
« الإستانسيلو » ؛ دلكت جميع أطرافه ونفخت فى رثيه لكى يلهث ،
لكنه لم ينبس ببنت شفة . اقترب منى آخر النهار أحد موظفى مصلحة
الهجرة والسفر .

- أنت ! ماذا تفعل هنا ؟

- أرعى هذا الميت .

- أنت الذى قتله ؟

- لا ، ياسيدى الجاويش - رددت عليه .

- لا أمتّ بصلة لأى جاويش . من قتله إذن ؟

عندما رأيته مرتدياً البدلة الرسمية وعليها النور تلك حسبته من
الجيش ، ولم يتطرق إلى الشك فى هذا عندما شاهدت الطبنجة كبيرة
الحجم متدلّية من وسطه .

كرر سؤاله : « من قتله ، إذن ؟ » .

وظل يكرر ويكرر إلى أن أمسك بشعر رأسى وأخذ يهزنى بعنف وأنا
لاحول لى ولا قوة ، لا أستطيع الدفاع عن نفسى لذراعى المصاب .

قلت له : - لاتضربنى ، كوعى مهشم .

توقف حينئذ عن توجيه الضربات لى .

- ماذا حدث ؟ ، تكلم .

أضاءوا علينا الكشافات بالليل . كنا ذاهبين ونشوة العبور إلى جانب الآخر من الحدود تسكرنا وعندما وصلنا إلى عرض النهر انتهمر الرصاص علينا كالطر . لم نستطع تفاديه ، أنا وهو الوحيدان اللذان استطاعا الخروج ، وإن كان الإنصاف يقتضى القول بأن واحدا فقط هو الذى أفلت لأن الثانى ، كما ترى ، قضى نحبه .

- ومن هم الذين أطلقوا عليكم الرصاص .

- إننا حتى لم نرهم . غمرتنا أضواء كشافاتهم وانهالو علينا ، لم نسمع سوى دوى طلقات بنادقهم ، إلى أن أحسست بكوعى ينفجر وسمعت هذا يستغيث بى : « أخرجنى من الماء ، يابن بلدى » . مع أن رؤيتهم لم تكن ستفنعنا بشيء .

- لابدو أنهم كانوا من « الأباتشى » .

- أى « أباتشى » ؟

- جنس من الهنود ، يعيشون على الجانب الآخر .

- أليس أهالى « تكساس » هم الذين يعيشون على الجانب

الآخر ؟

- نعم ، لكنها تعجّ بالأباتشى ، يبدو أنك لاتعرف شيئاً . سأتركك وأذهب إلى « أو خيناجا » لأبلغهم حتى يرسلوا من يحمل صديقك وعليك بالاستعداد للعودة إلى بلدك . من أين أنت ؟ ما كان عليك مغادرتها . معك نقود ؟

- أخذت ما كان فى جيب الميت من نقود قليلة ، لعلها تعيننى على العودة .

- لدى هنا مخصصات لرعاية المغتربين . سأعطيك ثمن التذكرة ؛ ولو لمحتك ثانية هنا سأجعلك تعض أنامل الندم ، لا يروق لى رؤية وجه إنسان مرتين . هيا ، اذهب .

- وأتيت ، ياأبتاه ، لأقص عليك ما جرى .

- حدث لك هذا بسبب بلاهتك وغبائك ، وعندما تذهب إلى بيتك ستُصدم بعاقبة إصرارك على السفر .

- هل حدث ما يعكر الصفو ؟ مات أحد الأولاد ؟

- « لاترانسيتو » هربت مع بغال . كنت تتغنى بطيبتها ، أليس كذلك ؟ أولادك نائمون بالداخل . أما أنت فعليك بالبحث عن مكان تُمضى فيه الليل ، لأننى بعث دارك لكى أسدد نفقات أسرتك ، ومازلت مدينًا لى بثلاثين « پيزو » قيمة العقود .

- حسنًا ، لن أنكر عليك ما فعلت ، ياأبى . ربما أجد فى الغد عملاً هنا لكى أسدد ما علىّ من دين لك ، فى أى اتجاه ذهبت « لاترانسيتو » مع البغال ؟

- من هذا الاتجاه . لم أدقق النظر .
- لن أغيب طويلا ، أنا ذاهب للبحث عنها .
- أية وجهة تأخذ ؟
- التي أخبرتنى أنها هربت منها .

ألا تذكر!

(فاكر) « أوربانو جومث » ، ابن « دون أوربانو » ،
حفيد « ديماس » ، ذلك الذى كان يقود الفرقة الغنائية للكنيسة ومات عام
الطاعون أثناء إنشاده « دمدم أيها الشيطان الملعون » . مضى زمن طويل ،
خمسة عشر عامًا تقريبًا ، لكن لا بد وأنت مازلت تتذكره . كنا نسميه
« الجد » لأن ابنه الثانى ، « فيدنيو جومث » ، كانت له ابنتان لعوبتان :
واحدة سمراء وضامرة مثل شجرة السنديان كانوا يلقبونها « الخنساء »
نكاية فيها ، والأخرى متينة البنيان وطويلة ولون عينيها أزرق فاتح ، ولذا
كان يُشاع أنها ليست ابنته ومن علاماتها المميزة مرضها بالفُواق (الزُّغْطَة) .
تتذكر الجلبة التى كانت تثيرها أثناء القدّاس عندما كانت تعثرها نوبة
الفُواق ، وكان يبدو أنها تبكى وتضحك فى آن واحد ، وكانوا يخرجونها
من الكنيسة ويعطونها ماءً مُحلّى بالسكر لكى تهدأ . تزوجت فى نهاية
المطاف من « لوثيو تشيكو » ، صاحب معمل الخمر الذى ابتاعه من «
ليبرادو » الذى كان يسكن عند أعالي النهر حيث توجد معصرة بذور الكتّان
التي يمتلكها آل « تيودولوس » .

تتذكر أن أمه كانوا يلقبونها بـ « الباذنجانة » بسبب تورّطها المستمر
وأنها كانت تخرج من كل ورطة بصبي . يُقال إنها كانت غنية ، لكنها
بددت أموالها فى الإنفاق على مراسم الجنازات العديدة ، فقد مات جميع
أولادها وهم صغار وكانت تُحرص دائماً على تشييعهم إلى مثواهم الأخير

وسط الموسيقى وجوقات القساوسة التى تتلو جميع الأوراد الدينية من أول « المجد فى الأعالى » إلى تلك الأنشودة التى يقول مطلعها : « ها أنذا أرسل إليك ، أيها الرب ، بملك آخر » . لقد تحولت من الغنى إلى الفقر بسبب ارتفاع تكاليف الدفن ، ولأنها كانت تُقدِّم القرفة وغيرها من المشروبات للمعزين والنادبات . لم يعيش لها سوى اثنين : « الأوربانو » و « لاناتاليا » ، اللذين وكذا فقيرين ولم تنعم أمهما برؤيتهما يترعرعان لأنها ماتت أثناء آخر ولادة لها . قد يكون كبر سنها هو السبب لأنها كانت على مشارف الخمسين وقتها .

لا بد وأنت تعرفها ، فقد كانت عدوانية ولا تملّ من الدخول فى مشاحنات مع الباعة فى السوق مُدَّعية أنهم يريدون بيع الطماطم لها بسعر مرتفع ، كانت تصرخ بأعلى صوتها وتقول إنهم يسرقونها . بعد أن افتقرت ، كانت تُشاهد وهى تحوم حول مقالب القمامة لجمع أعناق البصل وقرون الفاصوليا وهشم القصب « لتُسكّر بها فاه ولديها » ، لم يتبق لها سوى اثنين ، كما سبق وأخبرتكم ، الوحيدان اللذان خرجت بهما من الدنيا . انقطعت أخبارها بعد ذلك .

« أوربانو جومث » هذا كان فى عمرنا تقريباً ، يكبرنا فقط ببضعة أشهر ، ويجيد لعبة الحجلة والرمى بالسهم . تتذكر أنه كان يبيع لنا الزهور البرية قريبة الشبه بالقرنفل وكنا نشترىها منه بالرغم من أن قطفها من التلّ كان الأسهل لنا . كان يبيع لنا ثمرات المانجو التى يسرقها من الأشجار الموجودة فى فناء المدرسة ، ويبيع لنا بخمسة ملليمات البرتقال والفلفل الحار الذى اشتراهما من على البوابة بمليمين فقط . كانت مخلاته

كالمستودع ، تعج بأشياء كثيرة تافهة : كرات زجاجية ، أبواق ، صُفّارات ،
وجعارين خضراء من تلك التى تُربط إحدى قدميها بخيط حتى لا تطير
بعيداً .

كان يبيع لنا كل شيء ، ألا تذكر ! .

كان صهر « ناتشيتو ريبيرو » ، ذلك الذى أصيب بالعتة بعد أيام
قليلة من زواجه واضطرت امرأته ، « إيناس » ، لنُصْب كشك فى الطريق
العام تبيع فيه مشروب العَرَقى لكى تُنفق على نفسها ، بينما كان
« ناتشيتو » يتعيش من عزف الأغانى العاطفية فى دكان حلاقة « دون
ريفونخيو » على آله المندولين التى استعارها .

كنا نذهب مع « أوربانو » لرؤية أخته ولتناول مشروب العرقى الذى
لم نسدد ثمنه أبداً لأن أيدينا لم تعرف شكل النقود . بقى بعد ذلك بلا
أصدقاء ؛ لأننا جميعا كنا نعطيه ظهورنا بمجرد أن نراه حتى لا يطالبنا بما
علينا لأخته ، ربما انحدرت أخلاقه إلى السوء من جرّاء تلك الظروف ،
ويحتمل أيضاً أنه كان مولوداً بها .

طردوه من المدرسة قبل أن يكمل الصف الخامس الابتدائى لأنهم
ضبطوه وهو يمارس مع ابنة عمه ، « الخنساء » ، لعبة العريس والعروسة
فى بئر جاف خلف دورة المياه ، وبقصد تبكيته والسخرية منه ، أمسكوه
من أذنه وعرضوه على البنين والبنات المصطفين فى القناء ثم أخرجوه من
الباب الرئيسى للمدرسة وسط ضحكات الجميع . اخترق الصفوف رافعاً
هامته ومتوعداً الحشد بقبضة يده وكأنه يقول لهم : « ستدفعون ثمن هذا
غالياً » .

فعلوا الشيء نفسه مع « الخنساء » التي خرجت وصدرها يغلى
كالمرجل ونظرتها تخذش قوالب الآجر ، وعندما وصلت إلى الباب أخذت
تصرخ صريخاً ظل يُسمع طيلة المساء وكأنه عواء ذئب .

كل ما فى الأمر أن ذاكرتك تخونك أكثر مما ينبغى وتجعلك
تنسى .

يقولون إن أباهما « فيدنتيو » ، صاحب المعصرة ، ضربها علقه ساخنة
كادت تصيبها بالشلل ، وإنه ترك القرية حسرة وكمدًا .

الشيء المؤكد أنه اختفى بعدها ولم نعد لرؤيته إلا عندما أصبح رجل
شرطة وظهر من جديد هنا لأداء مهام وظيفته . لم يكن يفارق مقعده فى
ميدان السلاح وبنديته بين ساقيه يتطلع إلى الناس بمقت ونفور شديدين ،
لم يكن يتحدث أو يوجه التحية لأحد وإذا نظر إليه شخص يتجاهله وكأنه
لا يعرف الناس .

كان حينذاك عندما قتل صهره ، عازف المندولين .
سولت لـ « ناتشيتو » نفسه بالذهاب إليه ليلا ، قبل الثامنة بقليل ، أثناء
دقّ الأجراس لنوبة « صعود الأرواح » ، لكى يعزف له إحدى أغاني
المساء . سُمعت الصرخات حينئذ ، وعلى إثرها ترك المصلّون الكنيسة
وهرولوا إلى هناك حيث شاهدوهما « ناتشيتو » مستلقياً على الأرض يدافع
عن نفسه بآله المندولين و « الأوربانو » يسدد له بكعب البندقية الموزر
ضربات متتالية دون أن يتبّه ، من شدة الغضب ، لصرخات الناس وكأنه
كلب مسعور .

إلى أن انثـل من بين الجموع رجل غريب ، ليس من هنا ، وهجم عليه وانتزع منه البندقية وضربه بها على ظهره فسقط ممدداً على مقعد الحديقة .

تركوه فى مكانه طيلة الليل ، لكنه غادر البلدة فى الصباح الباكر . يقولون إنه ذهب إلى الكنيسة قبل رحيله وطلب المغفرة من القسيس لكنه رفض أن يباركه .

قبضوا عليه فى الطريق . كان يعرج ، ولما جلس ليستريح وصلوا إليه . لم يقاوم . يقولون إنه هو الذى قام بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التى حازت إعجابه لكى يعلقوه عليها . لابد وأنتك تتذكره ، كنا زميليه فى المدرسة وعرفته مثلى .

أُتسمع نُباح الكلاب ؟

- أنت ، يامن تجشّم هناك فوق ، « إجنائيو » ، أخبرنى إذا كنت تسمع شيئاً أو تلمح ضوءاً من أية جهة .
- لا يُرى شيء .
- لا بد أن نكون قريبين .
- نعم ، لكن لا يُسمع شيء .
- انظر جيداً .
- لا يُرى شيء .
- مسكين ، يا « إجنائيو » .

استمر الخيال الطويل والأسود للرجلين يتحرك صعوداً وهبوطاً ، يتسلق الحجارة ، يصغر ويكبر تبعاً لتقدمه على شاطئ النهر الصغير . كان خيالاً واحداً ، يتأرجح . كان القمر يتصاعد من الأرض مثل كتلة مستديرة من اللهب .

- المفروض أن نكون قد وصلنا الآن إلى تلك القرية ، يا « إجنائيو » . أنت يا من لا يعوق أذنك عائق هناك فوق ، أرهف السمع ، وانظر إذا كان يصل إليك نباح الكلاب . تذكر أنهم أخبرونا بأن « تونايا » تقع خلف الجبل بقليل ، وها نحن أولاء قد تركنا الجبل منذ ساعات .

لاتنسَ ، يا « أجناثيو » .

- لم أنسَ ، لكننى لا أرى أثراً لشيء .

- التعب يقصم ظهرى .

- أنزلنى .

نكص العجوز على عقبه حتى أسند عجزه على الحائط الكبير للوهدة ، وهناك عدل حمولته دون أن يلقيها على الأرض ، لم يفكر فى الجلوس رغم ساقية الخائرتين ، لأنه لو فعل لما استطاع من جديد رفع جسد ابنه الذى عاونه آخرون ، قبل ساعات ، فى تحميله على ظهره . ومن وقتها وهو يسير به هكذا .

- كيف حالك ؟

- فى غاية السوء .

كان يتحدث قليلا . كل مرة أقل من سابقتها . تمر عليه أوقات يبدو فيها نائماً ، وأوقات أخرى يتملكه البرد . كان يرتجف . كان يستدل على الوقت الذى تملك فيه ابنه القشعريرة من هزأته له ومن رجليه الملتصقتين بجنبه كالمهسمازين ، وأيضاً من يديه الملفوفتين حول عنقه عندما تحركان رأسه حركات توقعية كما لو كانت صنوج دف .

كان يجرّ على أسنانه حتى لا يعض لسانه وعندما يذهب هذا عن ابنه يسأله :

- تؤلك جراحك كثيراً ؟

- شيء من هذا القبيل - كان يجيب .

قال له في البداية : « أنزلنى هنا اتركنى هنا اذهب وحدك . سألحق بك غداً أو عندما أسترده بعض عافيتى » . طلب منه هذا ما يقرب من الخمسين مرة ، أما الآن فلم يعد يقوى حتى على مجرد طلب هذا .

كان القمر هنالك . فى مواجهتهما ، قمر كبير ملون يغمر عيونهما بالضوء ويبلغ فى مطّ وتساويد خيالهما على الأرض .

- لا أرى موضع قدمى ولا أدرى إلى أين ياخذانى - قال العجوز .
لم يجبه أحد .

الآخر كان معتلياً هناك فوق ، ملفوفاً كله بنور القمر ، بوجه ممتقع ، يخلو من قطرة دم ، عاكساً ضوءاً معتماً . وهو هنا تحت .
- ألم تسمعنى ، يا « إجنائيو » ؟ أقول لك إننى لا أرى أمامى .
ظل الآخر صامتاً .

واصل سيره متعثراً ، كان ينكمش ثم يفرد قامته ليعود للتعثر من جديد .

- ليس هذا هو الطريق . أخبرونا أن « تونايا » على مرمى حجر بعد الجبل ، وها نحن أولاء قد تركناه وراء ظهرينا ولم تظهر « تونايا » ولا يسمع صوت يستدل به على قربها . لماذا تستكف عن إخبارى بما ترى ، أنت يا من تجثم هناك فوق ، « إجنائيو » ؟

- أنزلنى ، يا أبى .

- أتشعر بألم ؟

- نعم .

- سأوصلك إلى « تونايا » مهما بُعِدَت الشُّقَّة . سأجد هناك من يعتنى بك . يقولون إن بها طبيبًا ، وسأحملك إليه ، احتملتك ساعات لآتى بك ولن أتركك طريقًا هنا لينال منك أعداؤك .

ترنح قليلًا . خطا خطوتين أو ثلاثة يُمنّة ويسّارا ثم نصب قامته من جديد .

- سأحملك إلى « تونايا » .

- أنزلنى .

خرج صوته ضعيفًا ، قريبًا من الهمهمة .

- أريد الاضطجاع ولو قليلًا .

- نم حيث أنت ، فأنا أمسك بك جيدًا .

كان القمر يواصل صعوده ، بلون يقترب من الزرقة ، فوق سماء صافية . غمر الضوء وجه العجوز المبلل بالعرق . أغمض عينيه لكى لا ينظر أمامه ، إذ لم يكن باستطاعته طأطأة الرأس الذى تشبث به يدا ابنه .

- لا أفعل هذا من أجلك ، بل من أجل المرحومة والدتك . أفعله فقط لأنك كنت ابنها ، كانت ستؤنبنى لو تركتك ممددًا هناك ، حيث وجدتكَ ، ولم أَلَم شعثك وأحملك لمن يداويك ، كما أفعل الآن ، هى التى تبث فى روح العزيمة ، وليس أنت . لا أدين لك إلا بالمتاعب الجمّة والتلظى بنيران العذاب وحمرة الخجل .

كان يتفصد عرقًا أثناء كلامه ، لكن هواء الليل كان يتكفل بتجفيف عرقه ، ويعود ليعرق من جديد فوق عرقه الجاف .

- سينكسر حُقي ، لكنى سأصل بك إلى « تونايا » لكي يعالجوا هذه الجروح التى أحدثوها بك . وأنا على يقين بأنك ستعود سيرتك الإجرامية الأولى بمجرد أن تُشفى . لن يهمنى هذا ، مادمت ستبتعد عني وتنقطع أخبارك .

ما دمت . . . لأننى لم أعد أشعر بينوتك . لقد دَنَسْتُ الدم الذى يسرى فى عروقك منى ؛ لهذا لعنت الجزء الذى يخصنى فيك . دعوت الرب أن : « يفسد ما تحتوى عليه كليتك من دمي » . قلت هذا بعد أن عرفت أنك تقطع الطرق ، وتعيش على السرقة وإزهاق أرواح الناس . . . المسالين الطيبين ، وإلا ، فماذا تقول فى أبى من العِماء « ترانكيلينو » . الذى عَمَّدَكَ أنت الآخر وأعطاك اسمه ، ومع هذا لم تتورع عن قتله . من يومها قلت لنفسى : « هذا لا يمكن أن يكون ابنى » .

- انظر حواليك لعلك ترى أو تسمع شيئًا . تستطيع فعل هذا من علٍ حيث تجلس ، لأننى بدأت أشعر بالصمم .

- لا أرى شيئًا .

- عاقبة هذا وخيمة بالنسبة لك ، يا « إجناثيو » .

- أنا عطشان .

- تحمل . لابد أننا قريبان الآن ، نحن فى الهزيع الأخير من الليل
ولابد أنهم أطفالوا أنوار القرية ، لكن ، على الأقل ، لابد وأن يكون قد
تناهى إلى أذنك نباح الكلاب . أرهف السمع .

- أعطني ماءً .

- المكان يخلو من الماء . لا توجد سوى الحجارة . تحمل ، وحتى لو
كان الماء موجوداً فلن أنزلك لتشرب ؛ لأنه لا يوجد أحد يساعدنى فى
حملك ثانية وأنا وحدى لا أقدر .

- العطش يقتلنى والنعاس يُثقل رأسى .

- أتذكر أنك منذ ولادتك كنت هكذا ، كنت تصحو من نومك
جائعاً وتأكل ثم تعود للنوم . كانت أمك تعطيك ماءً بعد أن تُفرغ ما فى
صدرها من لبن ، لم تكن تمتلىء ولا تشبع قط . وكنت غضوباً وحنقاً ،
ولم أتخيل مطلقاً أن يصعد الحنق إلى رأسك بمرور الأيام . . . لكن هذا ما
حدث ، وأمك ، عليها الرحمة ، كانت تريد تنشئتك قوى البنية . كانت
تعتقد أنك ستكون سندها عندما تكبر . لم يكن لها غيرك . الابن الثانى
الذى كانت ستلده قتلها ، وكنت ستقتلها ثانية لو عاشت وشاهدت ما أنت
فيه .

أحس بتراخى ركبتى ذلك الرجل المُعتلى ظهره وبعدم تحكمه فى
قدميه وبشروعه فى التمايل جهة اليمين وجهة اليسار ، وبدا له أن الرأس
الموجودة هناك فوق تنتفض وكأنها تنتحب .

أحس بتساقط قطرات سميكة فوق شعره ، مثل الدموع .

- أتبكي ، يا «إجنائيو» ؟ أهاجت مشاعرك ذكرى والدتك ، حقًا ؟
لكنك لم تُسدّ لها أى معروف ، لم نلقَ منك إلاجزاء سنمار . يبدو أننا ،
بدلاً من الحنان ، ملأنا بالشر جسدك . ألا ترى ؟ لقد أثخنوك بالجراح .
وماذا جرى لأصدقائك ؟ قتلوهم عن بكرة أبيهم . لكنهم مقطوعين من
شجرة ، دون أهل . وكأن لسان حالهم يقول : « لا يوجد من يهتمه أمرنا
أو يحزنه مصيرنا » . أما أنت ، يا «إجنائيو» ، أنت ؟



هاهي القرية . شاهد أسقف المنازل وهي تلمع تحت ضوء القمر .
تولد لديه الانطباع بأن ثقل ابنه يسحقه عندما أحس بانثناء مفاصله تحت
وطأة آخر مجهود عليه أن يبذله . عندما وصل لأول بيت مال على حافة
الرصيف وألقى بالجسد المُنْهَك المُفَكَّك الأوصال .

تخلص بصعوبة من أصابع ابنه التي كانت متشبثة بعنقه ، وعندما
تحرر من حمولته خال أن نباح الكلاب يأتي من جميع الاتجاهات .

- ألم تكن تسمعها ، يا «إجنائيو» ؟ - قال - . إنك لم تساعدني
حتى بهذا الأمل .

يوم الزلزال

- وقع هذا فى شهر سبتمبر من العام الماضى ، أم أنه كان فى العام ما قبل الماضى ، يا « ميليتون » ؟
- بل الماضى .
- نعم . مازلت أتذكر جيداً . حدث فى سبتمبر من العام الماضى ، فى اليوم الحادى والعشرين . اسمع ، يا « ميليتون » ، ألم تحدث الرجفة اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر ؟
- حدثت قبله بقليل . ما أعرفه أنها وقعت فى اليوم الثامن عشر .
- عندك حق . أنا كنت ، بالفعل ، خلال تلسك الأيام فى « توثكاكويكسكو » ورأيت بعينى رأسى كيف تهاوت البيوت وكأنها مصنوعة من الحلوى ، بمجرد أن انشئت وعوّجت قسماتها جاء عاليها سافلها . كان الناس يخرجون مذعورين من تحت الأنقاض ويجرون وهم يصيحون نحو الكنيسة مباشرة . لكن ، انتظر . يبدو لى أنه لاتوجد كنيسة من أى نوع فى « توثكاكويكسكو » . أليس كذلك ، يا « ميليتون » ؟
- لاتوجد بالفعل . ليست هناك سوى أطلال يقولون إنها كانت لكنيسة قبل مائتى سنة تقريباً ؛ لكن لا أحد يتذكرها ، ولا يتذكر كيف كانت ، الأطلال الباقية هناك تشبه حظيرة منسية موبوءة بنباتات الخروج .

- لأفُضّ فوق . الزلزال لم يسق ، بالتالى ، وأنا فى « وثكاكويكسكو » بل فى « ألبوتشيتى » دون شك . لكن ، أليست « ألبوتشيتى » قرية معظم سكانها من مربى الماشية والقطعان ؟

- نعم ، إنها تبعد قليلا عن « ألكاترائيس » ، وبها مُصلّى صغير يطلقون عليه كنيسة .

- هى ، إذن ، التى لحقنى فيها الزلزال الذى أحدثكم عنه ، عندما ارتجفت الأرض بكاملها وكأنهم يهزون باطنها . بعد أيام قليلة ؛ لأننى أذكر أننا كنا لانزال مشغولين برفع الحوائط من جديد ، جاء الحاكم ليتفقد الموقع وليرى ما يمكن أن يسديه حضوره من صنع . تعرفون ، حضراتكم . أن مجرد حضور الحاكم ورؤية الناس له كاف لأن يبقى كل شىء على ما يُرام . لبّ القضية يكمن - على الأقل - فى قدومه لرؤية ما يحدث ، لا أن يظل حبيس قصره مكتفياً بإصدار التعليمات . وبمجرد أن يأتى يبقى كل شىء تمام ، والناس ، الذين خرّت أسقف بيوتهم فوقهم يتملكهم الحبور للتشرف بطلعته البهيّة . أليس هذا بصحيح ، يا « ميليتون » ؟

- كل الصحة .

- حسناً ، كما كنت أقول لكم ، فى سبتمبر من العام الماضى ، بعد وقوع الهزة الأرضية بقليل ، هبط علينا الحاكم ليتفقد آثارها . لاتظنوا أنه جاء بمفرده ، بل كان بصحبته علماء جيولوجيا وآخرون عُرفاء ببواطن الأمور . اسمع ، يا « ميليتون » ، كم كلفنا إطعام حاشية الحاكم من أموال ؟

- أربعة آلاف « پيزو » تقريباً .

- هذه نفقات نهار واحد لأنهم انقشعوا عندما حلّ المساء ، ولو بقوا أكثر من هذا لما استطاع أحد تقدير الخسائر التي كانت ستتحقق بنا ، ومع هذا كانت الفرحة الغامرة تعلو كل الوجوه : أنهك الناس رقابهم من كثرة مدّها للتمكن من رؤية الحاكم ومن انهمار سيل تعليقاتهم عن كيفية ازدراده للديوك الرومي ومصمصمة عظامها وعن سرعة التهامه لأقراص الذرة ، قرصاً بعد آخر ، بعد غمرها بصلصة « الجواكامولى » * ؛ لقد أمعنوا النظر فى كل شاردة وواردة . كان فى غاية الهدوء والجدية أثناء تنظيفه ليديه فى الجوارب حتى لا يوسخ المنشفة التى استخدمها فقط ، ومن حين لآخر ، لإزالة الغبار من على شاربه . وبعد ذلك ، عندما صعد تأثير نبيذ غرناطة إلى رءوسهم شرعوا فى الغناء بصوت واحد . اسمع ، يا « ميليتون » أتذكر الأغنية التى ظلوا يكررونها كالأسطوانة المشروخة ؟

- تلك التى يقول مطلعها ! « لاتشعل البال بنوائب الأيام » .

- (عفارم) عليك ، يا « ميليتون » . لا يفوتك شىء . نعم ، كانت هى ، ولم يكن للحاكم من عمل سوى الابتسام ؛ سأل عن دورة المياه ، ولما انتهى عاد لإحتلال موقعه ثم مد أنفه للاستمتاع برائحة « بوكيه » الفلّ الموجود أمامه فوق المائدة . كان ينظر مبتسماً

* الجواكامولى (guacamole) : صلصة تتكون من : كمثرى التمساح ، الملح ، البصل ، الفلفل الحار والجبن المبشور (المترجم) .

إلى المغنين ويحرك رأسه متبعاً نغمات اللحن . لامراء فى أنه كان متشياً وسعيداً لسعادة شعبه ؛ ولم لا ، وقد كان بالإمكان قراءة ما يعتمل فى صدره من مجرد النظر إليه . ولما حانت ساعة الخطب وقف واحد من مرافقيه ، ذو وجه شامخ على صفحته اليسرى أثر اعوجاج ، وتكلم . لاشك فى أنه كان يحفظ عن ظهر قلب كل كلمة يقولها . تحدث عن « خواريث » الموجود عندنا فوق قاعدة بالميدان ولم نكن حتى تلك اللحظة نعلم أنه تمثال « خواريث » ، ومن أين لنا بالمعرفة ولم يسبق أن استطاع أحد الإدلاء بأية معلومة عن ذلك الشخص المتسلق لتلك القاعدة الحجرية . اعتقدنا دائماً أن صاحب التمثال يمكن أن يكون « هيدالجو » أو « موريلوس » أو « بيتو ستيانو كارانثا » ، لأننا ظللنا نحتفل سنوياً بذكرى كل واحد من هؤلاء الثلاثة عند القاعدة نفسها ، إلى أن جاء ذلك الرجل الأنيق وأخبرنا أن التمثال يخص « دون بينيتو خواريث » . ياه ! على الكلام الذى قاله . أليس هذا بصحيح ، يا « ميليتون » ؟ لا بد وأن ذاكرتك القوية مازالت تحتفظ بما تشدق به ذلك الرجل .

- أتذكره بجلاء ؛ لكننى سئمت من كثرة تكراره .

- حسنا ، وإن كنت بهذا قد فوت على هؤلاء السادة سماع شيء منقطع النظر ، لكننى فى المقابل أطالبك بأن تعيد على مسامعهم ما قاله الحاكم .

« ما يدعو للدهشة أن ذلك قد تحول من زيارة لمواساة الموجهين والذين فقدوا ديارهم فى الزلزال إلى حفلة سكر وعريضة . تذكر أن فرقة تيبك الموسيقية جاءت متأخرة عن موعد لها لشغل حاشية الحاكم لجميع السيارات مما اضطر أفرادها لقطع المسافة سيراً على الأقدام .

دخل الموسيقيون القرية وهم يقرعون أدواتهم بكل ما أوتوا من قوة . كانت الطبول الضخمة والأبواق تصدر أصواتاً مزعجة ، بينما لم تكف الصنوج النحاسية الكبيرة عن الزعيق : « تاتا تشوم ، تشوم ، تشوم ، تشوم » . *

أما عن الوليمة فحدث ولا حرج ، عندما بدأت خلع الحاكم سترته وأرخى رباط عنقه ، وبعد ذلك لم يعد فى وسع أحد إيقافها . كانوا محاطين بدنان لا حصر لها من النيذ وأقبلوا على التهام لحم الأيائل بشراهة ، قد لا تصدقون أنه لم يدر بخلد أحدهم أنه كان يأكل لحم أيائل مما تغص بها المنطقة . كنا نضحك عليهم عند سماعهم وهم يقولون إن لحم « البارباكوا » ** لذيذ للغاية ؛ لأننا لانعرف هنا حتى ما تعنيه هذه الكلمة . ما عرفناه بالفعل وتأكدنا منه هو أننا كنا بمجرد أن نقدم لهم صينية مملوءة باللحم يطلبون غيرها وغيرها لدرجة أن طاقم الخدمة تفرغ لإحضار المزيد من الصوانى ؛ وكما قال « ليوريو » ، موظف الطوابع الأميرية ، وأنا أضع كلامه بين قوسين لأننى أتذكره بالحرف الواحد : « لتكلف هذه الحفلة ما عليها أن تتكلفه ، فالمال لا بد وأن تكون له فائدة » ؛ وبعد ذلك جاء دورك يا « ميليتون » ، وكنت وقتها رئيس المجلس المحلى ، لتقول ماأزعجنى وأثار استغرابى :

* « تاتاتشوم ، تشوم ، تشوم » : الأصوات التي تصدرها تلك الآلة الموسيقية .

** البارباكوا (Barbacoa) ، نوع جيد من اللحم المشوى لاتعرفه إلا الطبقات الغنية الراقية . (المترجم) .

« ليجرى النبذ كالأنهار ، فزيارة كهذه تستحقه » . وبالفعل سال النبذ ، وهذه هي الحقيقة التي لاتشوبها شائبة ، لدرجة أن المفارش قد أحمرّ لونها . بدأ هؤلاء الناس وكأن بطونهم لاتعرف الامتلاء . لاحظت أن الحاكم لم يكن يتحرك من مكانه ؛ لم يكن يمد ولاحتى يديه ، بل اقتصر فقط على ازدراد الطعام وتجرع كل ما يقربونه منه ؛ ولم يدخر المنافقون والأفاقون وسعاً في تعبئة طاولته بكل ألوان الطعام حتى لم يعد بها متسع للملاحة التي حملها الحاكم فى يده وعندما لم يجد لها مكاناً اضطر لوضعها فى جيب قميصه . عرفت هذا مصادفة عندما تقدمت إليه وسألته : « ألا تريد ملحاً ، سيدى الجنرال ؟ » ، فما كان منه إلا أن أشار ، مبتسماً ، إلى الملاحة القابعة فى جيب قميصه .

أما العظمة فقد تجلّت عندما شرع فى الكلام . وقفت شعور رءوسنا من شدة التأثير والانفعال . أخذ ينهض رويداً رويداً ، ببطء شديد ، حتى شاهدناه وهو يدفع الكرسي برجله إلى الوراء ؛ يحنى رأسه وكأنه يستعد للإقلاع ثم نحنخته التى أسدلت ستر الصمت على المكان . ماذا قال ، يا « ميليتون » ؟

- « الأخوة المواطنون - قال - اجتماعى بكم اليوم يعتبر تتويجاً لمشوارى الحافل ، ويحيى الآمال فى تنفيذ الوعود التى قطعناها على نفسى . لقد شرفت من قبل بزيارة هذه الأرض وقت أن كنت زميلاً مجهولاً لمرشح الرئاسة ومستشاراً عاماً لذلك الرجل الذى لم تنسلخ أبداً نزاهته عن مضمون تصريحاته السياسية التى تنطلق من قاعدة صلبة قوامها المبادئ الديمقراطية ذات الصلة الوثيقة بنبض الجماهير ، والتى تمزج فى بوتقة واحدة التقشف وخلاصة المثالية الثورية المترعة ، حتى الآن وبشكل لم يسبق له مثيل ، بالإنجازات والقرارات الصائبة » .

- تعالت الأكف بالتصفيق هنا ، أليس كذلك ، يا « ميليتون » ؟

- نعم ، كان تصفيقًا حادًا . تابع بعد ذلك :

« وكما ترون ، يا إخواني ، فإن سياستي مضت قدمًا الى الأمام دون تحريف أو زيغ . عندما كنت مرشحًا لم أسرف في الوعود ؛ لأنني قطعت على نفسي عهدًا بالأعداء بما يمكن تنفيذه وأن يكون هدف الإنجازات الصالح العام لا المصلحة الفردية أو مصلحة فئة بعينها . وهانحن نجتمع اليوم لجابهة كارثة طبيعية لم يتوقعها برنامج الحكومة .

« تمامًا ، سيدى الجنرال - صاح واحد من هناك - . تمامًا ، قلت هذا وقولك الحق » .

« . . . وفي هذا المقام لا أخفى عليكم أننا بمجرد أن علمنا بعقاب الطبيعة هذا سارعنا بالحضور ، واللوعة تعتصرنا ، إلى ثورة الحدث الذى خرب ديارا كان يمكن أن تكون ديارنا ، بل إنها كذلك بالفعل ؛ ونحن نجتمع هنا ، لابدافع النزوة « النيرونية » * للتشفي والاستمتاع بمآسى الغير بل لمديد العون وللإعلان عن استعدادنا الوشيك بتوحيد الجهود للبدء فى العمل من أجل إزالة آثار الزلزال ، ولتقديم واجب العزاء الأخوى للبيوت التى فتّ الموت فى عضدها . هذا المكان الذى كان يرقل فى حلل السعادة عندما زرته منذ سنوات ، عندما لم يكن لى فى السلطة مطمع ، يحزننى ويزلزل كياني رؤيته الآن فى ملابس الحداد . نعم ، يا إخوانى المواطنين ، تلهبنى سياط جراح الأحياء الذين ضاعت ممتلكاتهم وأثبات أولئك الذين فقدوا ذويهم تحت هذه الأنقاض الماثلة أمام أعيننا » .

* نسبة إلى « نيرون » ، الامبراطور الذى حرق روما وجلس فوق إحدى القمم القريبة ليستمتع بمشاهدة النيران (المترجم) .

- هنا حدث أيضا تصفيق ، أليس كذلك يا « ميليتون » ؟

- لا ، بل سُمعت من جديد الصيحة السابقة : « تمام ، سيدى الحاكم ! قلت هذا وقولك الحق » . وبعدها قال واحد من هناك : « أسكتوا هذا المخمور » .

- آه ، فعلا . كما بدت بوادر شغب فى الصفوف المواجهة للمنصة الرئيسية ، لكن الهدوء سرعان ما خيم على الجميع عندما استأنف الحاكم حديثه .

« أهالى توثكاكويكسكو » الكرام ، يلح على الإفصاح عن ألى لنكبتكم ، فبالرغم من مقولة « بيرنار » الشهيرة ، « بيرنار ديث دل كاستيو » العظيم : « الرجال الذين لقوا حتفهم كانوا على موعد مع الموت » ، إلا أن الوازع الإنسانى والتبحر فى علم الأحياء يحملانى على تجاوز هذه العبارة لأهتف من صميم قلبى : يؤلنى بشدة ما حدث ألما يضارع الألم الناجم عن رؤية شجرة اجتثت من جذورها وهى فى ريعان الصبا . سنساعدكم بما لنا من سلطة ، ولا أذيع سرا إن أشرت إلى أن جميع أجهزة الدولة وعلى رأسها المسئول الأول تعبىء كل قواها من أجل نجدة المضارين فى هذه المذبحة التى لا يتمناها أحد ولم يسبق لها مثيل ، وأنا من هذا المكان أجدد الوعد بالوفاء بما قطعته على نفسى قبل انتهاء مدة رئاستى . ومن جهة أخرى ، لا أعتقد أن إرادة الله لها دخل فى هذه البلوى التى حلت بكم وخربت دياركم . . . » .

- كان هذا آخر كلام سمعته منه . ما قاله بعد ذلك لم أفهمه لأن الجلبة التي انطلقت من الصفوف الخلفية علت وارتفعت وأصبح من العسير متابعة باقى الخطبة .

- فى غاية الصحة ، يا « ميليتون » ، فأنت لم تكن قريباً من تلك الصفوف لترى ما حدث ، ولذا سأحاول أن أسرد عليك كل وقائعه . حدث أن الشخص نفسه ، وهو من الحاشية ، أخذ يزعم من جديد : « تماماً ! تماماً ! » بصوت كالرعد كان يصل إلى الشارع . وعندما تكاثروا عليه وأسكتوه سحب مسدسه وأخذ يقذفه فى الهواء ، من فوق رأسه ويتلقفه ليطلق الرصاص تجاه السقف ثم يعود ليقذفه ويتلقفه ، وهكذا دواليك حتى أفرغ خزانة المسدس . كل من كان قريباً منه ورأى هذا المشهد البهلوانى أطلق ساقيه للريح فرارا بجلده . انكفأت الطااولات من جراء الركض العشوائى وارتفع صوت تكسير الأطباق والزجاج وتهشم الزجاجات التى كانوا يلقونها على صاحب المسدس وكانت تتعداه لترطم بالحائط . والآخر ، الذى كان مازال لديه وقت لاستبدال الخزانة بأخرى مملوءة شرع فى إفراغها بالطريقة نفسها بينما كان يتطوح يُمْنَةً ويساراً متفادياً الزجاجات الطائرة المُسدَّدة إليه من كل حذب وصوب .

« لو شاهدتم الحاكم لرأيتموه واقفا هناك وقد علاه التجهم ، ينظر إلى مصدر الشغب وكأنه يريد أن يخمدته بنظرته .

« لا أحد يدرى من الذى استنجد بالموسقيين وطلب منهم عزف أية مقطوعة ، المهم أنهم انبروا فى عزف « النشيد الوطنى » بكل ما لديهم

من قوة لدرجة أن الطبول كانت على وشك الانفجار من شدة الخط ، لكن جهودهم ضاعت سدى واستمر الوضع على ما كان عليه . ولم يقتصر الأمر على الشغب المشتعل بالداخل ، بل نشبت في الشارع أيضاً معركة طاحنة . جاءوا ليخبروا الحاكم بوقوع اشتباك بالسَّنج بين لفيف من المواطنين ؛ كان الخبر صادقا تماما لأننا كنا نسمع من مكاننا هنا أصوات النساء وهى تولول قائلة : افصلوا بينهم ، لأنهم سيقتلون بعضهم ! ولم تكد تمر دقائق معدودات حتى سمعنا صرخة أخرى تقول : لقد قتلوا زوجي ! اقبضوا عليهم ! . ظل الحاكم واقفا في مكانه ، دون أن يتململ . أسمع ، يا « ميليتون » ، أتعرف الكلمة التى تقول . . .

- رباطة الجأش .

- نعم هى ، رباطة الجأش . المهم أن الشغب الذى جرى فى الخارج كان سببا ، على ما يبدو ، فى عودة الهدوء إلى الداخل . كان مخمور الـ « تماما . . . » نائما ، أصابته إحدى الزجاجات الطائرة وبقي مستلقيا على الأرض بكامله . اقترب منه الحاكم حيثئذ وأخذ المسدس الذى كان لا يزال قابضا عليه بكلتا يديه تحت تأثير الإغماء . أعطاه لآخر ثم قال له : « عليك به وأشرف بنفسك على إلغاء ترخيص حمله للسلاح » ، وأجاب الآخر : « أمرك ، سيدى الجنرال » .

« لا أدري لماذا استمرت الفرقة الموسيقية فى عزف « النشيد الوطنى » إلى أن قام الرجل الأنيق ، الذى تحدث فى بدايه الحفل ، برفع يديه مطالبا بالتزام الصمت حداذاً على أرواح الضحايا . اسمع ، ياميليتون ، أى ضحايا كان يقصد عندما طلب منا الصمت ؟

- ضحايا الهزة الأرضية .

- حسنًا ، كان لضحايا الزلزال إذن . جلس الجميع بعد ذلك وعدّلوا الموائد ثانية وواصلوا احتساء النبيذ وغناء تلك الأغنية : « لاتشغل البال بنوائب الأيام » .

أتذكر للآن أن حادثة الشغب تلك ، جرت فى الحادى والعشرين من سبتمبر ؛ هذا لأن زوجتى وضعت ابنتا « ميريتشو » فى ذلك اليوم نفسه ، وأنا وصلت الى البيت فى الهزيع الأخير من الليل فى حالة أقرب للسُّكْر منها الى الفُوقان . خاصمتنى ولم تكلمنى لأسابيع طويلة متهممة إِيَّاي بتركها وحيدة ساعة الجلد . ولما ذهب عنها الغضب قالت لى إننى كنت عديم المروءة ؛ لأننى لم أساعدها حتى ولو بطلب الدّاية وأنها عندما لم تجد مخرجًا توكلت على الله ، الذى لم يخذلها ، واعتمدت على نفسها .

تَرْكَة « ماتيلدي أركانخل »

فى « كوراثون دى ماريا » كان يعيش ، منذ زمن ليس ببعيد ، أب وابن يطلق الناس عليهما لقب « لوس إيريميتس » ؛ ربما لأن الاثنين كانا يسميان « إوريموس » : الأول ، « إوريمو ثيديو » ؛ والثانى ، « إوريمو ثيديو » أيضاً ، ومع هذا فقد كان التمييز بينهما فى غاية اليسر ، ذلك لأن الأول كان يتقدم الثانى بخمس وعشرين سنة مستوفاة بكاملها .

يكمن الاستيفاء فى ما مَنَّ به الخالق على « أوريمو » الكبير من طول قامة ومثانة بنيان . وعلى خلاف هذا شاءت حكمة الرب أن تصوغ الصبى على صورة مناقضة تماماً ، حتى أنها تنسحب كذلك على العقل والفهم . وعلاوة على النحافة التى تكبل الفتى فقد كان يعيش ، إذا كان لا يزال ينعم بالحياة ، مطحوناً طحن حجر بالكراهية ؛ والحق الذى لامرأ فيه أن نكبته تتمثل فى قدره الذى ألقى به فى خضم الحياة ذاتها .



كان أشد الناس له بغضاً والده ، أو على الأصح أبى من العماد ؛ لأننى من عمِّد له الصبى ، ويبدو أن ما فعلته كان مجازفة بكل المقاييس نظراً لقامته ، . كان رجلاً ضخماً الجثة ، بلغ من الضخامة مبلغاً يجعل من

الشجاعة أمرا لاغنى عنه للوقوف إلى جواره ولاختبار قوته ولو بمجرد النظر . وإذا حدث ووجه إليه أحد نظرة ، فإنه كان يعتبرها صادرة عن سوء طويّيه أو للزراية به . لم يكن للناس من حديث فى « كوراثون دى ماريا » والمناطق المجاورة إلا عن الحالة الفريدة لرجل لايتوقف عن النمو إلى أعلى ، فى حين أنهم يتميزون هناك بالقصر والنماء بالعرض ؛ لقد كان معروفاً أن تلك النواحي هى منبت قصار القامة ، وإن القصر هو سمّت أناسها حتى فى الطبائع .

أرجو ألا يشعر بالإهانة أحد الحضور لو تصادف وكان من هناك ، وإن كنت لا أريد قيد أمثلة عن رأيى .

والآن أعود إلى حيث توقفنا ، إلى بداية حديثى لكم عن بضعة أشخاص كانوا يعيشون حتى وقت قريب فى « كوراثون دى ماريا » . كان « إورييمو » الكبير يمتلك ضيعة يطلقون عليها « لاس أنيماس » ، أخذت أطرافها تتآكل بمرور الأيام نتيجة للعديد من أوجه الخلل ، وعلى رأسها اللامبالاة وعدم الحرص ، إذ لم يرد بخاظره بتاتاً ترك شىء لابنه ، وهو ابنى من العماد كما سبق وأخبرتكم . احتساها بكاملها فى أقذاح العرقى الذى كان يحصل عليه ببيع أرضه قطعة قطعة ويقصد ألا يجد الفتى عندما يكبر ما يعينه على التثبيت بالحياة . وقد تحقق له ، تقريباً ، ما كان يصبو إليه . فإذا كان الابن قد استطاع ، فى غير قليل من العنت ، الارتفاع قليلا عن الأرض فإن الفضل فى ذلك يرجع لبعض المحسنين الذين ساعدوه على أن يقيم أودّه ؛ فلم يكن أمره يعنى والده الذى كان يبدو وكأن الموت أهون عليه من مجرد رؤيته .

لكى نستوعب كل هذا لامناص من العودة الى الوراء ، إلى ما قبل ولادة الفتى بكثير ، وربما إلى ما قبل تَعَرُّف « إورييو » نفسه على من ستكون والدته .

الأم هي « ماتيلدى أركانخل » . وبين قوسين أضع أنها لم تكن من « كوراثون دى ماريا » ، بل من مكان قصي يدعى « تشوپا ديروس » ، لم يذهب إليه أبداً « ثيديو » هذا وربما اقتصرت معرفته له على ما كانت تتناقله الألسن . فى ذلك الوقت كانت خطيبتى ؛ لكن الواحد لا يدرى ما تخبئه له الأقدار ، وهكذا فعندما قدّمته للفتاة ، قاصداً - من جهة - الزهو عليها ولأستحثة - من جهة أخرى - على التطوُّع بوكالة حفل الزفاف ، لم يدر بخلدى أن نبع مشاعرها تجاهى سينضب سريعاً ولا أن تنهيداتها الحارة سيعتورها البرود أو أن آخر سيفوز بقلبها .

- عرفته بعد ذلك .

ومع هذا ، أرى من الواجب قطع الاستطراد لأحدثكم عن « ماتيلدى أركانخل » وأعرفكم من تكون ، وهذا ما سأفعله فى التَّوَّ . سأحكى لكم دون عجلة . بروية . فليس لدينا ما نخسره وأمامنا حياة بأكملها تنتظر .

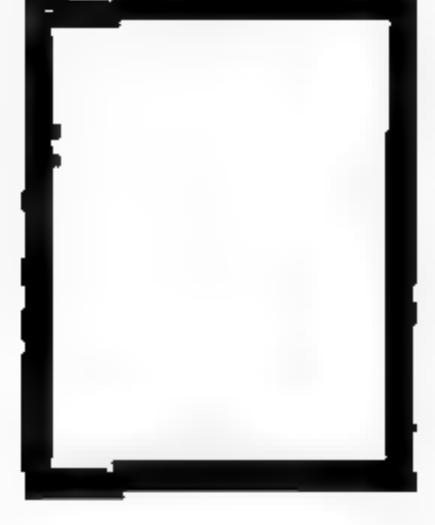
هى ابنة السيدة « سينيسيا » ، صاحبة خان « تشوپا ديروس » ؛ مكان انشقت عنه الأرض - كما يقولون - ، وعنده كان ينتهى عملنا اليومي . وهكذا فكل بغال يطوف بتلك النواحي تنهى إليه خبرها واستطاع أن يمتع عينيه بالنظر إليها . فى ذلك الوقت كانت « ماتيلدى » ، قبل أن تحتجب ، صبية تتسلل كالماء من بيننا جميعاً .

وفى يوم لم نحسب له حسابًا ، ودون أن ندري كيف ، تحولت إلى امرأة يانعة ، نبتت لها نظرة حاملة كانت تחדش بها وترشقها داخل الواحد كمسمار يصعب اقتلاعه . اكتظت شفتاها بعد ذلك وكأنهم أزالوا نضارتهما من كثرة القُبَل . أصبحت الفتاة ، بإجماع جميع الأذواق ، آية فى الجمال . لاغضاضة فى أن يحس الواحد بأنها كثيرة عليه . تعرفون حضراتكم ، لأن هذا الواحد بغال ، لا يوجد ما يحول بينه وبين الهيام بها ، أو لكى يحدث بها نفسه أثناء طوافه بالطرق .

لكن الطرق المؤدية إليها كانت أكثر طولا من جميع الطرق التى قطعتها طوال حياتى لدرجة أننى اعتقدت أننى لن أبرأ أبداً من حبها . والمُحصَّلة ، فوز « إورييو » بها .

عندما عدت من إحدى جولاتى علمت أن صاحب ضيعة « لاس أنيماس » ابتنى بها . اعتقدت أن الطمع هو الذى جرجرها وربما ما كان عليه الرجل من ضخامة . لم أعدم أبداً تبريرات لذلك . ما آلمنى هنا فى المعدة ، المكان الأكثر تأثراً بالمواقع والاختزان ، هو نسيانها لهذه اللُمة من الشياطين الفقراء التى كانت تذهب لرؤيتها والهجعان تحت لفح نظراتها ، وعلى وجه الخصوص أنا ، « تراتكيلينو إيريرا » ، خادمكم الأمين ، والذى عاهدته بالقبل والأحضان وزيادة . وبالرغم من هذا فلو تدبرت الأمر ملياً لأدركت أن الإحساس بالجوع كفىل باستعداد أى حيوان على المروق من سياج حظيرته ؛ وما لاشك فيه أن بطنها لم تعرف الشَّبَع كما ينبغى ، والسبب فى هذا كثرتنا التى جعلت المؤونة لا تكفى ، ولأنها - من جهة أخرى - كان دائماً مستعدة لانتزاع اللقمة من بين شفتيها وإيثارنا بها .

سمنت بعد ذلك ، وضعت مولوداً ثم ماتت ، قتلها جفول حصان .



قدمنا لتعميد المولود . أحضرته بين ذراعيها . لا أستطيع إخباركم بالتفاصيل حول أسباب وكيفية جفول الحصان ، لأن غايته هي الانطلاق صوب الأمام . أتذكر فقط أن لون الجواد كان أحمر فاتحاً . مرّ إلى جوارنا كغمامة رمادية ، ما رأيناه كان أقرب إلى الريح منه إلى الجواد ؛ وحيداً ، ملوثاً بطين يشبه طين الأرض تقريباً . تخلفت « ماتيلدي أركانخل » ، كانت مزروعة على مقربة من هناك بوجه غائص في مستنقع . ذلك الوجه الذي أحبيناه حباً جمّاً ، متوارياً الآن في الطين ، وكأنه شرق بالدم الذي كان يتدفق كالينبوع من جسدها الذي لا يزال يتفرض .

في تلك اللحظة لم تكن منّا . كانت متاعاً خالصاً لـ « إوريبيو ثيديو » ، الوحيد الذي روضها لتكون له . والأكثر من ترويضها أنه توغل فيها إلى ما هو أبعد من ضفاف اللحم ليهبها غلاماً . وهكذا فلم يكن قد تبقى لى منها ، آنذاك ، سوى الطيف أو ربما مزقة شجية من الذكرى .

ومع هذا لم أستسلم لقدرى بعدم رؤياها . سعيت لتعميد ابنهما لكي استمر بالقرب منها ، بصفة الأب من العماد ليس أكثر .

لهذا ما زلت إلى الآن أحس بذلك الهواء يمر إلى جوارى ؛ الهواء الذي أطفأ جذوة حياتها وكأنه يواصل هبوه على الواحد .

نَحَصْنِي القدر بمهمة غلق عينيها المترعتين بالماء ؛ وتعديل فمها الذي عوجته سكرة الموت : ذلك الجزع الذي انتابها وأخذ ، بالتأكيد ، يتنامى بداخلها أثناء مشوار جموح الجواد إلى أن أَحَسَّتْ بسقوطها فى النهاية . أخبرتكم أننا وجدناها مقوسة فوق الغلام . كان لحمها قد بدأ يجف ، متحولاً إلى قشرة بفعل العصاراة التي أفرزتها طوال الوقت الذي استغرقته محتتها . كانت عيناها مفتوحتين ومُسَدَّدَتين إلى الطفل . قلت لكم إنهما كانتا مخضلتين بالماء ، لاحتسبوه دموعاً ، بل ماء قدراً من المستنقع الطيني حيث انغمس وجهها . من الفرحة التي كانت تطل من عينيها بدا أنها ماتت مسرورة لأنها لم تسحق ابنها فى السَّقْطَةِ . سبق وأخبرتكم أنني تكفلت بإغلاق تلك النظرة التي ظلت تحتفظ بدعابتها التي عهدناها فيها وهى على قيد الحياة .

دقناها . ذلك الفم ، الذي كان الوصول إليه ضرب من الخيال ، لم يمانع فى الامتلاء بالتراب . شاهدنا كيف تختفى بكاملها ، خانعة ، فى أعماق الحفرة ، وتتوارى عنا هيئتها إلى غير رجعة . وهناك ، كان « إوريميو ثيديو » واقفاً مثل مشنقة هائلة . قلت لِنَفْسِي : « لو تركها وشأنها فى « تشوپاديروس » ، فلربما ظلت تنعم إلى الآن بالحياة » .

« الذنب ذنب الغلام - أخذ يقول - . لو لم يكن معها ما حدث لها مكروه » . كان يقول أن الغلام أخذ يصيح مقلداً صوت البومة ، والجواد الذي كانا يمتطيانه يفرع لأتفه الأسباب ، وأنه حذر الأم التحذير الكافى إلى حد إقناعها بمغبة السماح للصبى بإصدار هذا الصوت . كان يقول أيضاً إنه كان بوسعها حماية نفسها عند السقوط ؛ لكنها أقدمت على شيء مخالف تماماً : « قوَّست جسدها لتصنع فراغاً للصبى حتى لا تضغط عليه بثقلها . وهكذا ، فجميع الملابس تشير بإصبع الاتهام

للغلام ، الذى يطلق صغيراً يثير فزع أشجع الشجعان ، فلأجل ماذا أحبه ، ولا فائدة ترجى من ورائه . كان بإمكان الأخرى أن تهبنى أكثر وجميع الأولاد الذين أحلم بهم ؛ لكن هذا لم يترك لى حتى الاستمتاع بها . وهكذا كانت تنفلت منه أشياء وأشياء لدرجة أن الواحد أشكال عليه ولم يعد يدرى إذا كان ما يفعله نابغاً من شدة الألم أو من الإحساس بعقدة الذنب تجاهها .

ما تبين لى على وجه اليقين هو المقت الشديد الذى عشت بداخله تجاه الغلام .

وبسبب ما سرده على مسامعكم من بدايته ، استسلم « إوريبيو » للكأس وأفرط فى الشراب ، بدأ بتغيير قطع من أرضه بزجاجات العرقى ، وانتهى به الحال إلى شرائها بالبراميل . أنا نفسى ، جاء على الدور مرة لأشحن متن بغلة عن آخره ببراميل خالصة من العرقى مخصصة لـ « أوريبيو » . لقد أودع كل طاقته هنا : فى الشرب وفى ضرب ابنى من العماد حتى تكلّ يده .

وعلى هذا المنوال دارت رحى سنوات عديدة . ويرغم هذا كبر الغلام متوكئاً على شفقة بعض المحسنين ؛ لا يكاد يشد من أزره سوى فطرة حب الحياة التى اندفع بها من رحم أمه . كان يصبح كل يوم ممزقاً شراً ممزق من الأب الذى كان يعتبره ندلاً وقاتلاً ؛ وهو وإن كان قد أحجم عن قتله إلا أنه سعى ، على الأقل ، للقضاء عليه جوعاً حتى ينسيه وجوده - لكنه عاش . وعلى النقيض ، تدهورت صحة الأب بمرور الأيام ، وحضراتكم وأنا والجميع نعلم أن الزمن أشد وطأة من أى

حمل باهظ يمكن أن يطيقه كاهل الإنسان . وهكذا ، فبالرغم من استمرار تعهده لأحقاده فقد أخذت الكراهية تتقلص شيئاً فشيئاً ، إلى أن انقلبت حياته إلى وحدة تمشي على رجلين .

لم أكن أحفل بهما كثيراً . عرفت ، لأنهم قصَّوه علىّ ، أن ابني من العماد كان يعزف على القيثارة أثناء نوم أبيه من شدة السكر . لم يكن أحدهما يكلم الآخر ولا ينظر إليه ؛ ومع هذا كان صوت القيثارة يُسمع في جميع أرجاء « كوراثون دي ماريا » بعد أن يُرخي الليل سدوله ؛ وفي بعض الأحيان يستمر سماعها إلى ما بعد انتصاف الليل بشوط طويل .

حسناً ، حتى لا أطيل عليكم، ذات يوم هادئ ، من تلك الأيام التي تفيض بها هذه القرى ، اجتازت مجموعة من مثيري الشغب « كوراثون دي ماريا » . لم يحدثوا ضوضاء تقريباً ، لأن الشوارع كانت مكسوة بالحشائش ؛ وهكذا جاء مرورهم صامتاً ، بالرغم من امتطاء الجميع للجياذ . يقولون إن المكان كان غارقاً في الهدوء وأنهم عبروا دون إحداث أى ضجيج ، حتى أنه كان يُسمع صياح « السمور موخو » * وصراخ الجداجد ** ؛ ما كان يُسمع أكثر منهم هو صوت قيثارة انضم إليهم حينما مروا بدار « لوس إيريميتس » وأخذ يذهب ، مبتعداً ، حتى تلاشى .

* « السمور موخو » : طائر ذو منقار مستقيم وحاد . يطير طيراناً قصيراً وبإمكانه البقاء فترة طويلة تحت الماء . (المترجم) .

** الجداجد : نوع من الذباب ، طوله ٣ سنتيمترات ، مستدير الرأس ، لونه أسود مُشربَّب بحمرة ، يحدث عند طيرانه أزيزاً حاداً ورتيباً (المترجم) .

لا أحد يعلم هوية مشيرى الشغب هؤلاء ولا ماذا كانوا يصنعون .
الشيء المؤكد ، وهذا ما قصَّوه علىّ أيضًا ، أن فرقًا من القوات الحكومية اجتازت هي الأخرى القرية بعد أيام قليلة دون أن تتوقف . وأن « إورييو » العجوز ، الذى كان السقم قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا ، انتهز الفرصة وطلب الانضمام إليهم بحجة الأخذ بثأر له من أحد المتمردين المطاردين من تلك القوات . وافقوا . خرج من داره ممتطيا جوادا والبندقية فى يده ، راكضًا للحاق بالقوة ، كان فارع الطول ، كما سبق وأخبرتكم ، وبدا ، وهو مكشوف الرأس ، أشبه ببيرق منه إلى رجل ، ذلك لأنه لم يهتم بالبحث عن القبعة .

انقطعت أخبارهم لعدة أيام . استمر الهدوء مخيما . وصَلْتُ فى تلك الأثناء ، كنت قادمًا من « تحت » ولم أسمع هناك أيضًا خبرًا أو إشاعة ، إلى أن بدأت تُرى جموع من البشر . « فواعلية » ، تعرفون حضراتكم : أجراء من هؤلاء الذين يمضون شطراً من حياتهم فى العمل بسفوح الجبال ولا ينزلون إلى القرى إلا للحاجة أو لأمر جلل ، الآن أنزلهم الفرع . وصلوا قائلين إن معركة طاحنة تدور رحاها هناك فى الربى منذ عدة أيام ، ومن هنا جاء رؤسُهم الاضطرابى .

فات المساء دون رؤية أحد يمر . وصل الليل . ظن البعض أنهم سلكوا طريقًا آخر . كنا نتظر خلف الأبواب المغلقة ، أعلنت ساعة الكنيسة التاسعة ثم العاشرة ، ومع دقائق الساعة كان يُسمع ما يشبه صوت النفير . وبعده خَبَب الجياد ، مددت عنقى حينئذ لرؤية من يكونون ، ورأيت لُمةً من مرتدى الأسمال على خيول عجفاء ؛

البعض يُقَطِّر دَمًا ، والبعض الآخر نائمًا ، بالتأكيد ، لأنهم كانوا يطوحون
رءوسهم في الهواء .

عندما انتهى طابور عرض الأشباح المعتمدة التي تتميز بالكاد عن
سواد الليل ، أخذنا نسمع ، منخفضًا في البداية وأكثر وضوحًا بعد
ذلك ، صوت قيثارة . وبعد فترة وجيزة شاهدت ابني من
العماد ، « إورييو » ، قادمًا على صهوة جواد « إورييو ثيديو » . كان
راكبًا على كَفَل الحصان ، وباليَد اليسرى يعزف على قيثارته لحناً موجهًا ،
بينما تمسك اليمنى بجسد أبيه المستلقى بالعرض على السرج .

« أنكليتو مورونيس »

آه منكن ، أيتها العجائز ، يا حَفْدَة الأبالسة ! رأيتهن قادمات ، فى
موكب ، متشحات بالسواد ، يتصببن عرقًا كالبغال تحت وهج الشمس .
رأيتهن من بعيد يُثرن الغبار مثل قطع من البهائم ، جميعهن سوداوات .
كنّ آيات من طريق « أمولا » رافعات ، فى الحرّ ، أصواتهن بالغناء
والصلوات ، بتماثمهن الكبيرة الداكنة التى يتساقط عليها العرق بغزارة .
رأيتهن يصلن واختبأت ، كنت أعرف وجهتهن وعمن يفتش . لهذا
أسرعت بالاختباء فى مؤخرة الحظيرة ، راکضًا والسروال لايزال بيدي ،
لكنهن دخلن وعثرن علىّ . صحن قائلات : « المجد لمريم البتول ! » .
واقتربن أكثر .

كنت مقعيا فوق حجر ، ساكنًا ، جالسا هناك وحسب دون إتمام لبس
السروال ، لكى يرونى هكذا ولا يقتربن ، لكنهن لم يقلن سوى :
« المجد لمريم البتول ! » ، وواصلن الاقتراب .

يا لکن من عجائز وقحات ! ألا تعرفن حمرة الخجل ! أشرن على
أنفسهن بعلامة الصليب واقتربن إلى أن وقفن إلى جوارى ، كلهن ،
متجاورات مثل أعواد فى حزمة ، يتصببن عرقًا وشعورهن ملتصقات
بوجوههن وكأن رزاز المطر قد تساقط عليهن .

- أتيينا لرؤياك ، يا « لوكاس لوكاتيرو » . من « أمولا » أتيينا لهذا الغرض دون سواه . أخبرونا قريباً من هنا أنك موجود بدارك ؛ لكننا لم نتخيل أنك في مؤخرتها وعلى هذا الوضع . اعتقدنا أنك دخلت لإطعام الدجاج ، ولهذا اقتحمنا عليك خلوتك . جئنا لمقابلتك .

أيها العجائز الشمطاوات ! مُسنّات وقبيحات وكأنهن مصابات بداء كُزَّاز الحمير .

- ماذا تردن ؟ - سألتهن بينما كنت أغلق فتحة السروال وأحكم وثاقه حول وسطى ، عندئذ حجب عيونهن حتى لا يرونى .

- نحمل لك رسالة . بحثنا عنك فى « سانتو سنتياجو » وفى « سانتا إينيس » ، لكنهم أخبرونا أنك تركت هناك وانتقلت إلى هذه القرية ، وها نحن قد أتيينا . نحن من « أمولا » .

كنت أعرف المكان الذى ينتسب إليه ومن يكنّ ؛ بل كان باستطاعتي تعداد أسمائهن ، اسمًا اسمًا ، لكننى تغايبت .

- الحمد لله . عثرنا عليك أخيراً ، يا « لوكاس لوكاتيرو » .

دعوتهن إلى فناء الدار وأحضرت مقاعد ليجلسن عليها . سألت إذا كن يردن طعاماً أو على الأقل جرّة ماء ليرطبن ألسنتهن .

جلسن وهنّ يجففن العرق بتمائمهن .

- لا ، شكرًا - قلن - . لانريد أن نُثقل عليك . نحمل لك رسالة . لاشك أنك تعرفنى ؟ - سألت إحداهن .

- بعض الشيء . يخیل إلى أنسى رأيتك فى مكان ما .
ألت « پانتشا فريجوسو » ، التى خطفها « أوموبونو راموس » بمحض
إرادتها ؟

- بالفعل أنا ، لكن لم يخطفنى أحد ، هذه محض افتراءات . كل
ما فى الأمر أننا تُهنا فى الصحراء ونحن نبحت سويًا عن الصبّاريات . أنا
أتمنى إلى الرهبانية ولم أكن لأسمح بأى شكل من الأشكال ...
- بماذا ، يا « پانتشا » ؟

- آه ! يالسوء ظنك ، يا « لوكاس » ! إلى الآن لم تُقلع عن عادتك
السيئة فى اتهام الناس بالباطل ! وبما أنك تعرفنى ، دعنى أفصح لك عن
سبب مجيئنا .

- ألا تردن ولو جرة ماء ؟ - عدت لسؤالهن .

- لا تعب نفسك ، لكن ما دمت تُصر ، فلن نكسر بخاطرك .

أحضرت لهن دَورًا بماء الريحان فشربنه ، وأحضرت آخر فلم ينتظر
كسابقه . عندئذ قَرَبَت منهن جرة مترعة بماء النهر ، تركتها هناك ، على
أهبة الاستعداد ، لكى يدفعن بها ، فى القريب العاجل ، الظمّ الشديد
الذى يعتورهن - حسبما يدعين - مع بداية هضم الطعام .

عشر نساء ، جالسات فى صفّ ، بملابسهن السوداء المُتربة . بنات
« يونثيانو » ، « إيميليانو » ، « كريستيثيانو » ، « تورييو » - صاحب
الحانة - و « أنا ستاسيو » الحلاق .

عجائز شمطاوات ! لا تُستساغ منهن واحدة ، كلهن على مشارف
الخمسين ، ذابلات ، مكتئبات وضامرات . لامجال بينهن للاختيار .

- وعن ماذا تبحثن هنا ؟

- أتينا لمقابلتك .

- وها أنذا أمامكم ، بخير كما ترون .

- تركت ما وراءك وانتقلت إلى مكان قصي . إلى هذا المكان
المتواري . المتزوى على الخريطة حيث لا يهتدى إليك أحد . أتعبتنا في
العثور عليك بعد كثير من التقصي والسؤال .

- أنا لا أختبئ . أعيش هنا قسري العين ، دون مضايقة الناس . وأية
رسالة تحملن ، إن حق لي السؤال ؟

- المسألة تتعلق . . . لكن لاتزعج نفسك بالتفكير في إطعامنا ، لقد
أكلنا جميعا في بيت « لاتوركاثيتا » . ومن ثمّ عليك بالانتباه والتركيز
معنا ، اجلس أمامنا هنا لكي نراك وتسمعنا جيدا .

لم يكن بمقدوري الركون إلى الدّعة ، كنت أود الذهاب ثانية إلى
الحظيرة ، كنت أسمع صوت الدجاجات وسيطرت على الرغبة في الذهاب
لجمع البيض قبل أن يأكله الأرنبان .

- أنا ذاهب لجمع البيض .

- لقد أكلنا بالفعل ، فلا تشغل بالك .

- لدى هناك أرنبان طليقان وأخاف أن يأكلا البيض . ، سأعود
حالا . وذهبت إلى الحظيرة .

لم تكن فى نيتى العودة ، بل التسلل من الباب المؤدى إلى الربوة وترك تلك السلسلة من العجائز السقيمت للسأم من طول الانتظار .

ألقيت نظرة على كومة الحجارة المنتحية إلى زاوية وطالعتنى صورة لحد . شرعت حيثئذ فى بعثرتها ، ملقيًا بها فى كل اتجاه ، جاعلا خيطا هنا وآخر هناك . كانت حجارة مخروطية من النهر يسهل على تطويحها بعيداً . أيتها العجائز ، يا حفدة يهوذا ! لولاكن ما تجشمت عناء هذا العمل . لا أدرى لماذا سيطرت عليكم نزوة المجيء .

تركت العمل ورجعت . أهديتهن البيض .

- قتلت الأرنيين ! شاهدناك وأنت ترشقهما بالحجارة . سنحتفظ بالبيض إلى وقت لاحق ، ما كان عليك أن تتعب نفسك .

- البيض فى الصدور هكذا يمكن أن يفسد ، الأفضل تركه خارجها .

- آه ، لم تتغير يا « لوكاس لسوكاتيرو » ! مازلت تحب (الهذار) . نحن لسن حاميات إلى هذا الحد .

- لا أعلم شيئاً عن هذا ، قلت ما قلته بسبب شدة الحرارة التى عليها الجو .

ما كنت أبتغيه هو (توزيعهن) . توجيه دفتهن إلى اتجاه آخر ريثما أبحث عن وسيلة لطردهن من دارى طردة تقضى على أية رغبة لديهن فى العودة ، لكننى لم أوفق فى الاهتداء لشيء .

كنت أعرف أنهن يسحثن عني من يناير ، بعد قليل من
اختفاء « أنكليتو مورونيس » . لم أعدم من يحذرنني من اقتفاء عجائز
رهبانية « أمولا » لأثرى . كن الوحيدات اللاتي يمكن أن يهتمهن أمر
« أنكليتو مورونيس » .

وها هن ما ثلاث أمامي .

كان بوسعي الاستمرار في مطّ الحديث معهن أو إلهائهن بأية طريقة
حتى يُمسي عليهن النهار ويضطرون للانصراف ، فلم يكن من المعقول أن
يخاطرن بتمضية الليل في داري .

بعد قليل سنحت الفرصة لأجسّ نبضهن : عندما قالت
ابنة « يونثيانو » أنهن يردن الانتهاء بسرعة حتي يتمكن من العودة
إلى « أمولا » في وضوح النهار ، كنت جاهزاً وقلت إنه لا داعي للانعراج
لأن حصيرة الصيف واسعة وتوجد أغطية تكفي الجميع وزيادة . رددن في
صوت واحد قائلات أما هذا فلا ، فماذا يقول الناس عنهن عندما يعرفون
أنهن أمضين الليل في بيتي وأنا بداخله . أما هذا فلا .

كان شغلي الشاغل ، إذن ، هو إطالة الحديث معهن حتى يمسك
الليل بتلابيبهن ، وساعتها أكون قد تخلصت من الفكرة التي تتر في
أدمغتهن .

سألتُ إحداهن :

~ وما هي أخبار زوجك ؟

- لست متزوجة ، يا « لوكاس » . أنسيت أنني كنت خطيبتك ؟
انتظرتك وانتظرتك وبقيت منتظرة ، إلى أن علمت بعدها أنك تزوجت ،
في وقت لا يرغب فيّ راغب .

- وأنا ؟ ما حدث أن شواغل أخرى ألهمتني ؛ لكن الوقت لا يزال
يسمح .

- لكنك متزوج ، يا « لوكاس » ، وليس أيّ زواج ، بل من
ابنة « الطفل القديس » ذاتها . لماذا تقلّب على المواجه مرة أخرى ؟
لقد نسيتك .

- أما أنا فلا . ما اسمك ؟

- « نيبس » ما زلت أسمى « نيبس » . « نيبس جارثيا » .
وأرجوك لا تثر أشجاني وتدفعني إلى البكاء ؛ لأن مجرد تذكرى لعودك
المعسولة يجعلني أزفر الحشرات .

- « نيبس » . . . « نيبس » . كيف لا أتذكرك وأنت عن لا ينسى
. . . كنت كالنسمة الرقيقة . لم أنس ، ما زلت أحسك بين ذراعي ، رقيقة
غضّة . الفستان الذي كنت ترتدينه لرؤيتي كانت تفوح منه رائحة
الكافور ، كنت تسدّين كل حواسي وتهتصريني بشدة حتى أنني كنت
أحس بك داخل عظامي . نعم ، ما زلت أذكر .

- لاتستمر ، يا « لوكاس » . اعترفت بالأس وتأتى أنت لتوقظ
المشاعر الآثمة وتغرقني في بحر من الذنوب .

- أتذكر أنني كنت أقبلُ بروزات جسديك وأنت كنت تقولين هنا لا ، لأنك سريعة التأثير . أما زالت النونات موجودة بباطن ساقيك ؟
- كُفَّ عن هذا ، يالوكاس لوكاتيرو « . لن يغفر لك الله ما فعلته معي ، سيكون حسابك عسيراً .
- أفعلت بك سوءاً ؟ هل أذيتك بمعاملتى ؟
- تفلت هذا وألقيته وراء ظهري . ولا تضطرنى لقوله أمام الناس . لكن لكى تضعه حلقه فى أذنك : لقد تفلته وألقيته وراء ظهري ، كان شيئاً هكذا مثل مضغة . ولماذا كنت ساقع فى غرامك والمجون والاستهتار ديدنك ؟
- هذا ما حدث إذن ؟ لم أكن أعرف ، ألا تردن قليلاً من ماء الريحان ؟ لن أتأخر فى إعداده . انتظرن .
- وذهبت مرة أخرى إلى الحظيرة لقطف الريحان ، وهناك تلكأت قدر ما استطعت ، ريثما يخف هياج تلك المرأة .
- عندما رجعت كانت قد رحلت .
- ذهبت ؟
- نعم ، ذهبت . لقد أبكيتها .
- ما قصدت بالحديث معها إلا تسليّة الوقت ، ألا يلفت انتباهكن جفاف المناخ هنا ؟ هناك ، فى « أمولا » لا بد وأنها أمطرت ، أليس كذلك ؟

- نعم ، انهمر أول أمس وابل من المطر .
- لاشك أن « أمولا » مكان جميل . تمطر دائماً ويعيش من بها عيشة رغدة . أما هنا فلا تظهر حتى السحب . مازال « روجاثيانو » رئيس البلدية ؟
- نعم .
- رجل طيب « روجاثيانو » هذا .
- لا . إنه ملعون .
- قد تكونن على صواب . وما أخبار « إيلد ليمرو » ، ما زالت صيدليته مغلقة ؟
- « إيلد ليمرو » مات . فعل خيراً بموته ، وإن كان من القبح التصريح بهذا ؛ لكنه كان ملعوناً آخر . كان واحداً من الذين شنعوا على « الطفل أنكليتو » ، اتهمه بالاحتيال والشعوذة وخداع البسطاء . ولم يكف عن ترديد هذا فى كل مكان ، لكن الناس لم تحفل به وجازاه الله شر الجزاء . مات بداء الكلب .
- ندعو الله أن يكون من نزلاء سقر .
- وألا تكلّ الشياطين من تزويد نيرانها بالحطب .
- الشيء نفسه نرجوه للقاضى « ليريو لوپث » الذى أيد دعواه وأمر بإدخال « الطفل القديس » السجن .
- الآن هن اللاتى يتكلمن . تركتهن يتفوهن بكل ما يشتهين . مادمّن لايتعرضن لى فكل شيء على ما يرام . وفجأة ورد بخاطرهن سؤالى :

- ألا تريد المجيء معنا ؟

- إلى أين ؟

- إلى « أمولا » ، لهذا أتينا ، لاصطحبك .

حدثتني نفسى بالرجوع إلى الحظيرة والخروج من الباب المؤدى إلى
الرَبوة والاختفاء . أيتها العجائز التعيسات !

- وما لى أنا و«أمولا» بحق الشياطين ؟

- نريد منك المساندة فيما نسعى إليه . لقد خصص كل المنتمين إلى
رهبانية « الطفل أنكليتو » تسعة أيام للصلوات والتوسلات من أجل المطالبة
بتقنين هذه الأخوية الدينية وجعلها رسمية . أنت صهره ونحتاجك كشاهد
عيان . أوصانا القسيس بإحضار أحد يكون قد خَبَره عن قرب وعرفه قبل
أن يصبح شهيراً بمعجزاته ، ومن لنا أفضل منك وقد عشت إلى جواره
وبإمكانك ، أكثر من غيرك ، سرّد الكرامات التى جرت على يديه ، لهذا
نحتاجك ، لكى تدعمنا فى هذه الحملة .

أيتها العجائز الشائعات ! خامرنى هذا الإحساس من قبل .

- لا أستطيع الذهاب - قلت لهن - . لا يوجد من يعتنى بدارى فى
غيابى .

- عملنا حساب هذا واتفقنا على بقاء فتاتين لحراسة الدار ولمرافقة
زوجتك الموجودة هنا .

- الآن لا يوجد لدى زوجة .

- وأين هي ؟ أين ابنة « الطفل أنكليتو » ؟

- رحلت . تخلصت منها .

- هذا شيء لا يُصدق . لا بد وأن المسكينة تعاني . مع ما كانت عليه من طيبة قلب وشباب وجمال . وإلى أين أرسلتها ، يا « لوكاس » ؟ لن نقتنع بأقل من إدخالها دير « التائبات » .

- لم أدخلها أى مكان . تخلصت منها وحسب ، وأنا على يقين بأنها ليست مع « التائبات » ، فقد كانت مولعة بالصخب والزحام ولا بد أنها تهيم على وجهها فى هذه النواحي منهكة فى فكّ أحزمة السراويل .

- لانصدق ولاحتى كلمة مما قلت يا « لوكاس » . قد تكون هنا معتكفة بإحدى غرف البيت ، مشغولة بصلواتها . عهدناك كذاباً أشر ومروحاً للشائعات ، ألا تذكر بنات « إيرميلينسكو » المسكينات اللاتي اضطررن للرحيل إلى « الجريو » لأن الناس كانت تصرخ فيهن بأغنية « الساقطات » بمجرد أن يخرجن إلى الشارع ، وكان هذا بسبب اختراعك للأقويل . لا يمكن تصديق شيء يصدر عنك يا « لوكاس » .

- لافائدة تُرجى ، إذن ، من ذهابى إلى « أمولا » .

- تعترف أولاً وينصلح الحال . منذ متى وأنت لاتعترف ؟

- أوه ! منذ ما يقرب من الخمسة عشر عاماً . من الساعة التي كان سيعدمنى فيها « لوس كيرستيروس » . صوبوا البندقية إلى ظهري

وجعلوني أجثو أمام القسيس واعترفت ، حتى بما لم أفعله . اعترفت وقتها لسنوات عمرى الباقية .

- لولا حاجتنا إليك ، بصفتك صهر « الطفل القديس » ، ما فكرنا أبداً فى الاستعانة بك ، كنت دائماً فى منتهى الشيطنة يا « لوكاس » .

- لهذا كنت مساعداً لإبليس ذاته : « أنكليتو مورونيس » .

- لا تكفر .

- لا تعرفنه إذن .

- عرفناه كقديس .

- ولم تعرفنه كبائع للإيقونات ؟

- ما هذا الترهات ، يا « لوكاس » ؟

- بالفعل لا تعرفن هذا ؛ لكنه بدأ ببيع تماثيل القديسين فى الموالد وعلى أبواب الكنائس ، وأنا الذى كنت أحمل عدته وأدواته فى جوال . كنا نغضى نحن الاثنين ، واحداً إثر الآخر ، من قرية إلى قرية ، هو فى المقدمة وأنا خلفه حاملاً الجوال وبه إيقونات « سان پانتاليون » و « سان أمبروسيو » و « سان پاسكوال » ، التى كانت تزن مالا يقل عن ستة وثلاثين كيلو جراماً .

ذات يوم تقابلنا مع فوج من الحجاج . كان « أنكليتو » منكفئاً على مساكن للنمل يشرح لى كيف لا يلسع النمل إذا ضغط الواحد بأسنانه على طرف لسانه . تصادف هذا مع مرور الحجاج . رأوه . توقفوا ليشاهدوا تلك النادرة - سألوا : « كيف يمكن ملامسة مساكن النمل دون أن تعضه النملات ؟ » .

فما كان منه إلا أن عقف ذراعيه على شكل صليب وأخذ يقول إنه واصل لتوه من روما ومعه رسالة وأنه يحمل فلقّة من « الصليب المقدس » الذي صُلب عليه المسيح .

حملوه من هناك على أكفّهم ، وأبقوه مرفوعًا هكذا حتى وصلوا به إلى "أمولا " . وانتهى به المطاف هناك ؛ كان الناس يجثون أمامه طلبًا للمعجزات .

- ما أنت إلا قوَال وكافر . ماذا كنت قبل أن تتعرف عليه ؟ راعى خنازير نكرة ، وجعلك غنيًا ، تدين له بكل ما تملك . كان من واجبك ذكره بالخير والثناء عليه ولو من أجل هذا فقط . أيها التعس ، الناصر للجميل .

- أعترف له بانتشالي من وهدة الجوع وأشكره على هذا الصنيع ، لكنني لا أريد قسيد أنملة عن رأيي فيه وهو أنه شيطان يمشى على رجلين ، ولا يزال كذلك إلى الآن أينما وُجد .

- إنه في السماء بين الملائكة ، في نعيم الجنة ، وإن كان هذا يوجعك ويوغر صدرك .

- ما أعرفه أنه في السجن .

- كان هذا من فترة ، هرب ، وبعدها اختفى دون أن يترك أثرًا . إنه الآن في السماء جسدًا وروحًا . وباركنا من هناك . عليكن بالركوع أيتها الفتيات ! لنصل : « التوبة والمغفرة ، ياربنا » لكي يشفع لنا « الطفل القديس » .

وركعت العجايز وهن يقبلن ، عقب كل « يا أبونا الذى فى السماء » ،
التمائم المطرزة بصورة " أنكليتو مورويس " .

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر .

انتهزت الفرصة لأدخل المطبخ وأزدرد بعض لقيمات من عجة
اللوييا .

عندما رجعت لم أجد منهن سوى خمس نساء .

- أين الأخريات ؟ - سألت .

ردّت علىّ " لا يانتشا " محرّكة الأربعة شعيرات المتدلّية من
شاربها :

- ذهن . لا يردن التعامل معك .

- أحسن ، تكثر الذرة عندما تتناقص أعداد الحمير ، ألا تردن ماءً
آخر بالريحان ؟

تطوحت إحداهن ، " لا فيلومينا " ، التى ظلت صامتة طوال الوقت
يلقبونها « بالقتيلة » نكاية فيها ، وانكفأت على إصيص للزّرع وأدخلت
إصبعها فى فمها وأخذت تفرغ كل مياه الريحان التى تجرعتها ، مخلوطة
بقطع صغيرة من لحم الخنزير وبيعض الحبوب .

- لا أريد منك ماء ريحان ولا غيره ، أيها الكافر . - وضعت البيضة
التى أهديتها لها على الكرسي - . ولا أريد بيضك ! الأفضل لى
الانصراف .

لم يتبق الآن منهن سوى أربع .

- أنا الأخرى لى رغبة فى التقيؤ - قالت "لاپانتشا" - . لكتنى أقاوم . لابد وأن نحمك إلى "أمولا" بأى شكل من الأشكال ، أنت الوحيد الذى بإمكانه تقديم البراهين على قداسة «الطفل القديس» . بالتأكيد سيجعل قلبك يلين ، لقد علقنا صورته بالكنيسة وليس من الإنصاف انتزاعها من هناك وإلقائها فى عرض الطريق بسبك .

- ابحن عن آخر . لا أريد المشاركة فى الحملة .

- كنت ابنه تقريبًا . ورثت ثمرة قداسه . وضع فيك نظرتَه لتدوم وتخلد . أعطاك ابنته .

- بالفعل ، لكنه أعطاه لى جاهزة .

- سترك يارب ! كلامك فظيع يا "لوكاس لوكاتيرو" .

- أعطاه لى حاملا فى الشهر الرابع على أقل تقدير .

- لكنها كانت تتضوع قداسة .

- بل تفوح منها النتانة . صعد إلى رأسها كشف بطنها أمام الرائح والغادى لكى يتأكدوا أنها من اللحم . كانت تظهر لهم (كرشها) المنتفخ ، الضارب إلى الزرقة بفعل كبر حجم الجنين . كانوا يضحكون . كانت خالعة العذار . تلك هى ابنة "أنكليتو مورونيس" .

- ياكافر . كيف يصدر عنك هذا الكلام ! سنهديك تميمة لتطرد الشيطان الذى يلبسك .

- هربت مع واحد منهم ، زاعمة أنه يحبها . قلت لها فقط : « سأخاطر بإعطاء المولود اسمى » وهربت معه .

- كانت ثمرة « الطفل القديس » . فى ريعان الشباب . وحصلت عليها دون مقابل . كنت مالكا لتلك الثروة سليمة القداسة .

- ترهات !

- ماذا تقول ؟

- فى بطن ابنة " أنكلييتو مورونيس " كان يرقد ابن " أنكلييتو مورونيس " .

- هذا من اختراعك لتفترى عليه بالباطل ، الافتراء شيمتك .

- نعم ؟ وما بال الأخريات ؟ لقد ترك هذه البقعة من العالم دون عذراوات ، إذ كان يصبر على أن ترافقه آنسة تسهر عليه طوال الليل لتتعهد منامه .

- كان يفعل هذا لأنه ينشد النقاء والطهارة . لكى لا تدينه الآثام .
كان يريد أن يحيط نفسه بالبراءة حتى لا تتدنس روحه .

- تعتقدن هذا لأنه لم يطلب إحداكن لرافقته .

- لقد دعانى - قالت واحدة منهن تدعى " ملكيادس " - . وسهرت أروعي منامه .

- وماذا حدث ؟

- لاشيء سوء اهتمام يديه الخارقتين لى فى تلك الساعة التى يحس فيها بوصول البرد . وحمدت له الدفء المنبعث من جسده . لاشيء أكثر .

- هذا لأنك كنت عجوزًا . إنه يحبهن لِدِنَات ؛ من تطلق عظامهن الصغيرة بين أحضانه مثل قشر الفول السوداني .

- أنت زنديق ملعون ، يا " لوكاس لوكاتيرو " ، بل أبشع زنديق على وجه الأرض .

الآن تحدث " لا إويرفنا " * ، المشهورة ببكائها الدائم . أعجزهن . كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، ويدها ترتجفان :

- أنا يتيمة وهو الذى أنسانى اليتم ؛ وجدت فيه أبى وأمى من جديد . أمضى الليل يداعبنى ليزيل عني الكآبة والحزن . كانت دموعها تتساقط .

- إذا كان الحزن قد ولى فلا داعى ، إذن ، للبكاء - قلت لها .

- هذا لأن والدى ماتا وتركانى وحيدة ؛ يتيمة فى تلك السن التى يصعب فيها العثور على مؤازرة . الليلة السعيدة الوحيدة أمضيتها فى كنف " الطفل أنكليتو " ، بين ذراعيه المفعمتين بالعزاء والسلوى ، وتأتى الآن لتتطاول عليه وتذكره بالسوء .

- كان قديسًا .

- منبعًا للصلاح .

- كان أملنا أن تسير على دربه ، لقد ورثته بكامله .

* (La Huérfana) (لا إويرفنا) ، هذه الكلمة مستخدمة كلقب ومعناه : اليتيمة . (المترجم) .

- أورثنى كمًا هائلًا من الرذائل ، علاوة على عجز بلهاء . ليست طاعة في السنّ مثلكن ؛ لكن خبَلَهَا لا مرآء فيه . فعلت خيرًا برحيلها . أنا الذى فتحت لها الباب .

- هرطقة ١ تخترع هرطقات واضحة للعيان .

لم يبق عندئذ سوى اثنتين منهن .

تسللت الباقيات ، ناكصات على أعقابهن ، واحدة إثر أخرى ، وهن يلوحن فى وجهى بالصليب ويعدننى بالرجوع معهن المعوّزون الطاردون للأرواح الشريرة .

- لا تستطيع إنكار المعجزات التى جرت على يدى « الطفل أنكليتو » - قالت ابنة " أنا ستاسيو " - . لن تعارض فى هذا بالتأكيد .

- تصنع الأطفال لايندرج تحت أى بند من بنود المعجزة . كان هذا مجال تخصصه .

- لقد شفى زوجى من الزُّهْرِ .

- لم أكن أعرف أن لك زوجًا . أأست ابنة " أنا ستاسيو " الحلاق ؟ . ابنة " تاتشو " غير متزوجة ، حسب علمى .

- أنا عزباء ، لكن لدى زوج . العزباء شىء ، والآنسة شىء آخر . تعرف هذا . أنا لست آنسة ، لكن عزباء .

- فى سنّيك تلك تفعلين هذا ، يا " ميكائيل " .

- كان علىّ أن أفعله ، ما الذى كنت سأجنيه من حياة العزوبية ؟ أنا امرأة ، والواحدة تُولد لتُهب ما أودع فيها .

- تتحدثين بلسان « أنكليتو مورونيس » .
- نعم ، هو الذى نصحنى بفعل هذا للشفاء من داء الكبد ، اقترنت بشخص ما ، لأن الوصول لسن الخمسين مع البقاء جديدة خطيئة .
- أفتاك بهذا « أنكليتو مورونيس » !
- نعم ، هذه فتواه . لكننا آتينا لشيء آخر ؛ لتذهب معنا وتشهد بأنه كان قديسًا .
- ولماذا لا أكون أنا ؟
- لم تصدر عنك أية معجزة . هو شفى زوجى . وأنا شاهدة على ذلك . هل شفيت أحدًا مرة من الزهرى ؟
- لا ، ولا حتى أعرفه .
- إنه شيء هكذا مثل الغرغرينة . أصبح لونه بنفسجيًا وامتلا جسده بالثُدب . لم يكن يعرف طعم النوم . كان يقول إنه يرى كل شيء مصطبغًا بالحمرة وكأنه يطل من بوابة الجحيم ، كان يحس بعد ذلك بحرقان يجعله يشب من الألم . ذهبنا حيثُذ إلى « الطفل أنكليتو » وشفاه ، كواه بعود مشتعل من البوص ومسّ الجروح بلعابه ، وجفّت واختفت أوجاعه . أخبرنى إذا لم تكن هذه معجزة .
- لا بد وأنه كان يعانى من الحصبة . أنا أيضًا عالجونى باللعب عندما كنت صغيرًا .
- أكرر ما سمعته من قبل : أنت زنديق ملعون .
- عزائى الوحيد أن « أنكليتو مورونيس » كان أسوأ منى .
- عاملك معاملة الأب لابنه . ومازلت تجرؤ . . . لا أريد مواصلة سماعك . إنى راحلة . أتبقين يا « پانتشا » ؟

- لبعض الوقت ، لأحاول معه المحاولة الأخيرة .

- اسمعى ، يا " فرانثيكا " ، بعد أن رحلت الأخريات ولم يبقِ إلا أنت ؛ ستنامين عندى الليلة ، أليس كذلك ؟

- ولو رأيت حكمة أذنك ، وكلام الناس ؟ ما بقيت إلا بغرض إقناعك .

- على كل واحد منا ، إذن ، إقناع الآخر . لن تخسرى شيئاً فى النهاية . بلغت أرذل العمر ولن يهتم بك أحد أو يُسدى إليك معروفاً .

- وأقاويل الناس ، وظنونهم السيئة ؟

- دعيهم يظنون كما يحلو لهم . فالأمر سواء . وعلى أية حال فهم يلقبونك " يانتشا " * .

- حسنا ، سأبقى معك ؛ لكن إلى مطلع الفجر فقط . وهذا على شرط أن تعدنى بالمجىء معى إلى " أمولا " ، لكى أخبرهن بأننى أمضيت الليلة بطولها فى الإلحاح والتوسل إليك . وإلا ، فماذا سيكون موقفى ؟

* « پانتشا » (Pancha) : بمعنى بطن أو كرش . وقد أُطلق عليها هذا اللقب لأنها كانت دائمة التورط والحمل السفاح . (المترجم) .

- موافق . لكن عليك قبل هذا بقصص الشعيرات المتدلّية من شاربك ، سأحضر لك المقصص .

- أنت تسخر منى . لا يشغلك سوى النظر إلى عيوي . اترك الشارب على حاله ، على الأقل حتى لا يتسرب إليهن الشك .

- حسنا ، كما تبغين .

عندما أدبر النهار ، ساعدتني في إصلاح عريشة الدجاج وجمع الحجارة التي كنت قد بعثرتها في الحظيرة ، وإعادة تكويمها في الركن الذي كانت فيه من قبل .

لم أفسد عليهن حملتهن وأخبرهن أن " أنكليتومورونيس " مدفون في ذلك الركن ، ولا أنه مات في اليوم نفسه الذي هرب فيه من السجن وجاء إلى هنا ليطالبنى بإعادة ممتلكاته .

وصل قائلا : - بع كل شيء وأعطني المال ، لأتني في حاجة للسفر إلى الشمال .

سأكتب لك من هناك وسنعود للعمل سوياً .

- لماذا لاتأخذ ابتك معك ؟ - سألته - . هي التي تفيض عن كل مالدي وتدعى أنه يخصك . لقد أوقعتنى في حبال أفعالك الشائنة .

- ستلحقان بي فيما بعد ، عندما أرسل لكما بعنواني ، وهناك سنصفي حساباتنا .

- الأفضل تسويتها الآن وإلى الأبد ، ليعرف كلُّ منا ما له وما عليه .

- الوقت لا يحتمل (الهزار) - قال لى - . أعطنى ما يخصنى .
كم معك الآن من النقود ؟

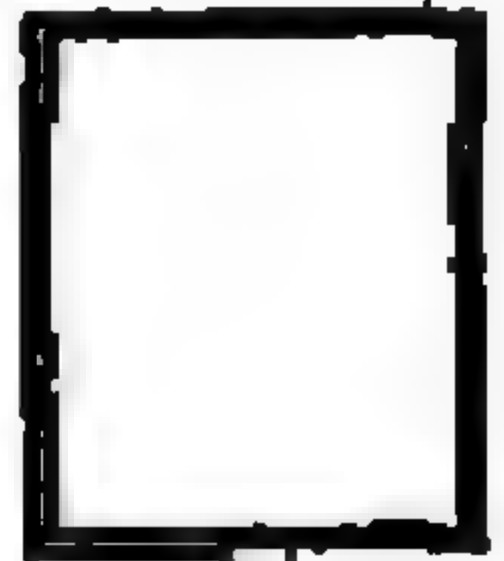
- بعض المال ، لكنى لن أعطيه لك . لقد أمضيت أيامًا حالكة مع
المستهتره ابتك ، وقد وصلك حقك وزيادة بإنفاقى عليها .

أرغى وأزبد . كان يضرب الأرض بقدميه ويتعجل الذهاب . . .

« عليك رحمة الله » ، يا " أنكليتومورنيس " ، قلت له عندما
دفتته ، وكلما ذهبت إلى النهر أعود منه محملاً بالحجارة لألقيها فوق
قبره : « لن تخرج من هنا حتى ولو استخدمت كل ما فى جرابك من
حيل » .

والآن تساعدنى " لايانتشا " فى وضع ثقل الحجارة فوقه من
جديد ، دون أن يدور بخلدها أن " أنكليتو " يرقد تحتها وأنى أفعل هذا
خوفًا من خروجه من لحده ، وعودته لمناصبتى العداء ثانية . لم أكن
أشك ، نظرًا لما كان يتمتع به من مهارة ، فى أنه لن يعدم وسيلة للخروج
بها من هناك والعودة إلى الحياة .

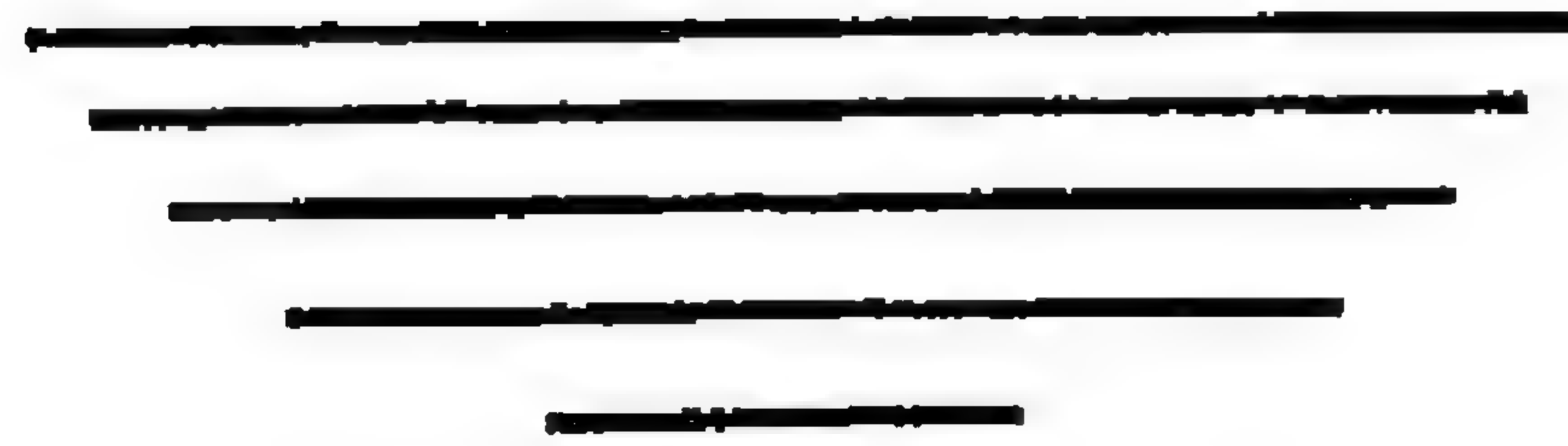
- ألقى ما تقدرين عليه ، يا " يانتشا " . كوميها فى هذا الركن ،
لا يعجبنى منظر أرضية حظيرتى وهى مكتظة بالحجارة .



قالت لى بعد ذلك ، عند السَّحر :

- أنت بلوى وعديم الخبرة ، يا "لوكاس لوكاتيرو " . لاتحمل مثقال ذرة من الحنان أو الدفء . أتدرى من كان ضليعاً فى هذا المضمار ؟
- من ؟

- « الطفل أنكليتو » . كان داهية فى ممارسة الحب .



انتهت ترجمة هذه المجموعة القصصية .

الفهرس

رقم الصفحة

- خوان رولفو « والسهل الصامت الحزين (مقدمة بقلم المترجم) . 5
- ١ - لقد أعطونا الأرض 29
- ٢ - مطلع العرّابات 37
- ٣ - فقراء لحدّ الضياع 49
- ٤ - الرجل 55
- ٥ - عند السحر 69
- ٦ - " تاليا " 79
- ٧ - " ماكاريو " 91
- ٨ - السهل يحترق 99
- ٩ - قل لهم يتركوني أعيش 125
- ١٠ - " لوبينا " 137
- ١١ - الليلة التي تركوه فيها وحيداً 151
- ١٢ - نقطة العبور إلى الشمال 157
- ١٣ - ألا تذكر ! 169
- ١٤ - أسمع نباح الكلاب ؟ 175
- ١٥ - يوم الزلزال 183
- ١٦ - تركة " ماتيلدي أركانخل " 195
- ١٧ - " أنكليتو مورونيس " 205

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القوي للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت . أحمد سويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكرفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت . مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١ - مختارات	فيسواقا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميت	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميت	ت : أشرف رفيق عفيقي
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت . طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يعنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة العناني
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت . نخبة
٢٨ - رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ - التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصه إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم قحى / مصود ملج
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باريز	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتايفو پات	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	الدوس مكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - مشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا توما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . تورييس	ت : عيد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلاوي ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوييا رخ . م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعى	بيتر . ن . ثوقاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي قطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . النجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصياحي
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحيرة	كارلوس مونيث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد القنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميت	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	الان رود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - تناشا العجوز وقصص أخرى	فالتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز ت . س . إليوت
- ٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكينز
- ٧٤ - صلاح الدين والماليك في مصر ل . ا . سيمينوفنا
- ٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
- ٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي مجموعة من الكتاب
- ٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢ رينيه ويليك
- ٧٨ - العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
- ٧٩ - شعرية التأليف بوليس أوسبنسكي
- ٨٠ - برشكين عند «تأقودة الدموع» ألكسندر بوشكين
- ٨١ - الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
- ٨٢ - مسرح ميغيل ميغيل دي أونامونو
- ٨٣ - مختارات غوتفريد بن
- ٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
- ٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكي أقطاي
- ٨٦ - طول الليل جمال مير صادقي
- ٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
- ٨٨ - الابتلاء بالتغرب جلال آل أحمد
- ٨٩ - الطريق الثالث أنتوني جينتز
- ٩٠ - رسم السيف (قصص) نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
- ٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
- ٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميغل
- ٩٣ - محدثات العولمة مايك فيذرستون وسكوت لاش
- ٩٤ - الحب الأول والصحية صمويل بيكيت
- ٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني أنطونيو بويرو يايخو
- ٩٦ - ثلاث رنبيقات ووردة قصص مختارة
- ٩٧ - هوية فرنسا (مج ١) فرنان برودل
- ٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني نماذج ومقالات
- ٩٩ - تاريخ السينما العالمية ديفيد روبنسون
- ١٠٠ - مساملة العولمة بول هيرست وجراهام توميسون
- ١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج) بيرنار فاليط
- ١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الكريم الخطيب
- ١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء عبد الوهاب المؤدب
- ١٠٤ - أويرا ماهوجني برتول بريشت
- ١٠٥ - منخل إلى النص الجامع جيرارچينيت
- ١٠٦ - الأدب الأندلسي د. ماريا خيسوس روبييرامتي
- ١٠٧ - سرية اللدائي في الشعر الأمريكي المعاصر نخبة
- ت : فؤاد مجلى
- ت . حسن ناظم وعلى حاكم
- ت : حسن بيومي
- ت : أحمد درويش
- ت : عبد المقصود عبد الكريم
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : أحمد محمود ونورا أمين
- ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
- ت : مكارم القمري
- ت : محمد طارق الشوقاري
- ت : محمود السيد علي
- ت : خالد المعالي
- ت : عبد الحميد شيعة
- ت : عبد الرازق بركات
- ت : أحمد فتحي يوسف شتا
- ت : ماجدة العناني
- ت : إبراهيم الدسوقي شتا
- ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
- ت : محمد إبراهيم مبروك
- ت : محمد هناء عبد الفتاح
- ت : نادية جمال الدين
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : فوزية العشماوي
- ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
- ت : إينوار الخراط
- ت : بشير السباعي
- ت : أشرف الصباغ
- ت : إبراهيم قنديل
- ت : إبراهيم فتحي
- ت : رشيد بنحو
- ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
- ت : محمد بنيس
- ت : عبد الغفار مكاوي
- ت : عبد العزيز شميل
- ت : أشرف علي دعدور
- ت : محمد عبد الله الجعدي

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكي
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنه بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى بلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحنا حصاد كونجى وسكان المستنق	ول شويتكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سميرة رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا تلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبه من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيثل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - القجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بليغ
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروت	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوتدر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كوني	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف	إيفيلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريس فى حال	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التطير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جوليدونى	ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فوينتس
١٤٦ - الورقة الحمراء ميجيل دي ليبس
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة تانكريد دورست
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إلوت وأنونيس عاطف فضول
١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
١٥٣ - غرام الفراغة فيولين فاتويك
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو
١٥٧ - خسرو وشيرين النظامي الكنجوي
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس
١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرليش
١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الأسوي
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١ جوردون مارشال
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لوكريتير
١٦٥ - حكايات الشعب آ . ن أفانا سيفا
١٦٦ - العلاقات بين الدين والعلوم في إسرائيل يشعياهو ليتمان
١٦٧ - في عالم طاغور رابندراناث طاغور
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين
١٧٠ - الطريق ميغيل دلبيس
١٧١ - وضع حد فرانك بيجو
١٧٢ - حجر الشمس مختارات
١٧٣ - معنى الجمال ولترت . ستيس
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية لورينزو فيلشس
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنبرج
١٧٧ - أنطون تشيخوف هنري تروايا
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث نخبة من الشعراء
١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل قصيص
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي هنسنت . ب . ليتش
ت : أحمد حسان
ت : علي عبد الرؤوف البعبي
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : علي إبراهيم علي متوفى
ت : أسامة إسبر
ت : منيرة كروان
ت : بشير السباعي
ت : محمد محمد الخطابي
ت : فاطمة عبد الله محمود
ت : خليل كلفت
ت : أحمد مرسى
ت : مي التمساني
ت : عبد العزيز بقوش
ت : بشير السباعي
ت : إبراهيم فتحى
ت : حسين بيومي
ت : زيدان عبد الحليم زيدان
ت : صلاح عبد العزيز محبوب
ت : ياشراف : محمد الجوهري
ت : نبيل سعد
ت : سهير المصادفة
ت : محمد محمود أبو غدير
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : بسام ياسين رشيد
ت : هدى حسين
ت : محمد محمد الخطابي
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : أحمد محمود
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : جلال البنا
ت : حصة إبراهيم منيف
ت : محمد حمدي إبراهيم
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : سليم عبد الأمير حمدان
ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه جيلسون
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام هانز إيندورفر
١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
١٨٧ - الأرضة بُزْج علوى
١٨٨ - موت الأدب الثين كرنان
١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١ - الكلام وأسمال الحاج أبو بكر إمام
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك زين العابدين المراغى
١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
١٩٤ - مختارات من نقد الأنطو - أمريكى مجموعة من النقاد
١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل قصيح
١٩٦ - المهلة الأخيرة هالتين راسبوتين
١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إدوين إمري وآخرون
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندائى
٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبروك
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جزء رينيه ويليك
٢٠٢ - الشعر والشاعرية أطفاف حسين حالى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى - سفورزا
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
٢٠٧ - ليل إفريقى رامون خوتاسندير
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوربان
٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
٢١١ - فردينان دوسوسير جوناثان كلر
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان مرزبان بن رستم بن شروين
٢١٣ - مصر منذ قوم ثلثين حتى رجل عبد القصر ريمون فلاور
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيدنز
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جزء زين العابدين المراغى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت
٢١٨ - راويلا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
ت : فتحى العشرى
ت : دسوقي سعيد
ت : عبد الوهاب علوب
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : علاء منصور
ت : بدر الديب
ت : سعيد القانمى
ت : محسن سيد فرجاني
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : محمود سلامة علاوى
ت : محمد عبد الواحد محمد
ت : ماهر شفيق فريد
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : أشرف الصباغ
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
ت : فخرى لبيب
ت : أحمد الأنصارى
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : أحمد محمود هويدى
ت : أحمد مستجير
ت : على يوسف على
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت : محمد أحمد صالح
ت : أشرف الصباغ
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : محمود حمدي عبد الغنى
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : سيد أحمد على الناصرى
ت : محمد محمود محى الدين
ت : محمود سلامة علاوى
ت : أشرف الصباغ
ت : نادية البنهاوى
ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجور	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية في الكون	باري باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ - شعرية كفاقي	جريجوري جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراي	ت : نسيم مجلي
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر	بول فيراينو	ت : السيد محمد نفادي
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارتيا ماركت	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض النساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	ت : طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركي	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مازق البطل الوحيد	نورمان كيمن	ت : أمير إبراهيم العمري
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١ - الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزي ج ١	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادي	روبن فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى منبولى أحمد
٢٣٩ - العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلرافر - راويغ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - في انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبي
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١	إيفي بروقتسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الفليان	لورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق علي منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرتيا ماركت	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحدائق في مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوي
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جورجون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : علي بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روينسون وجودي جروفتز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روينسون وجودي جروفتز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - بيكارت	ديف روينسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : ثاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إيوارد مندوتا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلي	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سوريلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عروكي
٢٦٨ - ليوان شمس تبريزي ج٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سي . ياترسون	ت : شوقي جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية في مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوي
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود علي مكي
٢٧٥ - س. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمساني
٢٧٧ - الهيتات . الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزي
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت . ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الألب الهندي الحديث والمعاصر	بريم شند وأخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - القردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوي	ت : جلال الحفناوي
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : علي البمبي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٦٢٢ / ٢٠٠١



El llano en llamas

Juan Rulfo



إن الحديث عن هذه المجموعة القصصية التي تضم سبع عشرة قصة قد يطول إلى ما لا نهاية ؛ لأنها نبع ثرّ لا يفيض ماؤه ويكتنفها الغموض والإبهام ، ومن ثم فإنها تحتل العديد من التأويلات ، إن الكلام عنها - مهما كثر - لا يغنى عن الانفراد بها وقراءتها مرات ومرات ؛ لأنها كالماء الأجاج كلما عبّ منه الإنسان ازداد عطشه وأحس بالحاجة للرجوع إليه .

الجميل في هذه المجموعة أشبه بدفقات سلاح نارى ، لكنه سلاح من أرض «رولفو» ، تخرج طلقة من فوهته إلى الأمام ، وترتد الثانية من مؤخرته في الاتجاه المعاكس ؛ فهي تتقدم خطوة وتتقهقر أخرى ، وكأن كل جملة تعض ذيل سابقتها وتعوقها عن الحركة ، وليس هذا وحسب ، بل إننا نجدها أحياناً خالية من الروابط ، وأحياناً أخرى نجد بها كلمة محورية تدور حولها بقية الكلام .